ولا غالب الا الله

تطوان



المملكة المغربية
وزارة التربية الوطنية
والشبيبة والرياضة

نيابة الشمال

«تطوان»

مجلة الابحاث المغربية الاندلسية

تنبيه :

لا تقبل للنشر الا المواد المطلوبة والمقالات المعروضة لابد أن تمضى بأسماء أصحابها .

يجب على المؤلفين أو الناشرين الذين يرغبون في الاخبار عن مؤلفاتهم في «تطوان» أن يبعثوا نسختين الى سكرتارية هذه المجلة.

المراسلة الادبية توجه الى السكرتير وغيرها تبعث الى مدير «تطوان» ـ نيابة وزارة التعليم تطوان (المغرب) .

ثمن النسخة :

في المغرب وفرنسا	1.250 فرنك
في اسبانيا	150 بسيطة
في باقي البلاد	4 دولارات

تطوان

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

تطوان

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

العدد الاول

السنة 1956

مطبعة كريماديس ، شارع محمد الطريس 17 ـ تطوان



صورة صاحب الجلالة المنصور بالله سيدي محمد الخامس
ملك المغرب

تقـــديـــم

بقلم الاستاذ محمد ابن تاويت

بعد ما صدر العدد الاول من مجلة «Tamuda» سنة 1953 فكر بعض الاعضاء الذين تضمهم «هيئة رعاية البحوث والثقافة المغربية العليا» بتطوان فى ان يردف صدور هذه المجلة مجلة عربية تتناول البحوث التى تتعلق بالمغرب والاندلس على نحو صنيع هذه المجلة الصادرة بالاسبانية ، فعقد هؤلاء اجتماعا لهذا الصدد ، حضره من المغاربة الاساتذة ، عبد الله كنون ومحمد عزيمان ومحمد بن تاويت . وبعد ما درسوا موضوع اصدار هذه المجلة على ذلك النحو وكونوا لها هيئة تشرف عليها من مغاربة واسبان ، قرروا ان تصدر هذه المجلة حاملة اسم « الكتبية » .

ومن الطريف ان يكون هذا الاسم اقترن بذلك الحادث الخطير الذى هز أركان العالم وزلزلت له افئدة المردة والشياطين وقد خلصوا بجلدهم ـ أو بعضه ـ من ذلك الانفجار الذى دوت أصداؤه بجامع الكتبية العتيد ...

لقد درست امكانيات هذه المجلة ، وقدم مشروعها الى نيابة التعليم بتطوان ليصادق عليه ولكن بعدما سلم هذا المشروع الى «الاقامة العامة» آنذاك رفض المشروع بدعوى ان ميزانية هذه النيابة لا تتحمل نفقات هذه المجلة ... وبذلك ظلت مجلة « Tamuda » وحدها تتمتع بهذه الميزة التى سمحت لها ان تستمر فى الصدور ، واقبر مشروع المجلة العربية الا ان التفكير فيه ظل ماثلا فى رؤوس أصحابه يترقب الفرصة التى تسنح ليخرج الى حيز الوجود .

وما استرد المغرب سيادته ، وما شكلت وزارته الوطنية ، حتى عاود هؤلاء الجماعة محاولتهم الاولى لتنفيذ ذلك المشروع المثالى، فاتجهت نيابة التربية الوطنية والشبيبة والرياضة بالشمال الى وزارتها التى ما فتئت ان تلقته بمزيد الترحاب والتشجيع ، فشمرت هذه الجماعة عن ساعدها ـ شاكرة ـ لاعداد العدد الاول من هذه المجلة التى تحول اسمها الى «تطوان».

ولعل القارئ يتساءل : لم استبدل اسم «الكتبية» باسم «تطوان» ؟ هذا سؤال وجيه ، والحقيقة ان التفكير في اسم المجلة صار يشغل كثيرا من الوقت ، ويتناول كثيرا من الاعتبارات التي لا يدركها الا من تصدى لوضع الاسماء التي يحاول تطبيقها على مسمياتها ...

لقد انتهى المطاف الى تسمية المجلة باسم «تطوان» وما كان ذلك عن تحيز — كما يبدو — لتطوان ولكن ذلك كان لان هذا الاسم سيحمل الطابع الخاص بهذه المجلة — ولو الى حين — ولان كثيرا من الموضوعات المغربية التي يلامسها الاندلس لها علاقة اكثر متانا بهذه الناحية ، على حين ان هذه المجلة كانت هي الاولى من نوعها تصدر بتطوان ، فلا اقل من ان يسجل لتطوان هذا الحادث للذكرى والتاريخ ، لا للفخر والمباهاة ...وحبذا لو وجدنا مجلات عديدة تصدر في المدن المغربية العديدة حاملة اسماءها ، فتكون بذلك شبكة مغربية ثقافية ، كما تكون هذه شبكة مغربية جغرافية ، فان ذلك مما يثلج صدور المغرب العزيز ، وتعم ارجاء هذا القطر حركة مباركة لا مركزية فيها تنكمش فيها الحياة الفكرية ولا استئثار فيها لمدنية من المدن او جهة من الجهات ، فتوزع بذلك ثمرات الافكار التي هي للمغرب جميعه حظ مشاع فيه يتجاذب اطرافه هذا الافق بجميعه وتتجاوب اصداؤه في سائر انحائه ...

نعم : وجدنا من وزارة التربية والشبيبة والرياضة كل معونة ومساعدة، وبقي علينا ان نجد تلك المعونة وهذه المساعدة — مع الفارق — من كتابنا الذين يطفح بهم المغرب — بحمد الله — في كل بقعة من بقعه ...

ويظهر ان هذه المرحلة الطيبة التي تجتاز بها البلاد صرفت الناس او شغلتهم — موقتا — عن النظر في الاشياء ، ووجهتهم الى العملي منها : الا ان ذلك لم يشغلهم عن ان يعدوا وعدا جميلا ما زلنا ننتظر منهم انجازه متوسلين بوسائل الكتابة والمشافهة ، فلعل المستقبل الذي نامل ان يكون قريبا يكون كفيلا بانجاز ما وعدت به «هنده» هذا العصر، لا «هنده» العصر الغابر ...

أما عملنا هذا الذي اقدمنا عليه بشجاعة — تحمد عند قوم وربما لا تحمد آخرين — فانه لم يكن الهدف منه الاسد هذا الفراغ الذي نحس به جميعا في محيط هذا النوع من البحوث التي ما زالت لغة «الضاد» عنه غريبة بقدر غرابة هذه «الضاد» نفسها حتى عن اصحابها ؛ فالبحث المغربي الاندلسي تستبد به مجلات تصدر بغير العربية مثل مجلة Hespéris الافرنسية ومجلة Al-Andalus الاسبانية ثم مجلة «Tamuda» التي صدرت اخيرا بالاسبانية. وليس في

العربية مجلة بهذه الصفة اللهم الا «صحيفة المعهد المصرى» بمدريد تجود فيها الاقلام المصرية ـ غالبا ـ بالبحوث الاندلسية خاصة ، ولا تطرق من الموضوعات المغربية الا ما يتصل منها بالاندلس على سبيل التعرض اليها لا الاتجاه ـ بادىء ذى بدء ـ نحوها.

وعذر اخواننا الاعزاء من المصريين مقبول واضح لا غبار عليه ، فنحن نكبر فيهم هذا الاخلاص للعلم لانهم لا يريدون ـ كما يفصحون عنه فى غير ما مرة ـ ان يحشروا انفسهم فيما هم غير متمكنين فيه ، فهذه الجمهرة المباركة منهم اقامت بالاندلس وخبرت شؤونه ودرست ثقافته القديمة والحديثة وحضرت فى ذلك رسائلها العديدة التى نالت بها درجات «الدكتوره» عن جدارة واستحقاق ، ثم هم الى جانب ذلك توجهوا الى «الفردوس المفقود» فجنوا من ثمراته ما كان ملقى تحت اشجاره الخريفية تدوسه الاقدام وتطؤه النعال ، فاستنقذوا بذلك ما امكنهم استنقاذه . اما فردوسنا ـ والحمد لله ـ فهو فى ملكنا ننعم بثمراته ونتنشق عبير ازهاره ، فليس من اللائق ان يقتحموه وقومه به لا يصدهم عن نعيمه الا غفوتهم التى عاقتهم عن اجتناء الثمر والتلذذ بنسيم الزهر...

فعلى المغاربة انفسهم ان يفيقوا من غفوتهم وان يتمتعوا بالطيبات من الرزق وأن يقدموا من «فردوسهم» الى الناس باقات من زهوره وطاقات من ثماره ...

لهذا كان من الاجدر ان تقوم مجلة «تطوان» بهذه المهمة ـ على قدر استطاعتها ـ مهيبة برجال الفكر من المغاربة ان يساندوها فى هذه الرسالة بالمشاركة باقلامهم فيها ، أو باصدار مجلات اخرى على استقلال ، فتتظافر بذلك الجهود وتتعاون به السواعد والفهوم ، فاننا لا ندعى اننا قمنا او نقوم بتأدية هذه الرسالة على وجهها المطلوب ، وانما نقول : اننا قد عملنا شيئا نرجو ان يكون فاتحة اشياء خير منه وابقى ...

وأخيرا لا يفوتنا ان نتوجه فى هذه المجلة باصدق العواطف واخلص التمنيات الى سدة حضرة صاحب الجلالة ملكنا المفدى سيدى محمد الخامس والى ولى عهده الامير المحبوب مولاى الحسن ضارعين الى المولى جل جلاله ان يكلأ برعايته وان يحفظ بعنايته عائلته المجيدة وبيته الكريم . كما لا يفوتنا ان نعبر عن شكرنا العميق لوزارة التربية الوطنية والشبيبة والرياضة عما اسدته الينا من معروف وما عضدتنا به فى سبيل اخراج هذه المجلة الى حيز الوجود .

محمد ابـن تاويـت

وثيقـة تـاريخيـة عـن تـطـوان

هي مذكـرة لرجـل يظهر انه جزائـري ـ كما سيأتي ـ ظل في تطـوان بعد ما احتلها الاسبان في حرب الستين، فوصف الحالة التى كانت عليها تطوان خـلال الاحتـلال وصفا دقيقا ومزج ذلك ببعض التعليقات عليها مما سيجده القارىء في النص وما سنلخصه بعـد .

وقبل ان نتناول الوثيقة بالنشر لابد ان نشير الى تلك الحرب واسبابها وموقف بعض الدول منها، ولا نريد ان نرجع الـى تلك الاسباب البعيـدة ـ الحقيقية ـ وانما نأتى بتلك الاسباب القريبة مسترسلين مع التاريخ فيها.

فى العقد السادس من القرن التاسع عشر كانت تحصل بعض المناوشات والمعارك الحربية بين قبيلة انجرة والاسبان اصحاب سبتة علـى الحدود، ويبدو ان مفاوضـات شفوية كانت تجرى فى هذا الشان بين قنصل اسبانيا بطنجة والنائب السلطانى بها، ثم تلت تلك المحادثات مذكرة قدمها القنصل الاسبانى الى النائب السلطاني يقول فيها : الظاهر مما يفعله اهل انجرة وما قام به اهل الريـف من الهجوم المتكرر على مليلية والحسيمة وبادس، ان السلطان لا يتمتع بسلطة يهابها القوم، مع ان السلطان ـ مولاى عبد الرحمن ـ قد التزم احترام هذه البلاد المجاورة، ولهذا فان حكومة الملكة ايزابيل الثانية ترى ان هذا الامر مخل بشـرف الدولة، فهي لاجل ذلك تطالب بغسل العار الذى حل بها كما تطالب بعقاب المجرمين، فاذا تعذر ذلك فلتطلق يد الجيوش الاسبانية المتوغلة في الحـدود المغربية حتى تفهم هؤلاء الثوار جيدا جريرة اعمالهم، واذا كانت ما زالـت عند الملـك المغربى نية للضرب على ايديهم فعليه ان يسـرع بذلـك وليعمل على ترضية المطالب التى قدمتها مدريد بواسطة قنصلهـا بطنجة «خـوان بلانكو ديل بال» الى النائـب بطنجـة محمد الخطيب وهى كما يأتى :

أ) اعادة رفـع العلم الاسبانـى بمكانه الذى كان به وقيام الجيش المغربـى بتحيته .

ب) ان يساق المجرمون الى سبتة لينزل بهم العقاب الصارم هناك على مشهد من الملأ.

ج) ان يصدر تصريح رسمي يخول الملكة تحصين المواقع الاسبانية على الحدود .

د) ان تسمح الحكومة المغربية بما تقدم به المرسوم الاسباني وما جرت فيه المحادثات الشفوية بين القنصل والنائب، كل ذلك يجب تنفيذه فى ظرف عشرة ايام، والا يجب عنها فان الحكومة الاسبانية ستضطر الى سحب قنصلها من طنجة وترحيل رعاياها منها. ومعنى ذلك قيام حالة الحرب بين الدولتين .

فاجاب الخطيب : بان المطالب ستنفذ ما عدا التصريح حول القيام بالتنقلات العسكرية نظرا الى ان هذا الموضوع لا بد ان ينتظر الجواب عنه من السلطان .

فلينتظر الجواب من لدنه. ثم اعلم الخطيب بان خروج القائد العسكري بجيوشه من سبتة مما يزيد فى اشعال نار الحرب فاذا لم يرتدع للحكومة الاسبانية صاحب سبتة فيجب الكتابة الى حكومة مدريد حتى ينتهى عما يقوم به الحاكم المذكور من اعمال تخل بشرف الدولة ؛ فان الحاكم العسكرى هو المسؤول وحده اولا واخيرا عن هذه الازمة. اما الامد المضروب بعشرة ايام فانه غير ممكن العمل على وفقه خصوصا وان السلطان فى حالة احتضار الخ ومعاهدة 1799 والمصادق عليها سنة 1845 تتنافى مع هذه الاعمال.

فى هذه الاثناء توفى السلطان فكتب الخطيب الى القائم باعمال القنصلية الاسبانية بتاريخ ٩ شتمبر مخبرا بوفاة السلطان وطالبا ان يزاد فى المدة المذكورة حتى يتأتى الحصول على امر السلطان الجديد ــ مولاى محمد ــ فاجابه القنصل بتاريخ ١٢ منه بمد الاجل ٢٠ يوما اخرى فعاود الخطيب الكتابة بان ٢٠ يوما غير كافية وانه سيتجه مسافرا من تطوان الى طنجة حيث يتصل بالقائم المذكور ويباحثه شفويا فى الموضوع . فكان الرد على هذا رسالة من وزير خارجية اسبانيا الى معتمدى الدول بها شارحا اسباب الخلاف بين الدولتين ومعلما بانه اذا انتهى الاجل المضروب بدون ان يأتى جواب عنه فان اسبانيا ستلجأ الى استعمال السلاح (24 شتمبر) دفاعا عن الشرف وتأمينا للشواطىء لا رغبة فى التوسع منها.

ولكن وردت رسالة اخرى من القائم باعمال القنصلية الاسبانية الى النائب الخطيب معلمة بان الاجل قد مد الى 15 يوما اخرى فاذا لم يات الجواب فالعلاقة بين الدولتين ستنقطع . وفى هذه الرسالة يطالب القنصل الاسبانى

بتوسيع حدود سبتة لغاية المرتفعات التى تتأتى بها المحافظة على سلامة سبتة فرد الخطيب بتاريخ 5 اكتوبر معلما بوصول جواب السلطان وتلبية المطالب الاربعة وبان القوات المخزنية على اهبة تاديب اهل انجرة. ولكن القنصل رد عليه بان الرسالة غامضة فيجب تحديد تاريخ الشروع فى التنفيذ ويذكر بان الاجل لم يبق على نفاده الا عشرة ايام فرد الخطيب بالموافقة التامة على المطالب بتاريخ 11 اكتوبر وطلب تعيين اليوم لتنفيذ هذه المهمة ثم ارسل رسالة اخرى اليه بتاريخ 13 منه جوابا عن رسالته بالموافقة على الحدود وتوسيعها حتى المرتفعات المذكورة وادخال تلك المرتفعات فى حدود سبتة ، ثم وردت رسالة اخرى من القائم بالقنصلية بتاريخ 16 اكتوبر يخير النائب بين تعجيل الترضية المذكورة أو الحرب ويلح فى ذلك بشدة. وبعد مداولات بين القنصل والنائب الخطيب كان يحاول هـذا فى جميعها تنكب وقوع الحرب بين المغرب واسبانيا عزل النائب الخطيب بعد ما شغل هذه النيابة بضع عشرة سنة واقيم مكانه الحاج محمد الزبدى الرباطى لمباشرة نفس الموضوع الذى انتهى بقيام حالة حرب بين الدولتين على اثر انتهاء اسبانيا من مفاوضاتها مع انجلترا فى هذا الصدد وذلك يوم 22 اكتوبر سنة 1859 (موافق 23 ربيع الاول عام 1276).

ومن مجريات الحوادث يتجلى ان الانجليز كانوا مهتمين بالمسالة المغربية الاسبانية خصوصا وانها تتصل بسلامة جبل طارق ، لهذا عرضوا وساطتهم بادئ ذى بدء بين اسبانيا والمغرب .

اما اسبانيا فانها كانت تبرر ما تعتزم عليه بان القراصنة الافارقة كانوا قد اغاروا على بعض المراكب الاسبانية وان الاتفاق الذى كانوا قد عقدوه مع المغرب فى تطوان بشان عدم الاعتداء لم يلبث ان خرق بالهجوم المتكرر على حدود مليلية وسبتة الخ.

ومن المذكرات التى راجت فى هذه القضية مذكرة وزير الخارجية الاسبانية التى بعثت الى وزير اسبانيا المفوض بلندن حول محاولة الانجليز حماية المغرب بمناسبة القبض على مركب شراعى مغربى وان انجلترا التزمت بحماية الشواطئ المغربية . وكانت هذه المخابرة تجرى بين ممثلى بريطانيا المستر «بوشنام» ووزير خارجية اسبانيا، وكانت انجلترا تبدى رغبتها فى المحافظة على استقلال المغرب نظرا الى علاقاتها التجارية معه ـ كما تقول ـ ومن هذه المخابرات يظهر ان الإحتلال الاسبانى كان موجها نحو طنجة التى كانت تهم الانجليز بوجه خاص من ناحية سلامة جبل طارق، لهذا اجابت الحكومة الاسبانية بان العمليات الحربية لن تتعرض باية حال الى

سلامة المضيق . ومهما يكن فان الحكومة المغربية بعثت بنائبها الزبدى الى طنجة وفوضت اليه ان يحل المشكلة القائمة مع اسبانيا كما عهدت اليه بان يقوم باستشارة النائب الانجليزى بها فى تلك القضية واستنابة من يرى استنابته فى ذلك من نواب الدول. ولما افضى الامر الى الحرب كتب السلطان مولاى محمد بن عبد الرحمن الى الثغور يستنفرها ويامرها بالاهبة والحذر وقدم اولا القائد المأمون الزرارى الى تطوان فى نحو مائة فارس وخمس مائة من الرماة فرابطوا خارج تطوان الى جهة سبتة، فقصد الاسبان تطوان مقدمين فى ذلك رجلا ومؤخرين اخرى وظلوا على هذه الحال اربعة اشهر وهم مشتبكون مع قبيلة انجرة فى المناوشات وكان عدد قوات الاسبان آنذاك 20000 مقاتل ثم جهز السلطان 5000 من المتطوعة و 5000 من الودايا والعبيد بقيادة صنوه المولى العباس الذى نزل بضواحى تطوان ثم تكاثرت جيوش الاسبان حتى وصلت الى 50000 مقاتل ثم بعث السلطان صنوه الآخر المولى احمد فى جيش من مكناس وتواردت المتطوعة من سائر انحاء المغرب ثم زحف الاسبان على تطوان من ناحية السواحل بنحو 60.000 الف مقاتل يعضدهم الاسطول فوصلوا وادى مرتيل فهلك من اجل ذلك خلق كثير وحصل هرج ومرج فى صفوف المغاربة ادى الى النهب والسلب مما حمل اهل تطوان على التفاهم مع الاسبان وتسليم المدينة اليهم، فدخل الاسبان تطوان يوم 6 فبراير 1860 م فوجدوا بالمدينة ذخائر حربية من بينها 36 مدفعا وعدد عظيم من القنابل، فهاجر معظم سكانها وبقى منهم بالمدينة بعض المستضعفين كما رجع اليها بعض من كان قد هاجر منها. ومن هؤلاء صاحب المذكرات التى ننشر ما عثرنا عليه من نصها فى الصفحات الآتية . وقبل ان ننشر هذه المذكرات نقدم بين يدى القارئ نظرة عنها وعن صاحبها :

1) المذكرة المتعلقة بتطوان قد ترجمت الى الاسبانية ما عدا النصوص الشعرية منها. وعن الترجمة الاسبانية نقلها الى العربية الشريف سيدى التهامي الوزاني. وهذه الترجمة مثبتة في تاريخ تطوان للاستاذ السيد محمد داود .

2) لغة النص العربى سقيمة وتحتاج الى سبك فى اسلوبها واصلاح فى مفرداتها وفيها كثير من العامية .

3) للمذكرة قيمة تاريخية وصاحبها معتدل بعض الشيء فى انتقاده ثم هو الى جانب ذلك صريح فى تسجيل حوادثه الخاصة ولو كان ذلك التسجيل مما يخل بمروءته شان المذكرات التى تحرص على تسجيل كل

شيء . ونقده للاسبان نقد بصير قوى الملاحظة ومقارناته التاريخية وغيرها تشهد على اطلاعه الجيد.

4) لعل صاحب المذكرات كان له ميل ما نحو الفرنسيين يبدو ذلك من مقارنته فى كثير من الاحيان بين الاسبانيين والفرنسيين وجعل الفضيلة غالبا فى جانب الاخيرين. على ان هذا يلتمس له علة وهو اغاظة الاسبان بذلك كما قد اوما هو نفسه الى هذه الاغاظة بهذه الوسيلة التى كان يستعملها مع الاسبان حتى اليهود حينما ادركوا ان البلاد ستعود الى اصحابها وان الاسبان سينزحون عنها . وفى القصيدة التى ذكر ان «الباشدور» المغربى مدح بها زوج نابليون «اوجين» يحلى نابليون بقوله «سلطان الصبنيول» على انه لم يقف عند قصيدة المدح بل اتى باخرى تعارضها. ثم هو لم يقف كذلك عند المقارنة بين الاسبان من جهة والفرنسيين وحدهم من جهة اخرى وانما يضيف الى هؤلاء الانجليز ويشيد بما فعلوه فى الهند ويجعلهم سادة النصارى

5) يظهر ان صاحب المذكرة كان جزائريا فهو يعرض لمسائل جزائرية أولها اتصال بالجزائر ولربما اتى فى صلب كلامه ببعض الكلمات التى كانت معروفة فى الجزائر ولم تكن معروفة فى المغرب وهو بالرغم من قصوره فى الثقافة مطلع على شؤون الاتراك ملم بمواقف رجالهم فالظاهر ان تلك المعلومات اتته من الثقافة الشعبية التى كانت منتشرة وسط الجزائريين فى تلك الاوقات بحكم السلطة التركية التى كانت تشملهم. زيادة على ذلك فهو يذكر بعض الابيات منسوبة الى جزائرى كان مستوطنا بتطوان وربما كان هذا الجزائرى هو نفسه. وتكاد هذه الابيات ان تكون وحدها منسوبة الى صاحبها اما باقى الابيات والقصائد فانه لم ينسبها الى اصحابها مع انهم كانوا يعاصرونه وبلغت شهرتهم ذلك الوقت الى حد مستفيض مثل مفضل افيلال واحمد الجندى ومحمد السلاسى ومحمد القيسى الذى لم يزد عند ذكره قصيدته الطويلة غير ان قال : « تمت القصيدة القيسية» ولعله انما ذكرها بهذه النسبة لشهرتها بطولها حيث كانت تحتوى على 108 بيت. نعم : انه لم يذكر اصحاب القصائد المعاصرة مع انه حينما تعرض الى مرثية الشريف الرندى نص على اسمه وكنيته ونسبه وكذلك نسب ابياتا أخرى لصفوان ابن ادريس . ومما يزيد استنتاجنا قوة هو انه لم يذكر شخصيات تطوانية كان لها بعض الذكر الحسن وهذا ما يخالف طبيعة التطوانيين الذين يحرصون دائما على تخليد اسماء رجالهم. على انه يتحسر لتطوان ويدافع عنها بعض الشيء ولكن كل ذلك فى فتور لم يعهد من تطوانى على الاقل.

6) ثم اننا لا يفوتنا ان نلاحظ ان صاحب المذكرات كان حريصا على بعض الاشعار التى كانت فى حوزته شأن الفقراء من المثقفين الذين يزجون بما علق به علمهم فى مناسبة وغير مناسبة.

7) أغلب النصوص الشعرية موجودة فى وثيقة اخرى ذكر صاحبها انه جمع فيها بعض الاخبار عن هذه الحرب بطلب من «الوردصلير الصبنيولى القطلانى» الذى كان آنذاك قاطنا بتطوان. وقد كتبها صاحبها اثناء الاحتلال بدليل الدعاء لها بقوله «أعادها الله دار اسلام»، وهذه الوثيقة محفوظة عند الاستاذ داود وهى غير هذه الا ان احد صاحبى الوثيقة كان على علم بالاخرى فاستعان بها واتحدت القصائد الموجودة بهما فى عدد ابياتها وما فيها من نقصان. وحتى قصيدة السفير المغربى الذى مدح زوج نابليون «اوجين» والقصيدة التى توقفت بها كلتاهما موجودة فى الوثيقتين . الا ان صاحب وثيقة داود يذكر اسماء اصحابها على حين ان هذا يهمل ذكرها ... اما اسلوب الوثيقتين فهو سقيم فى كلتيهما ولكنه مختلف مما يدل على ان صاحبه ليس واحدا فيهما ثم ان هذه تختلف كذلك عن الاخرى بانها تغلب عليها مسحة المذكرات بخلاف الاخرى فقد كانت تويلفا قصد به من اول الامر ان يؤلف فى اخبار هذه الحرب ويعلن للغير . وثيقتنا هذه محفوظة فى متحف بلنسية فى تسع وثلاثين صفحة بمجموع فيه بعض الوثائق الشخصية تتعلق ببعض العائلات التى ما زالت معروفة بتطوان .

والى القارىء هذه الوثيقة :

فاهل تطوان هاجروا لبارئهم ... والعز فى الهجرة والقرب والنظر(1)
نالوا بهجرتهم ما ناله الأول ... اعلا العلا وكذاك القرب والجور
لم يلتفت احد منهم لزينته ... والنفس منهم غلت وعزها القدر

---

(1) القصيدة للفقيه السيد احمد الجندى من عدول تطوان وكان آنذاك فى التسعين من عمره كما فى تاريخ داود. وفى وثيقة اخرى عند الاستاذ يقول صاحبها بعد ما وصف الحالة المؤلمة : وقد اشار سيدى احمد الجندى بقصيدة وهى من بحر البسيط وهى والله اعلم آخر شعر قاله لانه انشأها بعد اخذ البلاد بشهور. وبعدها بايام يسيرها [ة] انتقل الى رحمة الله : فاهل تطوان الخ وبعد القصيدة يقول : ... والجندى... ممن هاجر الى شفشان (شفشاون).

بقوة حاربوا الكفار وامتثلوا　　　امر الالاه وما اتاهم الكدر
حموا حريمهم باهل دينهم　　　فليس للكفر فى حريمهم وطر
بعزة الله عززن ونصرته　　　على الكفار وكل من له ضرر
فلو نظرت الى المحاسن وقرا　　　لجاءك النور بل والشمس والقمر
واما اهل البواد والعمود معا　　　فاخوة للنصرى ويلهم كفروا
تحزبوا للديار قصد نهبهم　　　ولم يكن لهم عقل ولا وقر
سحقا لهم غدروا الاسلام واقتطعوا　　　حبل الالاه وما صح لهم نظر
يجزيهم ربهم فقرا ومسغبة　　　جوعا يموت غنيهم ولا وزر
واهل انجرة عورية تبحوا　　　ما صح منهم قتال بل ولا قرر
لا صبر فيهم على القتال تعسا لهم　　　اعجاز نخل وحل فيهم الخور
فاقوياء على اكل الرواتب هم　　　والخوف فيهم سجية وما قدروا
تطوان صبرا على امر كلفت به　　　يعيدك الله روضة فتفتخر

تمت القصيدة وانشاها صاحبها فى متم ربيع الاول سنة الف ومائتين بعد سبعة وسبعين رحمه الله وهى من بحر البسيط .

قصيدة اخرى تسلية لاهل تطوان من بحر الباسط [البسيط] ايضا تسلية لاهل تطوان عند ما سمعوا من الاوباش وممن لا عقل له الكلام الفاحش الردى وانهم باعوا تطوان الى غير ذلك (1).

ياءال تطوان لا زالت محاسنكم　　　يسموابها الدهل(2)والعليا تساعدكم
يكفيكم شرفا ان حلتم بتقا　　　عن دار كفر ورب العرش يحفظكم
تركتم المال ميلا عن محبته　　　فالدين مطمحكم دامت مكارمكم
تبا لجاهل غمر لا خلاق له　　　ممن غدا بقبيح القول ينعتكم
وكيف يلحقكم عار وجندكم　　　هو العدو تصدى للقتال لكم

تمت القصيدة ايضا وفيها اشارة لاهل تطوان كان يقاتلهم العدو وعسكرهم خائن. يعنى عسكر السلطوان لم ينصح.

---

(1) يقول داود انه لم يعرف قائلها وقد ذكرها صاحب المخطوط ومهد لها بقوله : قصيدة اخرى تبىء (تنبىء) عن فضل اهل تطوان ولا ملامه عليهم من بحر البسيط .

(2) لعلها الدهر وهناك اغلاط فى هذه الابيات وفى غيرها لغوية وعروضية واملائية يطول التعليق عليها.

قصيدة اخرى بعد ما جاز العام من اخذ البلاد ونحن ففي المماطلة ومنتظرين خروج النصارى منها وهي بحر المجتث فاولها(1)

يا دهر قل لي على مه ... كسرت جمع السلامه
نصبته للدواهي ... ولم تخف من ملامه
خفضت قدر مقام ... للرفع كان علامه
ملكته لاعاد ... ليست تساوي قلامه
فالدين يبكي بدمع ... يحكيه صوب الغمامه
على مساجد اضحت ... تباع فيها المدامه
كم من ضريح ولي ... تلوح منه الكرامه
علق فيه رهيب ... صليبه ولجامه
ومنزل لشريف ... وعالم ذي استقامه
صار كنيفا لعلج ... ولم يراع احترامه
وكم وكم من امور ... للدين فيها انهزامه
تبكي عليها عيون ... كآبة وندامه
تطوان ما كنت الا ... بين المدون حمامه
او كخطيب تردى ... من بعد لبس العمامه
بل كنت روضا بهيجا ... زهره ابدى ابتسامه
او كمحيا عروس ... علاه في الخد شامه
فقت جمالا وحسنا ... فاسا ومصر وشامه
رماك بالعين دهر ... ولا كزرقا اليمامه
ففرق الاهل حتى ... لم يبق الا ارتسامه
ما كان احلى زمانا ... وما الذ غرامه
مضى لنا مع بدور ... ذوي النهى والفخامه
ما بين انشاد غزل ... وبين انشا مقامه
وشملنا في التئام ... والبسط يهوى التئامه
حن السرور عليه ... شوقا ورام التثامه
ساعده السعد حتى ... نال المنى ومرامه
يا حسنها من ليال ... لو لم تصر كالمنامه
تطوان يا دار انس ... ومأوى اهل الزعامه

---

(1) القصيدة لسيدي مفضل افيلال.

هل للوصال سبيل فالهجر اكمل عامه
والقلب ذاب اشتياقا وحسرة وهيامه
والوجد اضعف جسمي وكاد يبرى عظامه
يا اهل تطوان صبرا فما لخطب ادامه
دوام حال محال وهل لظل اقامه ؟
ان غاب نجم سعود ولاح نجم شآمه
فسوف يطلع بدرا يمحوا سناه ظلامه
فاعتصموا برجاه وارعوا بصدق ذمامه
وحسنوا الظن تنجوا من هول يوم القيامه
وفوضوا الامر لله يكف عنا انتقامه
ما فاز الا ذكي قدم خيرا امامه
حيث اقامه برضى ولو بقصر كتامه
ولم يزل ذا انتظار في كل وقت حمامه
يراقب الله سرا وجهرة باستدامه
يطلب حسن ختام وسكنى دار السلامه

تمت القصيدة وجاز بعد انشادها ثمانية اشهر وبهذا التاريخ توجه خليفة السلطان مولاى العباس لصبانية يتكلم فى رجوعها وفرحوا بتوجهه لعندهم غاية .

قصيدة من بحر المجتث ايضا يتأسف فيها على تطوان ويذكر بعض ما اصابها فاولها :

حلت بقلبي كآبة اعظم بها من كآبه
غطت شموس انبساط ولا كمثل سحابه
ودمع عين كعين ترى بخدى انكسابه
على صنيع لدهر ابان فيه انقلابه
ملك تطوان عصبه ليست تساوى ذبابه
جميعهم كقمامه او كنفيحة طابه
فهدوا منها مشيدا ابدوا لديه خرابه
وصرحوا بفساد للكفر فيه استطافه
واعلنوا بسلاف سفاهة ودعابه
وصيروا الرفع خفضا والراس صار ذنابه
فكم امام جليل يبغى اللبيب جوابه

وكم اذيب ذكي   تهوى النفوس خطابه
وكم محل شريف   وسيد ذي مهابه
ومسجد ومصلى   اصابه ما اصابه
فالدين يبكي بكاء   اعلن فيه انتحابه
على دواء كليل   للدين فيها اغترابه
تطوان يا دار حسن   ومأوى اهل النجابه
ما انت الا رياض   سقتك كل ربابه
او مثل مرء لطيف   في البسط افنى شبابه
او كمحيا مليح   ازال عنه نقابه
او كهلال لعيد   تبغي العيون ارتقابه
اصبت بالعين جهرا   وقيت شر اصابه
فاصبح الخصب محلا   والقلب يبدي التهابه
آه على شمل قوم   كانوا طراز العصابه
حديثهم كلآل   تهواه عين الصبابه
ووقتهم كمليح   ثنا اليك انصبابه
احسن به من زمان   رأيت فيه انتحابه
مر ولم يبق منه   ولو كقدر صبابه
يا آل تطوان اني   اصيكم بانابه
مع اصطبار جميل   فالصبر خاب من خابه
والتجئوا لاله   يعطي الجزيل اثابه
والتزموا عن خضوع   ابوابه وعتابه
فسوف يرفع عنكم   ملامه وعتابه
وليرض كل لبيب   بمادهاه ونابه
هذا وخير صنيع   حب النبي والصحابه
فاطلب بدار سلام   دنوه واقترابه
هو الخلاص ليوم   تعظم فيه الكآبه. هـ

تمت القصيدة ومعناها يقرب من القصيدة التي قبلها وليس قائلهما واحد بل واحدة لصاحبها والاخرى لصاحبها وقد أنشأ آخر اخرى على هذا المنوال ومطلعها :

يا عيني جودي بدمع   على تفرق جمع

لاكن ليس عندي منها سوى هذا البيت.

قصيدة اخرى صاحبها من اهل الجزائر واستوطن تطوان وعند انشائها كان بتطوان وانشأ على ما رأى ووقع وهى من بحر (بياض) (I)

اروم سلوا والزمان يعوقني ... واطلب قربا والمصائب تقصيني
واسكب دمعي فوق خدي تأسفا ... على ما قضى القهار من قبل تكويني
مصيبتنا هالت فيا عظم رزءنا ... امن بعد رفع الدين عاد لتوهيني
فجائع فى الاسلام قل نظيرها ... وكيف وقد غارت شموس المحاسيني
امن بعد عمران المساجد بالتقى ... واهل النهى قد صففت بالبراذيني
فلبيك على تطوان حى وميت ... ولا غرو ان كان الجماد يعزيني
شعائر الاسلام اضمحلت وكيف لا ... ومكتب صبيان ببنت الدنانيني
فيا حزن تطوان وواحزن اهلها ... فيا ليتني اقبرت تحت الرياحيني
محا الكفر منها رونق الدين والدنا ... وحل بها قوم كمثل الثعابيني
وقد هدمت اسواقها ورباعها ... وناحت غرابيب لقطع بساتيني
تفطرت الاكباد وانقد نجمها ... على مثلنا حق البكاء بتحنيني
ولاكن لرب العرش نفحة رحمة ... تهب لنصر الدين فى الوقت والحيني
ويعلوا بها نور الرسول محمد ... ويخمد سيف الكفر والله يشفيني

تمت القصيدة

قصيدة اخرى تتضمن التأسف على تطوان وهى من بحر (بياض)

فان خيم الهجران منك وعسعسا ... واصبح فى الاعراض من وجهك البدر
وذاب فؤادى من حميم اشتياقه ... ونادى بياسى من وصالى بك العمر
فلى دموع من بحار فراقكم ... تلين اشواقى اذا خانني الصبر
شربنا كؤوسا من فتون تنوعت ... فعدنا سكرى والهموم لنا خمر
صدود اناسى والفواد اسيرهم ... وجور رقيب لا تاتى له اليسر
وطى دروس والعلوم تباعدت ... وميل لاديان يحيق بها المكر
وهدم باسواق ودور تزايدا ... وغلو باسعار تمادى بنا الضر
وسقم واشجان تموج بمهجتى ... ومكث بدار قد احاط بها الجور
فتارى باحشائى ومائى بمقلتى ... فلا حرقتى تطفا ولا جف لى شفر
طوينا بساط الانس بعد حصولها ... ومالت على الاعضاء من شربها الجمر
فمنوا بعذر للعيى سماحة ... ورقوا لتطوان توالى بها الكفر
ودوموا بدار خلف امن وراحة ... وقدر رفيع يستدام به الفخر
عليكم سلام ما تنغص مومن ... لما حل بالاسلام لاكن له الامر

تمت القصيدة.

(I) يقول داود انه لم يعرف ناظمها.

قصيدة من بحر الطويل (1)

ايا درة البلدان حل بك البلا — فصرت لاهل الكفر مأوى ومنهلا
وقد كنت من نور الهدى بمكانة — تفوق الثريا رفعة وتجملا
تراكم بلواها فباد بهاؤها — وقد عفت الآثار واعتراها البلا
وقفت بها ابكى لعلى اشتفى — فاضرم من شوق فوادى وامتلا
فقلت لصبرى والاشواق توقدت — ايا جلدى بينى فلست ممن سلا
تمزقت الاحشاء من كمد بها — فواكبد ذابت اسا وتحملا
اتطوان يا دار المعالى حقيقة — دوى ناعم الاغصان منك وامحلا
فكم بهجة بها وكم من محاسن — وكم من بناء للخراب تحولا
وكم من رفيع حط وارتقى ضده — وللدهر آفات تيقظن واعقلا
وكم من مجالس بها وكم من محافل — يبين لها نور العلوم ويجتلا
وكم من محقق بها ومدرس — ردا العلم والاداب حقا تسربلا
وكم من امام عارف متواضع — محياه من نور الامان تهللا
وكم من حليم ذى عفاف وذى نهى — يسليك فى مرط الوقار ترفلا
وكم من مغن مطرب ساحر النهى — وكم من اديب بالاداب تجملا
وكم من ديانة وكم من صيانة — وكم من هداية لمن يبتغى العلا
تلاشى جميع ذا وزعزع ركنه — وصار بها الدين القويم معطلا
فيا اسفى ذاك الجمال وحسنه — تعطل وانقضى سريعا واهملا
وصارت محل الكفرين ودارهم — وموطن من فى الكفر حقا تغلغلا
فكم من خنازير وكم من نواقص — وكم من خمور يا اخى وكم طلا
وكم من سفاهة وكم من نجاسة — وكم من خبائث ترى لهم كالحلا
على مثل ذا يبكى الكريم تحسرا — عموما(2) اذا اختفى اخى وفى الملا
فيا بهجة الاسلام لا زالت فى ارتقى — ولا زال ربع الدين بالجود مخصلا (3)
ولما وفى جيش الكفرين تجرعوا — بساحتنا سما قتيلا وحنظلا

---

(1) القصيدة للفقيه محمد السلاسى من عدول تطوان ومن المتخلفين بها .

(2) فى نص آخر : غموما بالغين.

(3) فى نص آخر : مخضلا وهو الصواب وهنا كما فى جميع هذه النصوص نحافظ على ما بها من اخطاء متعددة مختلفة ولا نريد ان نتتبع تلك الاخطاء بالتنبيه عليها لكثرتها .

وما •ال •ال الثغران قتلوا العدا ولكن قضاء الله حتما تنزلا
وقد اضمر الجيش الذى قد اتاهم لنصرتهم غشا وقيت من البلا
اتوا للقتال ظاهرا وقلوبهم ترى النهب غاية وقصدا مومـلا
احاط بهم جيشان جيش من العدا وجيش بزى الاصدقاء تمثلا
فلا تلتفت يوما لجيش بغربنا اذا القلب منهم بالنفاق تخللا
فقد شربوا جبنا وشر خيانة فما منهم شخص رمى ولن يفشلا
فلا لوم يلحق الذين توطنوا بتطوان ان فروا لدى من تنبلا
ونسبتهم والله للعدو الذى اتاهم كلا شىء وهدا قد انجلا

تمت القصيدة وتليها اخرى بها ابيات 108 ولم نلق منها الا ابيات 107 وهى هده (هذه) (1)

تصبر لحكم الله فى القوم اذ جرى عليهم بانواع الوبال المحتم
على جملة الاسلام فى ارض مغرب وقد صادفت تطوان سحرا بطلسم
تبدد فى البلدان بالقهر اهلها باسباب ظلم الظالمين المحرم
وكان فيها بعض تجبر بالغنا فاضحى على ذى فاقة يتهكم
به سلط المولى النصرى عليهم بعد وعدة وجيش مقدم
فاوقدوا نار الحرب فى ارض سبتة وزادوا بها برا وبحرا لقدم
حتى نزلوا مرتين من حول برجها باخبية مثل السماء المغيم
فصاح جميع الناس فى الغرب كله الا فاقتلوا جيش العدو المرمرم
وقابلهم بعد المقام محلة بها اجتمع الاسلام من ذل مرسم
واضرمت الهيجاء نارا لدى الوغا من الحرب فى عجمى العدا ومعجم
فكم قتلوا منهم الوفا ففى لظا وبالعكس منا فى النعيم المنعم
حتى غلب الرحمن جيشهم على محلتنا قهرا بحكم ملزم
من الله فى وفق المشيئة سابقا سبحانه فى ملك عظيم معظم
وحين دنوا قرب البلاد عشية لصدمتها غصبا بجند مقدم
ولم يبق من غير الخليفة واقف ولا قائد يحمى البلاد ويلزم
فمن ذاك خاف الناس من كيد مكرهم اذا دخلوا غصبا بقتل ومغنم
وصاح كثير بالعويل وبالبكا وصاروا على هجر لارض المراغم
بهجرتهم فروا بدين محمد به تاركين الكفر فى كفره عم
وقد تركوا الاملاك والمال والحلا وجملة دين فى الرسوم مزمم

---

(1) القصيدة للفقيه محمد القيسى من عدول تطوان.

وامتعة شتى اثاثا كثيرة	ومتروك دار من قديم مخدم
ودينهم اشتروا بصفقة رابح	وباعوا بها دنيا بفلس ودرهم
وتاهوا هياما فى المداشر والقرا	على حبهم فى الله حب المتيم
وبعد دخول الفاسدين عليهم	يدورون فى نهب على كل مأتم
ففى ليلة شاب الشباب لشينها	كانها يوم الحشر بالدمع والندم
بها افترق الاقوام من فشل بهم	عن الاهل والاولاد بالدهش النم
بقتل وضرب وانتهاب حوانت	وتكسير ابواب وفعل المحرم
وفى بعضهم بعض يموج كانهم	سكارى وضجوا بالصياحة بالنغم
حتى التبس الشيخ الفنى بنجله	واجنبى اضحى يلوذ بمحرم
نساء وابكار حسان قوامر	خرجن بكشف الوجه غير ملثم
ينحن على مر الفراق تاسفا	عن الاهل والاوطان والأخ والحم
فمنهم نجا فى سيره لامانه	ومنهم تعرا فى الطريق لم يسلم
ولما خلت تطوان من جل اهلها	تصادمها الكفار من كل مصدم
نعم زعموا بالامن راموا دخولها	بعام وع شر (I) التارخا افهم
وفى ضوحة الاثنين من يج يومها	ومن رجب الفرد الشهير المحرم
بها استوطنوا قهرا على رغم آنفنا	وحلوا بها مثل الجدام المجدم
فكم وسقوا منها اثاثا كثيرة	وما تركوا فيها غنمة (2) مغنم
كما اخذوا منها المدافع كلها	وآلة حرب من خزين متخم
واسواقها هدت ودور تهدمت	ولا اثر يبقى لكل مهدم
مساجدها اضحت كنيسة كفرهم	ومربط خيل للعدو المؤيم
فما نفدت(3) فى الكفر دعوة صالح	ولا مسهم جن بضرب مسمم
لولا مولاى العباس قام بواجب	خليفة مولانا الامام المفخم
لما احد ينجوا من القوم كلهم	وما سلكوا منها بظفر مقلم
فانه جد فى الجهاد فلم يجد	هناك شجيعا للعدا يتقدم
وما قصرت يمناه فى الدفع والعطا	وما ابصرت عيناه نجدة مقدم
ففاضت له العينان بالدمع والبكا	على ما حزنا ولم يتبسم
وعاد يرد الناس للحرب والوغا	على فرس يمشى بسرج ملجم
باصحابه يحمى العساكر بعد ما	تولوا كليث للجهاد محزم

(I) يعنى 1276 بالأبجدية

(2) فى نص آخر : غنيمة. وهو الصواب

(3) نلاحظ انه يترك تعجيم الذال

فما جاهدوا فى الله حق جهاده ولا امتثلوا امر الشريف المقدم
وفر كثير مدبرين لحالهم فاوقعهم جبرا بحكم مرغم
ليرجع فى قتل الكوافر مسرعا ويخرجهم تحت الحسام المحسم
جزاه عن الاسلام رب بخيره ويمنحه اجر الجهاد المقدم
وبعد ورود المسلمين بوفدهم لهم خرج الكفار منها بمشئم
وحين التقى الجمعان بالصبرجاهدوا حتى قتلوا منهم وقود جهنم
وفى وادراس خيب الله سعيهم بقتل وهزم وانكسار ومهزم
وفى واد اجراز تبدد رايهم وودوا فرارا من غزاة المسوم
بغير شعور المسلمين بهزمهم والا لاضحوا فى غنمة(1) مغنم
به جنحوا للسلم من فزع بهم اجيبوا وعن علم بسلم مسلم
وكروا الى تطوان عن قهر ضدهم واخمدوا نار الحرب فى كل مضرم
وقد تركوا القتلى على كل ربوة كاعجاز نخل بالحجارة ترجم
ونحن خرجنا بالعيال كفيرنا على رجلنا سرنا بقلب مولم
على محنة الاولاد بالتعب والعيا وحالى على الصبيان حال المكظم
فما الفوا ذوق العذاب وما رأوا مخافة شئ فى الحياة المدوم
ولما وصلنا للامان تحيرت عقولنا فى اى المواطن نلزم
فاصبحت فى بنى المصور ساكنا قريبا من الجر(2) الشريف المكرم
خليفة مولانا وصنو اميرنا على حال فقر مستجيرا بضيغم
بحرمته لذنا لننظر امرنا بامر جميع المسلمين المخمم
الى ان فشا فى الناس صلحوقد بدت مخائله لاكن بسر مكتم
على عودها للمسلمين برحمة من الله فى لطف بصلح متمم
فدامت لنا البشرى ودام سرورنا على فرح منا ببسط مدوم
وفى فلك الاخبار تطلع شمسها وتغرب فى بحر المراقبة الطم
مراقبة الاشياء قبل وصولها عذاب شديد بالتجرب يعلم
ونحن ارتقبنا الامر تسعة اشهر فما خرجوا منها بمال مسلم
وما انقطع الاياس من وطا ارضها بسطوة مولانا الامير المعظم
امامنا مولانا ونجل اميرنا محمد المنصور للبيت ينتمى
كفيلنا فى بر وبحر ولم يكن سواه لنا يفدى البلاد ويرحم
فاعظم به من مالك جل رتبة بعلم واكرام ومال مقسم

---

(1) فى نص آخر : غنيمة . وهو الصواب
(2) لعله : الحبر كما يبدو فى النص الآخر.

على حبه فى الله دين محمد   وحب الطريق المستقيم المسقم
حريص على التقوى بسنة احمد   امير على نهج الهدى يتحكم
اقامه رب العرش قطب رعية   يسوقها للتقوى بامر محتم
وقد ابدل المجهود فى دفع ماله   وتوجيه قوم للجهاد المصدم
على فجئة جاءت باول نصره   واول عقد بالخلافة مبرم
وليس له استعداد جيش وقوة   على يده يلقى بها كل مقدم
وما له من يكفيه كل مونة   فيفحم اجناسا بقول مترجم
ويعظم قدرا عندهم بمهابة   كانه فى حزم شبيه بضيغم
ولولا اخوه قام بالامر كله   لكانت جيوش الكفر فى كل مرسم
ولاكن قسا صبرا بحسن سياسة   حتى وضعت اوزارها الحرب تسلم
فبانت له فى الملك خير مزية   بصلح ونصح للامير المكرم
وان منح المولى المعز اميرنا   اقامة ملك بالعساكر يصدم
ببر وبحر فى مراكب عدة   وءالة حرب بالصواعق يدهم
فياخذهم بالله عند بلادهم   ويخرجهم منها باسر ومغنم
فيارب وانصره على كل كافر   وكل عدو بالكوافر يحتمى
ودارکه بالالطاف والعون والرضا   ووفقه للخيرات فى ملكه السمى
واحفظه بالمكنون من سر احرف   عليه حجاب فى طبائع تترء
واصلح به الاوطان والاهل والملا   واهزم له جيش العدو المرمرم
واخرجه من تطوان فى عز امره   كما يخرج الصفراء شرب السنحرم
فيا من رءا امر النصرى ولم يجد   على الحق تحقيقا لذلك فاعلم
فهاك على تطوان منى قصيدة   بلفظ سليس فى التفهم يفهم
على لغة تبدى الفصاحة للورى   بغير غريب او بعيد ومبهم
وابياتها حق على كل مسلم   يعين امير المومنين ويغرم
اجبت بها مولاى احمد سائلى   شريف بتيدا فى الدفاتر مرسم
ولابن مشيش ينتمى بجدوده   وقد فاز منى بالجواب المتمم
على اننى القيسى المؤخر رتبة   بتطوان من قبل الجهاد المجرجم
واسئل قطب الجيش يرحم غربتى   وينظر من حالى الكسير المؤلم
واحمد ربى بالمحامد كلها   على نعمة الاسلام حمد المنعم
واشكره شكرا على حكم عدله   بضر عدو فى الجبين مزمم
واثنى صلاة الله دائمة على   نبى كريم بالشفاعة مكرم
وءاله ما بالحسن يختم للورى   وما شرب الضمئان من ماء زمزم

تمت القصيدة القيسية نسأل الله السلامة والعافية من كل بلية.

وهذه قصيدة من بحر البسيط فاولها :

لقد اصبنا بتطوان وفرقتها ... كما اصيب فواد الام فى اليتم
عروس مملكة الدنيا وزينتها ... ما ان لها شبه فى العرب والعجم
اكرم بها بلدة بالحسن افتخرت ... على البلاد وبالصدق وبالنعم
وبجنة كتان (I) مع بهجتها ... تهدى لزائرها الازهار فى الاكم
تسبى لناظرها بحسن منظرها ... كانها خودة بثغر مبتسم
منظر فسيح ونهر ما به كدر ... وماؤه العذب قد يشفى من السقم
وبالمحناش نزهة وفاكهة ... ونهر سلسل زهو لمغتنم
وعدوة الانس فى منظرها عجب ... تسبى عقول ذوى الالباب والفهم
وبالضرضارة مع اوهار وصولته ... وورگان حسنها كالزهر مبتسم
باب مقابرها طوبى لزائرها ... منظرها عجب كثغر مبتسم
وبالطوابل منظر وفاكهة ... هواؤها طيب يبرى من الوخم
وبابى سافوا مع واده وبهجته ... وبابى جرح ذى الفضل والكرم
وواد شجرتها مع سوانيها ... ريحانة حسنها كالدر منتظم
فم جزيرتها فى ثغره عجب ... طوبى لمرتشف منه وملتثم
اذا تتبعت اوصاف محاسنها ... غرقت فى بحر من حسن ومن كرم
لها محاسن مثلها رمل فى كثرة ... أو كمداد البحار ليست تنفصم
اصابتها العين فى الاسلام فامتحنت ... واهلها ساروا بعدها الى النقم
جشت فيها من جيوش الكفر ما درست ... محاسن وجهها وصارت كالحمم
من بعد عزتها وصولة اهلها ... وحسن بنيانها قد صار منهدم
وحل باهلها من بعد غربتهم ... فوق الذى ذكر وصاروا كالخدم
ولم تجد ناصرا بالله معتصما ... مجردا سيفه للكفر مصطدم
قد باع نفسه للالاه مجتهدا ... مجاهدا فى الكفار غير منهزم
حكم من الله حتم لا مراد له ... وهل من راد لحكم منها منحتم
والدهر بحر فلا تحصى عجائبه ... فلا تكن غافلا واحذر من النقم
واصبر لحكم الالاه ظاهرا باطنا ... واشكر ولا تحزن واعذر ولا تلم
فى ليلة الاحد كان فرارهم ... بالمال والاهل والصبيان والخدم

(I) كيتان والمحنش والعدوة والضرضارة واوهار وورگان والطوابل وابو سافو وابو جراح وواد الشجرة منتزهات بضواحى تطوان.

يمشون ليلتهم من خوفهم جرعا ويبكون بكاء حزن دمعه بدم
فبعضهم حل فى الجبال فى مضه وبعضهم حل فى البلدان والنقم
وجلهم حل فى شفشون فى نكد وضيق عيش مع المكنى بمزدحم
فى الثالث عشرة رجب دخلت يوم الاثنين ضحى وصارت كالعدم
فى عام شروع فقط لتاريخها والحمد لله ذى العز وذى النقم
ثم الصلاة مع السلام للابد على النبى وآله ذوى الكرم
وعلى اصحابه واهل ملته ما غربت شمس بعد النور فى الظلم
وجاهد مومن بالله محتسبا ففاز فى جنة ذى الحور والنعم
فهذه قصة تطوان فاصغ لها وابك عليها بدمع ممزوج بدم

تمت القصيدة

وهذه قصيدة مدح بها زجه النبليون سلطان الصبنيول الباشدور (I) حين توجه لباريز فاولها ـ

بباريز شمس الحسن تطلع دائما وتشرق لاكن من اسارير اوجان
وتخجل منها الشمس في الافق ان بدت فتخفى محياها المجرب بالدان
عقيلة املاك اذا ما رأيتها رأيت علامة لعقل واحسان
تحلت باوصاف الكمال فاوضحت طريقة للمبتغين على الشان
فان نطقت ابدت جواهر حكمة نفيسة معنى لا تصاغ لانسان
وان سكتت خاضت بحور سياسة ترد قصى الامر ادنى من الدان
وفى يدها بحر من الجود زاخر سوى انه عذب الورود للهفان
ففي سبل الخيرات تبدل مالها بعزم قوى وبصحة ايقان
تنافس فى ذكر الجميل لدى الورا فشادت بناء لا يشيده بان
فلم ترعينى مثلها فى كمالها ولا سمعت اذنى بشخص لها ثان
ولو وزن العقل الذى فضلت به بعقل جميع الناس زاد برجحان
تجليتها فى الدست بدرا وحولها مليك عزيز لا يسام بختلان
وفى جنبها شبل يريك جبينه سجاعة معروف ونجده خاقان
هلال تبد ثم بعد هيئة سيرجع بدرا كاملا دون نقصان
ومن كان نابليون غارس نبعه واوجان اما قد غدته بالبان
فلابد ان يسموا ويعظم شانه ويدرك فى التبريز غاية امكان

(I) فى وثيقة اخرى عند الاستاذ داود ينص صاحبها على ان اسم هذا السفير كان كما ياتى : «الحاج ادريس بن الوزير ادريس» .

تمت القصيدة وقد عارضه من عارضه (1) فقال :

بباريز ظلمة من الكفر قد علت ... ومطلع اوجهها اللعينة اوجان
وقد عمت الارجا فاعمت نواظرا ... فما هى فى التمثيل غير دخان
وقد برزت اوجان فى قومها تسموا ... بباريز عن ظلم وشر طغيان
تدين بدين لا اساس له اخى ... وحاصله عندى اكاذيب رهبان
وتضحى على لهو مكين مكبة ... تصير به فى الغى فى هيمان
فقد احرزت كل القبيح فما لها ... مثيل فلا تعبا بقول لانسان
اليس اخى اصل القبائح كلها ... هو الكفر نائطا بخبث جنان
فمن خبثها اخى وخبث فعالها ... توجهها لحرب آل ايمان
وقد احرزوا العليا على رغم انفها ... فما الدر كالحصبا يرى للعيان
ومنها سجودها لجرم تصوغه ... كانه خالق لها ببرهان
فيا عجبا للكفرين ترفعوا ... ودينهم ضرب من الهذيان
ومنها نجاسة تلازمها كما ... يلازمها حتى صنوف هوان
فما ابصرت عينى حيا يضاهها ... وما هى عندنا رفيعة شان
فان نطقت كان اللعين لسانها ... وان صمتت خاضت بحور عدوان
وان جالست قوما تحدثهم ... ترى الحمق بينا اشد بيان
فما لرذائل لها من نهاية ... وما احرزت مدحا يبديه لسان
ولكنها حازت من المال ثروة ... تبدده جهرا بكلتا اليدان
ففى سبل الشيطان تبذل مالها ... وما لها فى خبث الطبيعة من ثان
فلو انها بيعت مزايدة لما ... رايت لها قدرا بكل مكان
ولا تلتفت يوما لزينة جسمها ... تكن من علو اخذا بمكان
ولما رآها ناظرى وامامها ... غلام وبعل فى الهوان سيان
تخيلتهم مثل الخنازير ليتنى ... طعنتهم يوما بحد سنان
فخذ سيدى نظما على الجد محتو ... كعقد جمان فى نحور الغوان
يعارض هزل من غدا متغزلا ... فابدالنا قولا خسيس المعان
بباريز شمس الحسن تطلع دائما ... وتشرق لكن من اسارير اوجان

تمت القصيدة المعارضة

---

(1) المعارض والمناقض كما فى وثقية اخرى عند الاستاذ داود هو السيد محمد (فتحا) السنوسى .

ومما قيل فى مليح من اهل اصبانية على دين النصرانية اسمه اخلف

امير ملاح العصر سمته خلف ... لطيف سجية شيمته القطف
قضيت نضار فتنة لذوى النهى ... محاسنه الف يسفها (1) الف
غرانا بهنده برمح به فتك ... وما الفتك الا ما يحاوله الطرف
يخيل لى ان اللباس دنه ... ووجهة بدر قد ازيل عنه السجف

تم المدح .

وهذه قصيدة ابى البقاء صالح بن شريف الرندى رحمه الله تعالى تتضمن فعل الصبنيول بالمسلمين الردى وهى :

لكل شىء اذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش انسان
هى الامور كما شاهتها دول ... من سره زمان ساءته ازمان
وهذه الدار لا تبقى على احد ... ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة ... اذا نبت مشرفيات وخرصان
وينضى كل سيف للبقا ولو ... كان ابن ذى يزن والعمر غمدان
اين الملوك ذوو التجان من يمن ... واين منهم اكاليل وتيجان
واين ما شاده شداده فى ارم ... واين ما ساسه فى الفرس ساسان
واين ما حاز قارون من ذهب ... واين عاد وشداد وقحطان
اتى على الكل امر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على قيصر (2) فاهلكه ... واما كسر فما آواه ايوان
كانما الصعب لم يسهل له سبب ... يوما ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر انواع متنوعة ... وللزمان مسرات واحزان
وللحواديث سلوان يسهلها ... ولا لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة امر لا عزاء له ... هوى له احد وانهد تهلان
اصابها العين فى الاسلام فامتحنت ... حتى خلا منها اقطار وبلدان
فسل بلنسية ما شان مرسية ... واين شاطبة واين جيان
واين قرطبة ذات علوم فكم ... من عالم قد سما له بها شان
فاين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فائض ملآن
قواعد كن اركان البلاد فما ... عسا البقاء اذا لم تبق اركان

---

(1) لعل الاصل : يشفعها

(2) يرى القارىء فى هذه القصيدة كثيرا من التشويه يطول التنبيه عليه مثل «دارا» الذى وضع مكانه «قيصر» والعمر مكان الغمد.

تبكي الحنيفية البيضاء من اسف ... كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية ... قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن الا نواقص وصلبان
حتى المحارب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلا وله في الدهر موعظة ... ابعد حمص تغر المرء اوطان
تلك المصيبة انست ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كانها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كانها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة ... لهم باوطانهم عز وسلطان
هل نبأ عندكم من اهل اندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيثكم المستضعفون وهم ... قتلى واسرى فما يهتز انسان
الا نفس اميات لها همم ... اما على الخير انصار واعوان
يامن لذلة بعد عزتهم ... احال حالهم كفر وطغيان
بالامس كانوا ملوكا في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل الوان
ولو رايت بكاء عند بيعهم ... لهالك الامر واستهوتك احزان
يا رب ام طفيل حيل بينهما ... كما تفرق ارواح وابدان
وطفلة مثل حر الشمس اذ طلعت ... كانها هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... ان كان في القلب اسلام وايمان

تمت القصيدة

والقصائد التي ذكرنا كلها تدل(1) على ردالة(1) الصبنيول وفيها كثير بيان وقد غفلوا عن امور لم يذكروها واذكر بعض(1) من ذلك فمنها ان الصبنيول اعطى خط يده بالامان لاهل تطوان وان دخوله يكون كما دخل الفرنسيس الجزائر فاذا به خالف ذلك وغصب امتعة الناس من نهب وتطييح ديار وقطع اشجار الى غير ذلك مما لا يخفى حتى قتل بعض من لا يستحق القتل وهذا كله عدم الوفاء بالعهود ومنها لا كلمة لهم والمقصود بهذا الكلام هو كبراؤهم حتى اعطوا ديارا لاربابهم وصلحوهم ودفعوا عليهم مالا ثم اخرجوهم منهم ثانيا ومنها انهم يحتقرون الضعفا ويعظمون الاغنيا واما عسكرهم لا تسمع منه الا

(1) قد حافظنا على ما في الاصل من اخطاء لم ننبه عليها الا نادرا.

السب وفي الخلوة الضرب ومنها ادعاؤهم الحب للمسلمين والبغض لليهـود والحال انا رأينا خلاف ذلك حتى طلب جماعة من اهل تطوان تبديل الترجمان اليهودي بنصراني صبنيولي فابوا ذلك وامتنعوا من تبديله وقد صار يقطع اشجار الاجنة مختلفة الوان ولا زال القطع في متاع الناس الى هـذا التاريخ وهو آخر ربيع الاول من عـام 1278 هـ. وكذلك لا زال يهدم الديار ويخلطها الى بعضها وكذلك الحوانيت والاطـرزة ويمنع على اربـاب الاصول كراءهم الا انه اطلق لهم الاخذ من التجار الذي(1) ليسوا بعسكر لكن حد لهم ان لا ياخذ احد اكثر من ما كان في ايام المسلمين فسامـح في كثيـر من الكـراء كثير من الناس ولم يعط من الكراء الا الشهر الذي تطلبه فيه واما ما مضى من الشهور فلا تاخذه وجعل ذلك حتى لليهـود وضاعت للناس امـوال من الكراء كانت متوفرة على اليهود وكذلك صـار يرتمـى على فداديـن النـاس فان طلبت اجرت الارض يدعي انه دفع عليها دراهم لمصالح لهـا فان اردت ارضك فاعطيني ما دفعت عليها الى غير ذلك مما يحير الافكار من الاحكام الفاسدة الخارجة عن القانون وضيق على المسلمين بان جعل لهم ورقة مطبوعة لا يدخل البلاد الا من كانت له تلك الورقة وادعا ان ذلك لاجل ان لا يدخل اهل الفساد والحال ان ذلك عند كثير من اهل الفساد ممن لا مروءة له ومنعت من كثير اهل المروءة لمشقة عملها زهدوا فيها وتركوا الدخول للبلاد وتركوا ما يجيء من نفع من البـلاد واما الكذب الذي يـرد من عندهم في الجوازيط فكثيـر وخصوصا في امر رجوع تطوان فهذه مدة من عشرين شهرا ما وقفنا على امر صحيح في رجوعهـا وورد لهم خبر بانهـا صارت لهم وحصل تاسف عظيم للمسلمين والحال ان ذلك كان منهم لكن لحيلة ومكيدة وعند دخولهم للبلاد صاروا يحملون المسلمين الزبـل والذي يابى ذلك يضربـوه حتى يحمل ذلك غصبا وبعد الصلح حملوهم الميتة وعاهدونا على ان لا يدخلوا مساجدنا فلم يكفيهم الدخول حتى جعلوها خزائن مونتهم وحتى اخذوا مسجدا يصلى فيه الجمعة ولم يتركوا الى هـذا التاريخ الا خمسة مساجد والباقـي كله اخذوه وجعلوه خزائن او مربدا للخيل او محل اكل وخمر الى غير ذلك من انواع المناكر والفساد الذي لا مزيد عليه ومن اسباب الكـرة الجدار التي احدثـوه بارض سبتة واوقعوه اهل انجرة فكان من الواجب على الصبنيول ان يحكم

(1) هذا الخطا كثيرا ما يصادفنا في هـذه الوثيقة الذي حافظنا علـى نصها بما فيه.

اهل انجرة على مقتضى قانونهم فاذا به اهل انجرة صاروا الآن احباؤه ويدخلون سبتة ويبعون ويشترون معه وتطوان صادفت الوعيد واسباب الكرة امور اخر كانت للصبنيول الشهوة فى الكرة لكن ليست له قوة وهو يريد الظهور فاما على النصرى فلم يقدر لانه اضعفهم قوة وجبنا وآلة فاختار وقت موت السلطان وانتصاب سلطان جديد لم تستقم له الرعية فقال فى نفسه لم نجد فى الاوقات فرصة مثل هذا الوقت فعمل الكرة مع الغرب وساعده الوقت من اجل المسلمين ظنوا ان قليلا من المسلمين يكفيهم قتال الصبنيول ومع هذا فى القتال الذى وقع معه كله ما قاتله الا دون الالف ومع هذا قتلوا فيه الوفا ومن المسلمين لم يمت الا يسيرا وشاهدنا قتال الصبنيول وجبنه فوالله ما رأيت بعينى الا ما يزيد على المائتين من النصرى هاربين خياله ورجاله من ستة اناس من المسلمين ولم يستطع احد ان يقرب منهم واطلقوا عليهم من الرصاص ما لا مزيد والمسلمين لم يطلقوا عليهم رصاص لان مرادهم كان النهب لا غير ونهبوا ما استطاعوا فى طريق مرتين ولم يقدر احد يصل الى قربهم ولولا ان الخليفة مولاى العباس عمل معهم الصلح بوادراس لكانت تقع فيهم مقتلة عظيمة حتى لم يرجع منهم احد ولا يصل لانه بعد الصلح بيوم وردت محلة كبيرة من البرابرة اهل الجبال وكانوا مشتاقين للقتال ومتشوفين له لكن من بخت النصارى وقع الصلح ولو فرضنا انه اخذ طنجة بعد مشقة عظيمة لكان يتجبر فى امره اما طنجة فيجيئه المدد من البحر واما تطوان كانت تسد عليه ولا يقدر على ايصال المدد لها فكانت توخذ عنوة ويقتل من بها ويحصل له ضعف كثير فى اصبانية وينقطع عليه المدد من البحر لكن المزية فى الصلح فلو وزنوا مولاى العباس جوهرا ولؤلؤا وذهبا وياقوتا ما يرجح الاخيره حيث عمل معهم الصلح وقد انكسر كثير من المسلمين على فعل هذا الصلح ولم يرض به وكذلك مولانا الامير لم يرض بهذا الصلح لكن جاءه عار ان يخالف امرا ابرمه خليفته وصنوابيه ومع هذا لم يراعوا هذا الخير العظيم الذى صدر من مولانا الخليفة ومن السلطان وصار يتلطف معهم ويبعث اليهم اناسا بهدايا وتحف يستعطفهم فى الخروج وهم اشد كفرا حتى سمع مولاى العباس من القنصو متاعهم كلام فاحش لكن القونصو مامور بذلك من غير شك ولو اراد سيدنا الامام ان ياخذهم ويستخلص تطوان لكان ذلك فى اقرب لحظة لكن ليس من شيمته ولا من شيمة المسلمين الغدر كما هو فعلهم كله غدر ومبنى على الحيلة وكان انعقاد الكرة فى ربيع الاول عام الف وستة وسبعين ومائتين

وخروجه كان من سبتة في ربيع الثاني عام اعلاه ولما خرج صار بعض اهل انجرة يصطادوه بالقتل مثل الصيد حتى اجتمع عدد من المسلمين ووقع القتال مرارا وقتلوا فيه الوفا وما مات من المسلمين الا القليل حتى انتقل مولانا الخليفة من محله فطمع اذ ذاك الصبنيول في اخذه وصار يتبعه حتى انتهى الى تطوان واهل المغرب لا شعور لهم بذلك وانما تاتيهم الاخبار بما قتل منه ويشاهدون خيله واسراه وبغالا وحميرا وبقرا فيظنون ان المسلمين الذين مع الخليفة لايحتاجون الى اعانة فبهذا السبب اتخذت البلاد واما ساعت ما ورد بجميع مراكبه الكبار والصغار وصار يطلق المدافع على البرج وعلى من بساحل البحر لم يلتفت احد الى ذلك من اجل ضعفه ومعرفتهم انه لا يقدر على النزول من المراكب وزيادة قليل من الكورة التى كانت تصل الى البرج والغالب عليها الوقوع بساحل البحر ولا معنى لذلك التخريج على البرج واى شيء هو حتى تجيء اليه عمارة المراكب وتطلق عليه واى فائدة في ذلك لكن لما كان ضعيف المراكب ونحن ليس لنا مراكب اراد ان تنظر مراكبه ويفتخر وقد اطلق ايضا على ازيلة واى شيء هي ازيلة حتى يطلق عليها من غير ان ينزل لو كانت قوة هو الاطلاق والنزول فهذا هو القوى لكن قد عرفنا قوته وحربه الآن فان اراد المولى سبحانه وقدر في كرة (1) اخرى فلاشك في اخذه في أقرب وقت وقد دخل جنس الصبنيول من العجب ما لا مزيد حيث اخذوا تطوان كانهم اخذوا بلدة فيها مدافع، وعسكر ولم يشعروا انهم اخذوا بليدة بين الجبال اهلها كلهم اصحاب اجنة وليس لهم عسكرا وان جمعت جميع رجالها الذى لهم القدرة على حمل البندقية والتوجه في الطريق نحو النصف ساعة فلا تجد الا دون الالف فاى معنى للتعدى على مثل هؤلاء مع انكم ايه النصارى تنسبون لانفسكم انكم على الحق وانكم تميلون القوى على الضعيف ما اكذبكم وانما ذلك منكم جبلة مع بعضكم وقد تاملنا امركم فوجدناكم مثل الحوت القوى ياكل الضعيف ولا شك في ذلك وقد دخلكم العجب ايه الصبنيول حيث اخذتم نحو الالف نفر وانتم بنحو السبعين الفا اما رأيتم طارقا اخذ جل اصبانيا باثنا عشر الف نفر وما بلغكم هزيمة الفنش وما بلغكم خروج النصرى من القسطنطينية بست مائة «الاف دون المتطوعة وخرج عليهم الملك البرسلان التركى وشتت شملهم واخذهم عن آخرهم وقبض على ملكهم وما رايتم

---

(1) كثيرا ما وردت كلمة «كرة» وصاحبها يريد الكلمة الاسبانية بمعنى الحرب.

وسمعتم باخذ يقليم الشام ولا زال بيد المسلمين هذه زيادة على اثنا عشر مائة سنة ولا زال المسلمين على العهد الاول الذى عاهدوهم بـه وانتم استعجبتم فى انفسكم وحقرتم المسلمين ولم تفو بالعهود اكثر من ثلاثة أيام وصرتم تنهبون الديار وتخربوها فانظروا ضعفكم وانكم لم قدرتم على ايصال الفحم من العدوة الى تطوان لولا ان مولانا الامير اعطاكم التسريح فى اخذ البقر والدجاج والغنم والفحم وغير ذلك لكنتم تموتون جوعا فانا قد شاهدناكم عند دخولكم لتطوان كيف كان حالكم من اكل الفيران والهر والكلاب ووصلت البيضة الى ريال من البليون وليست توجد كل الاوقات واما اللحم والدجاج فلا وجود لها فانظروا خير هذا الامام معكم وانتم لا تقابلوه الا بالسـوء وتشتموه مع انكم امرتم عليكم امراة ولم تسمعوا احدا من المسلمين يشتمها وانتم تشتموها فما اجهلكم لاكن انتم تركتم دينكم الذى به تدعون انكم نصرى فاجرى امور الدنيا وما لكم وللتعرض للمسلمين فى امر فقرائهم وتدعون ان المسلمين لا تاويل عندهم وفقراهم يضيعون والحال ليس ذلك كذلك فما تجد بلدة بالمغرب الا ونصفها او ثلاثة ارباعها كله للفقراء محبس علـى مساجدها وعلى غربائهـا وعلى خبز يـوم الخميس وكيـف تقـدرون على الصدقات مثل المسلمين وانتم موصوفين بالبخل من قديم الزمان يعنى اهل الاندلس وانتم ليس عندكم عشر العشر للفقراء مثل المسلمين فقد شاهدنا ارضكم وعارفين اموركم البادية والخافية وتعترضون على سلطان المغـرب وانه ياخذ اموال الناس من غير حق فمن اخبركم بذلك فهو كذاب فالغنى الذى ليس احد يماثله فى تطوان يعطى ثلاثين اوقية فى كل عيد ولنا ثلاث اعياد فى العام والثلاثين اوقية اليوم اقل من ريال فرنسيس نعم ان سمعتم انه ياخذ اموال بعض الاغنياء فذلك العمال الذى يتعدو على بعض الناس فانه يعاقبهم بسلب ما بايديهم وبالضرب وبالحبس لينزجر غيرهم ولولا ذلك لصدر منهم القبيح وقد قل فى الدنيا مثل امير المغرب فى اتباع الحق فانه فاق غيره نعم انتم يظهر لكم اموره فاسدة لانها مخالفة لما انتم عليه من القانون وابدلتم دينكم وعملتم دينا جديدا على مقتضى شهوتكم واغراضكم مع انكم تعترضون بسبب ذلك على من قبلكم من ابناء جنسكم وايضا فيكم الفقراء اكثر منا بحيث لا يجدون ما ينفقون ومع ذلك لا ترحمهم ولا تسامحوهم فى ما هو معتاد يعطوه فقد احرقتم رعيتكم بكثرة العطا حتى تشتتوا فى البلدان فلا تجد بلدة الا وفيها كثيرا من اهل اصبانية خدام فلو كانت ارضكم فيها العدل لما خرج منها كثير الفقرا فهذا دليل على انكم لا ترحمون الفقرا وليس فيكم الا الدعوة

فلو بقيتم مستورين لكان لكم احسن واما سلطان المغرب فالدليل على انه لا يتعدا على مال الناس الا بحق من الحقوق الشرعية هو لا مال عنده ومن جملت ما شاهدناه منكم انكم تتعرفون للانسان وتغتبطون فى معرفته حتى تعرفه وتجتمعوا معه مرار ثم انكم تلقوه بعد وتجعلون انفسكم كانكم لم تعرفوا ذلك الانسان ولا لقيتموه ومطلوبكم فى معرفة المسلمين ظاهر معروف البعض منكم لغرد له عند ذلك المسلم والبعض ليعرف طبع المسلمين كيف هو والبعض لم ير المسلمين فيحب ان يرى اصطلاحهم والغالب فيكم على ان يجد ما يتكلم به عند رجوعه لبلده من الاخبار واما فى الحقيقة فلا محبة لكم فى المسلمين وخصوصا العداوة قديمة بين اهل العدوتين وهى سبب خرق البوغز لما كان اهل عدوة الاندلس ضعفاء لا طاقة لهم بعلاقات اهل عدوة فاس شكوا الى ذى القرنين فخرق البوغز لاجل ذلك واستراحوا حتى عملوا اهل هذه العدوة المراكب ورجع الشر كما كان وعند ما يتكلم معكم مسلم على تقطيع الاشجار وخراب الديار تجيبوه هكذا فعلتم انتم فى ارض اصبنيه والحال انكم تكذبون فى ذلك فحاش لله ان يكون الغدر فى المسلمين حتى يقطعوا شجرة واحدة بعد الصلح وانما القطع الذى كان يحصل قبل الصلح وعند الكرة واما بعد الامان فلا يصدر من المسلمين الا الجميل لان ذلك امرهم به الشارع والمسلمين واقفين مع الشرع وخصوصا فى ذلك الزمان فان ناس ذلك الزمان احسن من هؤلاء من غير شك وكيف يصدر منهم ذلك وهذا الامر لا يصدر حتى فى وقتنا هذا وانما هذه دعوة منكم تتخبؤون فيها فاعرفوا انا نجيزكم فى ذلك فقط والقلب لا يسلم لكم ذلك ومهما اعترضنا عليكم ذلك تاتون بحجج خاوية ونحن نغض الطرف عنكم فى ذلك وفى امور كثيرة وكنا نسمع فى الكتب ومن الناس ان اهل الاندلس فيهم البخل والعفة فلما رأيناكم وجدنا البخل ولا عفة لم يكفيكم فى اهل تطوان ان اخذتم اموالهم وديارهم وصرتم الآن تطمع فى الذى بايديهم وليس معكم امان حتى ضربتم النقيبات على الديار واخذتم حوائج الناس الساكنين بذلك الديار ووصل الامر الى كبيركم ولم يراع ذلك ودخلتم على ديار ونهبتموها وقبض رئيسكم ذلك فى ايديكم واتمن ما قبض عند امين فخان واخذ من ذلك ولم ياخذ صاحب الحق لا الاول ولا الاخير فحاصله امور كثيرة سكتنا عنها ليلا تاخذوا فى خاطركم علينا وانما ذكرنا اقل القليل من افعالكم الردية ولو اتبعنا القلم فى سفاهتكم لا حفا والمداد يفنى ولا فائدة فى ذكر كل الرذيل بل بعضها يكفى واما الحسد الذى رأينا فيكم فلم نراه فى امة من الامم وليس لكم ادب كبيركم وصغيركم

لا ينطق الا بسفاهة وبالفاظ باشعة ولا تتألمون بالشتم والكلام الردى بل هو فاكهتكم فلم يشابهكم احد فى ذلك واما الحياء فليس فيكم نعم تجعلون الحياء مصنوعا حتى يظن الجاهل ان ذلك حقيقة وذلك عندكم صنعة من الصنائع ولو اردنا ان نخصص كل واحد باسمه من الكبراء وبما صدر منه من الامور الناقص لفعلنا لاكن اضربنا عن ذلك صفحا ويكفيك فى عدوك قلة دينه ومن رأيكم ونظركم الفاسد ان خربتم الديار وضيقتم على انفسكم وعسكركم المساكن واحرقتم رعيتكم بكثرة المصاريف الكاذبة صرتم تصنعون ديارا من الخشب للمرضا ولغيرهم وذلك يطلع بمال كثير وكله تضيق على الرعية ولو تركتم الديار والرباع على حالها لسعتكم وخففتم على رعيتكم لان هذه المصاريف كلها من عنق الضعفاء من رعيتكم فسدتم الطرقات وجعلتم بعض الناس يكسرون الحجر ولو عملتم الردمة مما خربتم لكان احسن واخف على الرعيـة ولا تحتاجون معه الى مصروف ونبه على ذلك من له المعرفة لرائسكم فلم اسعدتم لذلك والحال انكم تكثروا الاشغالة ليحصل لكم النفع فى المصاريـف ولا شفقة فيكم على رعيتكم وقد حصل لنا الملل من كثرة الكلام فلنرجع الى ذكر تطوان لانها محبوبة وقد قال فيها الشاعر

احن الى تطوان فى كل موطن حنين مشوق للعناق وللضم
وما ذاك الا ان جسمى رضيعها ولا بد من شوق الرضيع الى الام

وقال غيـره

يا نسمة باكرت من نحو تطوان وفت الـى علـى بعـد تحيينـى
ردت الى جسدى روح الحياة وما خلت النسيم اذا ما مت يحيينى
لولا تنسمها من نشـر ارضكـم ما اصبحت من اليم الوجد تبرينى

وهذه الابيات الثلاثة غالبها مسروقة من كلام الغير وقد قال غيره

ايا تطوان لو ان الزمـان يبيعنـى وصالك يومـا شريتـه بالعمـر
خرجـت الى باب المقابر ناظرا الى جنة كتـان مفتحـة الزهـر

ولا ملامة فى مدح الانسان بلده فقد قال الشاعر

بـلاد الفناهـا علـى كـل حالـة وقد يولف الشىء الذى ليس بالحسن
تستعذب الارض الذى لا هـوا بهـا ولا ماؤها عـذب ولاكنهـا وطـن

وقال غيره يمدحها ايضا.

هذه تطوان مجد   قد حوت كل المفاخر
نزه الطرف لديها   سرح اللحظ بناظر
ثغرها يحكي لئال   حسنها فاق الزواهر
جنة الدنيا وماوى   كل خير للمجاور
هي شمس قد تجلت   تسبى حقا للنواظر
وبمغناها ربوع   ومبانى ومآثر
خلتها امرط خز   قد تحلت بجواهر
ورباها ودراها   فيه ورد وازاهر
ومياه دافقة   بها دارت كالاساور
تجرى فيها ولديها   كل فضل متكاثر
ورياض ناعمة   وطيور فى المنابر
خاطباة بلغاة   تسبى دابا للخواطر
وتراها هاتفة   بسراة وجماهر
وحماه سكنوها   خير رهط وعشائر
ما من العيب لديهم   غير هنح وبشائر
المصر ما حوته   ام لشام او جزائر
اتراكم قد رأيتم   لها شبه او مناظر

وهذه الابيات قالها صاحبها لما طال الامر.

اذا انت ضقت لنامية   ولم يك للصبر منك اعتماد
فخيم بباب الكريم ترى انحلال الوثائق من بعد انسداد
ولازم وقوفا ببابه عن   جميل ظنون وحسن اعتقاد
وللراس نكس ولا تلتفت   لوجه سواه تفز بالرشاد
وبثه شكواك منطرحا   فكم من عطايا افاد وجاد
وكم من هباة افاد الورى   واعطى الكثير جهارا وزاد
فمن امه صادقا يجتنى   جميع مناه وحسن ازدياد
فها انا بالباب ذا وقف   وما ان اخيب وانت الجواد
امد اليك يدى سيدى   بوجه من الذنب فيه اسوداد
عساك عساك تميط الرد   فما لى الا اليك استناد
اغاثة حائر يامن يرى   يفيض الكثير ويعطى المراد

دعينـــا ببلـــوى ولاكنهـــا لسوء الصنيع ومحض الفســاد
وشائـــك عفـــو ولاكنـــه عظيم يعــم جميـع العبــاد
فياربى بالمصطفى المجتبـــى من حاز المعالى جهـارا وسـاد
ازل ظلمـه الكفـر عـن ارضنا وحل الوثاق من بعـد اشتداد

تمت الابيات فالله يتقبل منه.

ولما دخل الصبنيول تطوان وجدها خالية من الرجال والنسا الا بعض الناس المستضعفين ولم يبق بتطوان احد حتى الفاسدات من النساء خرجوا وكان ذلك مكره للصبنيول لانه لم يصحب معه نساء حين قدم ومن الفرح الذى حصل له كان يخصه النساء لا كن الله سلم منه المومنين من الفساد ولما طال الامر قدم له الفاسدات ولم تر عينى فيهم مليحة لاكن لعمش فى بلد العميان يسمى كاحل العينين نعم قد رايت واحدة ليست من اهل الفساد فى غايـة الحسن والجمال لا كنها وان كانت حسيبه اذا طمعتها بالدراهيم تقضى منها غردك لان معبود النصرى وحتى اليهود هو الدراهم بخلاف المسلمين تجد المراة التى لا تجد ما تنفق وهى حسيبه ولا تلتفت الى الزنى بوجه من الوجوه ومع هذا فليس حرص المسلمين على المال كحرص النصرى واليهود وكما انهم ايضا يحرصون على الحياة فليس المسلمون بحارصين مثلهم ولنرجع الى تطوان واهلها فلقد مات منهم من ساعة خروجهم الى الآن اكثـر ممـا مـات بالقتال وخصوصا المشايخ والعجائز فما بقى منهم الا اقل القليل ولما دخل الصبنيول الى تطوان نزل عسكره فى ديار المسلمين الفارغين واما اليهود فانه نزل معهم بديارهم وصار الفسق فى اليهود النساء الذى لم يظهر عليهم قبل وذلك للطمع ولم يبق من النساء اليهود الذى لم تقرب الزنا الا القليل وقد صاروا جميع اليهود اغنياء الا اقل القليل وذلك من كثرة النهب ومن اشغالهم مع النصرى وشراء السرايق منهم والبيع والشـراء لان البـلاد فرغـت من المسلمين وبقى البيع والشراء كله لليهود وزيادة لا زالت عيـن النصـرى مسدودة وقد استعوذوا الغلاء ببلادهم فى جميع الامور فصار يظهر لهم شغل اليهود رخيص وكذلك جميع ما يباع بصبانية كله فاحش الغلاء وهنا لا مكس فاستغنت اليهود ووجدوا الراحة والغنا مع الصبنيول ولو اطلق لهم لصاروا يضربون المسلمين لاكن لما كان فى اعتقادهم ان المسلمين راجعيـن الـى بلادهم صاروا يصطنعون معهم وفى الحقيقة هم اشـر خلـق الله ومنهـا ان الصبنيول لا رحمة فيهم ولا شفقة فقد اخرج اناسا من ديارهم وصبيانهم يبكون

على فراق ديارهم وحتى اخرج اناسا ممن كان من المستضعفين وبقى في البلاد حتى دخل عليهم وحتى سامح بعضهم في البلاد وخرج منها ومنها استهزاوه بالناس فهو لا زال على تخريبه وهو يامر بطلاء البيبان على الوان فطلاء البيبان يكون بعد صلاح الديار وهذا استهزاء بالناس ومنها لا يبالى بكلمته فكم امور امر بها ولم يفعلوها الناس ومع هذا فلم يتفطن ولم يلتفت لذلك وخصوصا في الامور الذى يفعلها البعض ويتركها البعض فلا يبالى بها وهذا كله دليل على حكمه فاسد ولا قانون له ومن اشغاله الفاسدة كم من امور شرع فيها وتركها فهذا كله من عدم التدبير فلو كان يتأمل في الامور قبل فعلها لكان يتم نعم اللهم اذا شرع في امر ووجد احسن منه فلا باس بتركه وهذا يترك الامر المستحسن بعد الشروع فيه ويرجع الى غيره او الى ما كان عليه اولا ومن جملت ذلك طريق الحديد من مرتين الى تطوان فلو كان هناك بابورا لرد اموالا وخفف عن الرعية هذه مدة من قريب عامين فانظر مصارفها وانظر ما ضاع من مدخول الغير وامور اخر وكذلك لا معنى لتخريب الديار وقطع الاشجار فاذا تخضت(I) له البلاد فان ذلك له منفعته واذا رجعت يبقى عليه الثناء وتبقى له المزية اما ترى الفرنسيس في ارض الجزائر عنده حراس وجسسا على الاجنة ربما يقطع منها شجرة حتى اذا كان صاحب البستان قطع في بستانه من غير مشورته ووقوف اهل المعرفة تلزمه العقوبة على قطع ذلك ومن جملت ما عنده من الامور المستحسنة اناسا موكلون بغرس الاشجار والتركيب لها وعنده وكلا على بيع ذلك بربع فرنك الى النقلة مع انها يمكن ان تتكلف عليه بريال او بما يقرب منه لاكن مقصوده عمارة الارض لا خرابها وعند دخوله الى الجزائر هد ديارا وحوانيتا حتى وسع الطريق لاكن لم يضيع احدا في حقه واعطى لكل واحد حظه من غير بخس بل كان يضاعف الثمن في ذلك فكم من امور مستحسنة ابدعها فلذلك طال امره هناك واستقامت له الرعية وهذا امر الفرنسيس فكيف لو رأيتم او سمعتم بالانكليز في الهند وحسن سياسته وهذا الانكليز هو الذى ركب العز للنصرى بتدبيره وسياسته فكل النصرى منهم يستفيدون وله تابعين وانظر ما تقابلوه بالكلام الخشين وهو ساكت عنكم ولو زفر فيكم زفرة لمتم باجمعكم منها لاكن حيث انكم ضعفاء لم يلتفت اليكم وجعل كلامكم كالهباء فتادبوا وارجعوا عما انتم عليه فانكم لستم على شىء ويكفيكم تضييع الدين لاكن في قريب ان شاء الله تردكم

(I) لعلها «انخضعت»

الى الطريق المستقيم فلا يكن عندكم شك فى ذلك فلا تغتروا بما لقيتم هنا فى هذه الايام فمعلوم ما بعد الشر الا الخير وانتم فى اعتقادكم ومرادكم لا يبقى مسلم على وجه الارض وهذا غير ممكن فان هذا الدين لا يزال قائما ولن تجدوا لتعطيله سبيلا وخصوصا انتم لانكم من الضعفاء اذا كنتم تعرفـــون انفسكم فكم تاخرون راتب عسكركم الى ستة اشهر وعند انقضائها يبقى عليكم منها ولا تستطيعون كمالها وجميع قوتكم اظهرتموها بتطوان علــى القليل من الناس وزيادة حيث جعلتم لمن يدخل البلاد ورقة وعملتم على ابواب البلاد حراسا كان يكفى الكلام مع واحد الذى سميتموه بالوردى سبيل(1) فاذا به كم من مرة يكشف على الورقة ثلاث حراس وفى يوم من الايام كنت راكبا حمارا حاملا الفاكهة فاشتغل الوردى سبيل يتطلع على الورقة والعسكر الذى معه ينهبون من الفاكهة وذلك هو المقصود من الوردى سبيل وبعد ما اطلع على الورقة اخذ من الفاكهة بيده من غير اذن وهذا دابهم مع كل احد من المسلمين يخطفون فى الطريق يعنى العسكر لا الفسيتس (2) اما الفسيتس غالبهم اهل مروءة وهمتهم عالية على مثل هذه الامور لان مرتبتهم هى التى تمنعهم من ذلك وقد انقطعت لى الورقة من طيها فكنت احتاج الى كلفة فى الدخول من اجل ذلك مع ان الكتابة والطابع بين لاكن كنا نحتاج جميل الوردى سبيل على ذلك التقطيع وهذا كله دليل على عدم التاويـــل فـــى الاحكام اما لو كان تاويلا فلا يقدر يتكلم بالذى ليس له به اذن وكم من واحد يدخل البلاد من غير ورقة وذلك احسانا من الوردى سبيل وذلك من عدم القانون وقد حلفت ان لا اتخذ بهيمة مدة ما يبقى الصبنيول بالبلاد لما رأيت من مقاسات اصحاب البهايم من الدفع للبهيمة وقلب الاحمال فى السكك والضرب والشتم ووقوف صاحبها ينتظر تمام اكل العسكر او صردهم وعددهم فكم من مرة يحكم على صاحب البهيمة الوقت بوقوف ربع ساعة ولا يجد سبيلا للجواز ولا للرجوع وكنت اتحمل مشقة المشى راجلا واكفى شر هذه المهانة وهذه الامور ربما ينكرها بعض من كان بتطوان من الفسيانس وغيرهم لانه لم يراها ولا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها وقد اتفق لى يوما مع كرونيل ان قال لى لم جعلتم اميركم اسود فاجبته ولم انتم جعلتم الامير امرأة فبهت ولم يجد جوابا وقد اجبنا من غيرنا بلسان الحال بقول القائل :

(1) يريد الحرس المدنى كما هو فى الاسبانية

(2) يريد الضباط بالاسبانية

قل للذى بصـروف الدهـر عيرنـا — لا ينكـب الدهـر الا مـن له قـدر
اما ترى البحر يعلـوا فوقه حبـب — ويستقـر فـى اقصـا قعـره الدرر
وفى السمـاء نجـوم لا عـدد لهـا — وليس يخسف الا الشمس والقمـر
وفـى البساتيـن انـوار منوعـة — وليس يقطـف الا الـورد والـزهر

ولما انتهينا لهذا المحل ونحن بدارنا ورد لنا بعض الحب مع ناس من اهل خارج البلاد فصادف الحال هناك ولد صغير فصار يشتمهم والوردى والشلفاد(1) يرى ذلك ولم ينهاه احد عن ذلك بل من غير شك انهم امروه بذلك فهذا هو جعل الصبنيول لا يبالى بمن يشتمه ولا يبالى بشتمه للناس فذممت الدنيا وتاسفت وتمثلت بقول القائل .

سئلت عن الدنيا الدنيه قيل لـى — هى الدار فيها الدائـرات تـدور
اذا اقبلت ولت وان هى احسنت — اساءت وان عدلت فسوف تجور

وتذكرت قول القائل وانا فى اشد ما يكون من كسر النفس وحقـر الصبيان ولا ناصر وهو.

دع الايـام تفعـل مـا تشـاء — وطـب نفسا لمـا حكـم القضاء
وكن رجلا عن الاهـوال جلـدا — وشيمتـك السماحـة والوفـاء
ولا تجـزع لحادثـة الليالـى — فما لحـوادث الدنيـا بقـاء
فـلا حزن يـدوم ولا سـرور — ولا بأس يطول ولا رخاء (2)

الى ان قال فيها.

اذا انقطع الرجا من كل حى — ففـى الله الكفايـة والرجـاء

ونحن قد انقطع رجاؤنا من كل حى فى النصر وعود البلاد وفوضنا الامر لله ولا رجاء الا منه فهو يعلم ما ظهر وما خفى سبحانه فحاصله حصل من الذل للمسلمين والمهانة مع جنس الصبنيول ما لم يحصل حتى لليهود مع المسلمين فى ايام ذلهم بل لم يحصل حتى عشر ذلك لان المسلمين يردهم العقل والشرع عن اليهود وحتى كانوا يضربون الصبيان الذى يتعدوا على اليهود ويشتمهم وينهوهم عن ذلك والصبنيول بالعكس من ذلك ونحن لم يجلسنا

---

(1) يريد العسكرى بالاسبانية
(2) الابيات للامام الشافعى

بتطوان الا حفظ الدار لقلة ذات اليد واما لو كان الحال متسع فوالله ما جلسنا وكنا نتركها تخرب لاكن لما كان لنا الطمع في رجوعها محققا استحملنا بعض هذه المشقة والهمة من الفقير محال لاكن لم التقينا مع جنس اكابر وانما خرج السهم مع هذا النذل والله سبحانه يهدى مولانا السلطان يعطيه ما يطلبه من المال ويريح العباد ولو نظر سيدنا نصره الله الى قول القائل ما طلب منه التوسعة وهى .

والله والله مرتين	وبالحسن ثم الحسين
لنزح بحر بجلد نمر	وفجر بمير بابرتين
وكنس درب الحجاز جمعا	فى يوم ريح بريشتين
وغسل عبدين اسودين	حتى يعودين ابيضين
ولا وقوف بباب نذل	اريد منه وفاء دين

لاكن ربما يظن الخير بغير اهله ولم يكف ما كان يقطع من الاشجار خفية ويعتذروا عنه حتى اخذوا اشجارا من اجنة الناس وغرسوهم بالجرنة التى كانت فى ايام المسلمين مذبح الغنم والبقر(1)وهذا كله تعديا منهم وطغيانا وخارجا عن القانون والشروط الذى بينا وبينهم لا كن ليس هذا اول شرط نقدوه بل نقدوا جميع الشروط ولما خرجنا من تطوان الى شفشاون كتب لنا بعض الاحبا من تطوان وان دارنا نهبت لاكن بقى بها البعض فغصبوا علينا اناسا من الاحباب بالرجوع فرجعنا فوجدنا بعض حوائج لا زالوا بالدار وبها كبراء من النصرى وفى يوم من الايام وجدت واحدا من كبرائهم يسد بعض الحوائج متاعى ليبعثهم الى اصبانية فلما رايت ذلك قال لى ساعطيك ثمن ذلك واخذ ذلك ولم يعط شيئا وسافر بعد ذلك ولم يصدر منا احسانا للذى كانوا معنا بالدار كما أحسنا للذى اخذ الحوائج من غير ثمن فانظر كيف قابل الاحسان بالسوء واما خدام تلك الكبراء الذى كانوا بالدار قد كسروا باب مخزن كان عندى مسدودا واخذوا منه امورا ومن الدار ايضا اخذوا كثيرا وانا هناك وكانوا يبيعون لليهود ولم ينهوا من كبرائهم على ذلك وقد كان يحسن معنا بعضهم بالكلام ويظهر الرحمة والشفقة لاكن اخذ بعض شىء

(1) هو المكان الذى كانت به الاقامة العامة الاسبانية وبه اليوم القنصلية الاسبانية.

تفه اطلعت عليه واذا اخذ قبل ورودي شيئا فلم اطلع عليه لاكن وجدت بعض اثر البخور وكان نهب لي من العود والند فقال لي هذا البخور وجدته مطروحا بارض الغرفة فلم ندر ذلك اعتذارا منه او هو حقيقة وغيره اخذ ايضا شيء تفه اطلعت عليه فربما ظن اني لا نبالي بذالك وان كان كذالك لاكن هو في نفسه كان ينبغي له التعفف لانه كان يظهره حتى طلب مني ان ابيع له بعض امور من الدار فقلت له خذها من اليهود فاجابني ان اليهود ليس لهم الا المسروق وانا لا اشترى المسروق فاستحسنت منه ذالك والناس معادن فالطيب والردى في كل جنس فموجود في جنس الصبنيول من يعترض على افعالهم ولا يرضى بهذه الامور التي صدرت لاكن ليست له مقدرة على دفع ذلك اذا كان راس الماء مغيرا فلا يزول الوسخ منه الا اذا كان راس الماء نضيفا فكثيرا رأيناهم يتأسفون على هذه الافعال الردية من قطع الاشجار وتهديم الديار ولم ندر هل ذالك منهم حقيقة او اصطلاحا فلو كان حقيقة لكانوا ينهو العسكر عن فعل ذالك وللصبنيول سكة ضربها من اجود ما يكون الذهب والفضة الا الفلوس الذى يسموهم الشابوا (١) فانهم في غاية الردالة حتى طرف من الحديد والنحاس يسموه شابوا ويسلكوا عندهم حتى فلوس الغرب والصبنيول ياكل الدجاج والبيض كثيرا ولهم بذالك الشغف اكثر من لحم الغنم مع ان لحم الغنم افضل ومشغوفين بحب الكلاب ويتعلم بالاكل معهم بالصفرة ومولعون بتنظيف الخيل وغسلهم اكثر من انفسهم بل في انفسهم النصف الاسفل لا يغسله ولا يغسلون الا وجوهم وراسهم والعنق والرقبة واليد لا غير ويكرهون رائحة الطيب للرجال وعندهم اللهو واللعب كثيرا حتى يرقص الرجل مع المرأة مشتبكين اليدين والمرأة يراها اخاها ووالديها تتكلم وترقص مع الذى ليس به محرم ولا غيرة في ذلك والنساء في الاسواق مكشوفين الوجوه ويبيعون ويشترون ولهم حوانيت خاصة لهم للبيع والشراء وعسكرهم ياكلون من آنية واحدة وقوفا في الازقة وغالب اكلهم البطاطة ويسترها بالفلفل الاحمر وادامهم الخنزير وشاهدنا لعسكرهم ادب مع كبرائهم مهما يتعداه يرفد يده الى رأسه فتلك تحيته لاكن لهم حسد كثير فمهما جاز عليهم كبيرا وحيوه بادبهم صاروا يغتابوه شاهدنا ذلك كثيرا

(١) OCHAVO هو ثمن البليون فكان الريال يقسم الى 16 بليونا والبليون يقسم الى 8 اجزاء واحدها OCHAVO

وذالك من كثرة الحسد الذى جبلوا عليه حتى قال لنا بعض فسبانس اوصوا(1) اذا كنا فى الحرب يقتلوا كبرائهم لاجل ان تحصل مرتبتهم لمن دونهم ويتمنوا الموت لكبرايهم لاجل مرتبتهم فهذا عايناه وسمعناه منهم مشافهة وهذا هو عين الحسد وصاحب الحسد فى غاية من التعب ومولعون ايضا بالقرود ويودبوهم حتى يستانسوا معهم ويعرفوا اصطلاحهم ويمتثلوا امورهم بالتدريب وقد دخلت يوما البلاد راكبا حمارا مستعارا وكان قدامى واحد من العسكر بيده صطلة من الطبخ فانزلها ليستريح فقرب اليه الحمار ولم يصادفه ومسكته فاشتغل يسبنى وبهم ان يضربنى وانا ساكتا حتى ناداه الآخر كان يسمع منه ذالك يكفيك من هذا السب ويوم آخر كنت راكبا بغلة وكان لهم صف فاردت الجواز قدامهم فدلقم واحدا منهم البغلة وردها وسكت ورجعت وصبرت قدام صفهم الا ان واحدا منهم كابوا (2) قال ان المسلمين مثل البقر فلم نجبه لذالك ولو اتبعنا كل ما يصدر لطال الكلام فقد شاهدت بعينى الوردى سبيل ضرب رجلا من اهل المروءة وقد كنت مرة بالزحام فضربنى بركبته عسكرى من ورائى وكل احد من المسلمين الذى يدخلون تطوان تصير لهم نكبة معهم فلا يخلوا احدا من نكبة ومن جملت (3) ما صدر من الصبنيول ان حفر على قبور المسلمين واخرجهم من القبور وجعل محل القبور طريقا ومرعى لدوابهم وماشيتهم واخذ لحود الحجارة من القبور وكسرها وبعضها عمل بها الجير ولا يجوز من ايام دخوله الى الآن يوما واحدا من غير فساد بالبلاد فكل يوم ترى او تسمع ما يسوءك وعند دخوله للبلاد صار يطلب الفانوسات من عند اهل البلاد فانظر ما اضعفه حتى لم يقدر على الفانوسات ولو كان له نظر سديد لعمل المثبن فى يومين او ثلاث ولما خرج لودراس وورد لتطوان مجارحه صار يطلب المطربات فلو كان ياخذ ذالك بالثمن لكان اولى وهمة عالية واى شىء كان باقى من المطربات لاهل تطوان حتى يطلبهم ومن افعالهم الردية يزرطون بمحضر الناس وفى السكك ولا حياء لهم ويضحكون من ذلك واذ اجتازت بهم امرأة تسمع منهم من الكلام الذى هو سخرية بها ما لا مزيد حتى المراة الحسيبة لا تستطيع

(1) يريد «صول» وهى كلمة تركية تدل على ضابط اليسار فهى اقل من «صاغ» الذى هو ضابط اليمين .

(2) هى لقب عسكرى بسيط معروف عند المصريين بـ «شاوش».

(3) يستعمل دائما التاء مفتوحة فى هذه الكلمة.

الجواز عليهم وحدها وانما تجوز بحارس معها حتى عجائز المسلمين والاماء يسخرون بهم وفى بعض الاحيان يمسكون بيدهم على الفروج اذا كانت لهم خلوة ليس جائز فيها كثير من الناس ومع ذالك فلو كان كثير من الناس فلا تجد من ينهاهم عن القبيح وخصوصا على اليهود فياما ضربوا منهم حتى قتلوا لان اليهود اهل ذمة لمن كان وتعين لاكن يسمعوهم من الكلام الذى يدخل على الفواد ما لا مزيد عليه فيغتاضون عليهم والكلام الذى يسمعوهم اياه كمدح المسلمين ووصفهم بالسجاعة والرجولية وكمدح انفسهم وتحت ذلك منطوى دم الصبنيول وكمدح الانجليز والفرنسيس وغير ذالك ومن علامة عدم الشفقة فيهم عند هدمهم الديار بامر حكمهم لم ينتظروا صاحب محل لهم فيه حوائج بل اوقعوا ذالك على الحوائج والسلع وما استطاعوا اخذه اخذوه وقد ضربوا على اليهود الآن مالا فى كل شهر وخالفوا كلامهم لانهم عند دخولهم لتطوان عملوها سنتين لا تعطى فيه الخارج ولا تلزم لمن بها كلفة مخزانية وان كان قد وقع منهم الخلاف فى الشهر الاول بل فى الايام الاوائل كان اليهود يرمون الزبل وحتى المسلمين وقد قبضوا واحدا من المسلمين المرة الاولى والثانية يرمى الزبل وهو يجبهم لا ارميه حتى تجعلوا برجلى سلسلة وكان يسلك معهم بذالك ولولا ان اهل تطوان خرجوا من البلاد لاجل تمنيع حريمهم ما كان يقدر على الدخول لها وحيث خرجوا وبقيت البلاد فارغة وصار «ابعير» يطالبه فى الدخول ويسجعه دخل اليوم الثانى من فراغها وهو يوم الثالث عشر من رجب عام 1276 ولو لم يطلبه ابعير فى الدخول وكان يزيد خارجها ثلاثة ايام ما كان يقدر على الدخول لها وكان يفتى عن آخره او يهرب فى البحر لان اهلها كانوا لا محالة بنية العود للقتال لاكن لا مراد لما قضاه الحق سبحانه وقد اتفق فى يوم من الايام بل ليلة من الليالى ان بات عندى مليح من اهل اصبانية فتمثلت بقول صفوان بن ادريس وذلك مذهبى وهو :

يا حسنه والحسن بعض صفاته ... والسحر مقصور على حركاته
بتنا نشعشع والعفاف نديمنا ... خمرين من غزلى ومن كلماته
ضاجعته والليل يذكى تحتنا ... نارين من نفسى ومن وجناته
وضممته ضم البخيل لماله ... يحنوا عليه من جميع جناته
اوثقته فى ساعدى لانه ... ضبى خشيت عليه من نفراته

والقلب يرغب ان يصير ساعدا ليفوز بالآمال من ضماته
حتى اذا هام الكرى بجفونه وامتد فى عضدى طوع سناته
عزم الغرام علي فى تقبيله فخلعت ايدى الطوع عن عزماته
وابا عفافى ان اقبل ثغره والقلب مطوى على جمراته
فاعجب لملتهب الجوانح خلة يشكوا الضما والماء فى لهواته

وللصبنيول حيل فى جلب اموال الناس يعنى الدولة وهو لعب القمار بحيث يجعل اوراقا ويجعل فيها علامات ومن تلك الاوراق اوراق للربح فمن خرج سهمه على ورقت الربح فقد ربح كما هو مقرر عندهم ذلك والمقصود والحيال هو ربح الدولة لان من ذالك النصف او ما هو معلوم عندهم للدولة والباقى ياخذه الذى خرج سهمهم الربح وكذالك مع بعضهم يلعبونه دائما فكم من غني اصبح فيهم فقيرا وكم من فقير اصبح غنيا من اجل ذالك وهذا دليل على قلت عقلهم فمن كان له عقل ودهن ثاقب فلا يقرب لعب القمار لانه ربما يضيع نفسه او ياخذ مال الغير ظلما وتعديا وحتى الذى له همة عالية لا يرضى باخذ اموال الناس بحيلة وانما ذالك من الهمم الدنية ومن جملت لعبهم يطلقون التور الحريج مع الخيل فى موضع متسع ويدخل رجل ليحرج التور حتى يقتل الخيل وربما يقتل حتى الرجل وعند قضاء ذالك ينحر ذالك التور ولهم الشغف بلحمه وهذا اللعب لا يلعبه الا من لم تكن فى قلبه رحمة لان ذالك التور والبهائم بكما ولا عقل عندهم فلا محالة يقتلون بعضهم والذى يفعل ذالك او يتفرج فيه لا محالة فى نقصان عقله وكذالك يطلقون الفراريج مع بعضهم وذالك من عدم الشفقة ايضا فحاصله مناكر كثيرة للصبنيول ولا مغير لها واما كسوة عسكرهم يعنى الشلضاض فقد صارت كالمرقعة من كثرة زمانها لاكن ذالك سهمهم فيا ما يضربون على ما يوجد فيها من تقطيع وذالك عقوبة لهم لسوء صنيعهم وقبحهم فلا نخرج من الدار فى غالب الاوقات الا وتحصل لى معهم نكبة لاكن اغض الطرف وخصوصا اذا كانوا فى شغل فعند كنسهم السكك اقل ما يصنع معك يكنس على رجلك الزبل اذا سلمت من ضرب رجلك بالمكنسه ولا تجدهم الا متعرضين للمسلمين بما يوديهم فبذالك سلط الله سبحانه عليهم كبراءهم بالضرب والشتم فلا تلزم رقه لما هم عليه من سوء اللباس لاكن يعترض على دولتهم حيث يبطشون عليهم بالكسوة لانهم خدما ومونتهم على الدولة والدولة لم تحسن الصنيع معهم

وخصوصا فى ارضهم وحاصله تطوان والمقام بها لا شك انه حرام ولو انهم خارجين منها مع الطوله ولا جلوس لنا بحول الله بها الا اذا كان تحقق خروجه قريبا عملا بالشريعة وبقول القائل

انقل خيالك من ارض يهان بها … واجتنب الذل ان الذل يجتنب
الذل لا يرتضيه مسلم ابدا … فى بلد ولو كان ارضها ذهبا
والليث ليث وان قصت انامله … والكلب كلب ولو صورته ذهبا

عبد العزيز بن عبد الله

وحدة المغرب العربي
مظاهرها السلالية واللغوية والفكرية

المغرب في عرف المؤرخين العرب هو مجموع الاقطار الافريقية الممتدة غربي مصر بما فيها برقة وطرابلس، ولم يكن هذا التعريف بدعا من القول لانه يستند الى حقائق انسانية لها مظاهر سلالية واقتصادية واجتماعية ناتجة عن الاطار الجغرافي، كما لها عوامل تاريخية تمخضت عن وحدة الفكر والتراث .

وسنستعرض في هذا البحث بحول الله المجالي المختلفة لهذه الوحدة التي تجعل من المغرب العربي قطعة متراصة من القارة الافريقية .

«ان جزيرة المغرب» محاطة بالبحر في أهم جهاتها (شمالا وغربا وشرقا) وتعتبر الصحراء امتدادا طبيعيا لها في الفيافي الافريقية نظرا للمقومات الجوهرية التي يرتكز عليها المجموع .

نعم ان هذه الصحراء التي هي اعظم صحراء في العالم كانت في الماضي أكثر عمرانا منها اليوم، كما كانت مسرحا لتطورات عميقة تجعلها من صميم المغرب العربي .

ومع ذلك فان الاقليم الذي تسلسلت فيه الحضارة بكيفية اعمق وأبهى هو ذلك الجزء الذي يمتد على ضفاف البحر الابيض المتوسط الذي كان يسمى بحر العرب والمحيط الاطلنطيكي او بحر الظلمات في شريط هائل طوله ثلاثة آلاف ك. م. وعرضه مائة وخمسون ك. م. ولكن مجموع سكان هذا الجزء من العالم يحملون نفس الاسم وهو امازيغ من طرابلس الى قابس الى الصويرة (سوردون – مؤسسات واعراف البربر بالمغرب ص 27) .

وقد اندهش المؤرخون الغربيون للسرعة الخارقة التي كان المغرب يسترجع بها وحدته السياسية في ظرف سنوات معدودة بحيث تمتد المملكة بمجرد انبثاقها في مركز من المراكز الى اقصى التخوم، مثال ذلك ان بعض

امراء نوميديا (الجزائر الحالية) مثل سيفاكس ملكوا من قرطاجنة الى راشكون (تلمسان) كما امتد نفوذ الفاطميين من القيروان الى فاس وابن تاشفين من الصحراء الى قلب الجزائر وعبد المومن الى طرابلس .

الا ان معظم المؤرخين الغربيين يتحاشون النتائج المحتومة لهذه الظاهرة زاعمين ان من خواص المغرب وكذلك الشرق انعدام نقطة مركزية أصلية تلتف حولها الامة على نسق ما جرى مثلا في اوروبا حيث انبثقت نواة مركزية كدولة بروسيا وجزيرة فرنسا وقشتالة وانجلترا القديمة، ثم ترعرعت تدريجيا الى ان تكونت منها الدول الالمانية والفرنسية والاسبانية والانجليزية ولعلنا فى غير حاجة الى التدليل على ان عناصر الوحدة التى تتوفر جوهريا فى المغرب العربى وتكاد تنعدم لحمتها بين الشعوب الاوربية هى القوام الحقيقى لتلك الظاهرة التى لم تتحقق قط لفاتح اجنبى غير العرب.

ويقول اولئك المؤرخون ايضا بأن الفكر الشرقى ومنه الفكر البربرى يتصور ان تاريخ الشعوب يتسلسل خارج الاطار الجغرافى بمعنى ان الوطنية العربية او البربرية لا ترتكز فى نظره على التراب ولا تستلزم وجود وطن له حدوده وذاتيته الخاصة، وان الجهاز القبلى الذى هو نواة الدولة يفهمه العرب والبربر مجردا عن قوامه الاقليمى لانه جهاز جنسى قبل كل شيء، وقد شعر سوردون فى كتابه «مؤسسات واعراف البربر فى المغرب» (ص 438) بما فى ذلك من التناقض فصار يتلعثم فى الدفاع عن هذه الفكرة التى روجها اول الامر بعض المستشرقين والتى تريد ان توفق بين تعلق البربرى بوطنه وعدم وجود روابط قانونية بينه وبين هذا الوطن. ولعل هذا الوهم المستتب فى أذهان الغربيين راجع الى عدة عوامل منها ان الاسلام فى عهده الاول لم يول كبير اعتبار للوطنية الضيقة لانه كان يهدف الى نشر فكرة لا تحدها تخوم مصطنعة ومنها كذلك ان جوهر القبيلة سلالى ككل قبائل العالم، ولكن الشيء الذى اغفله هؤلاء المؤرخون هو أن فى المغرب قبائل اندمج جانب منها سياسيا ضمن قبائل أخرى واعطت بذلك الاسبقية للاطار الجغرافى وقد يكون الوازع فى هذه الحال، اما امكانيات اقتصادية أوفر واما عواطف خاصة من نوع الحنين الى مسقط الراس ومرتع الصبا، وعلى كل فان نظرية الغربيين فى هذا الموضوع تنطوى على شيء غير قليل من الافتعال.

واذا كان هنالك قبائل رحالة تنتقل من الجبل الى السهل حسب الفصول انتجاعا للماء والكلأ فانها تبتعد غالبا عن مركزها الاصلى الذى تقوم فيه مستودعات وبنايات قارة بأقل من مائة كيلومتر، وقد تحدث ابن خلدون عن

بعض هذه القبائل فعلل ايضا انتقالها عن مساقط رؤوسها بضيق العيش في اطارها الجغرافي الاصلي لاسيما وانها تسكن الخيام المنقولة.

على انه يمكن ان نرى في هـذه الهجرة نفسهـا دليلا جديدا على ان العقلية البربرية لا تفرق بين اجزاء هذا الوطن الاكبر الذي هو مجموع المغرب وانه متى اعوزت قبيلة من القبائل وسيلة العيش في ناحية انتقلت الى اخرى ضمن الاطار الجغرافـي العام بل هنالـك قبائل لم تضطرها عوامل من هذا القبيل الى الانتقال الى اجزاء اخرى وكيف لا وهي تشعر هنا وهناك بنفس المناخ ونفس الطبيعة ونفس الذهنية والعواطف .

على ان البحث عن الحيز الحيوي ولو بالانفصال عن المقر الاصلي غير مستبعد حتى في أوربا التي هاجر رجالها الى امريكـا حيث كونوا لانفسهم موطنا جديدا، وفي ذلك ما يحدر الاوربيين حسب م. كوتيي الى تغيير نظرهم في ضرورة القوام الترابي للوطن (العصور الغامضة للمغرب ص 93)

ومع ذلك فان هذه الظاهرة او تلك لم تكن حادية لنفي الاطار الجغرافي كبوتقة لانصهار مقومات الوطن .

لا سيما وان بعض فلاسفة الاجتماع مثل رونان لا يتطلبون في تكوين الامر سوى وحدة التاريخ والعواطف .

* * *

فلنستعرض الآن من خلال قبائل زناتة ـ مثلا ـ الدور الذي قامت به العوامل السلالية في تكوين المغرب العربي .

فقد قرر ابن خلدون ـ وأقره على ذلك مؤرخون غربيون أمثال كوتيي وكزيل ـ أن زناتة الذين خصص لهم سفرا خاصا في تاريخه منتشرون في المغـرب من غدامس الى سـوس الاقصـى بل يكونـون معظم سكان مداشر الصحراء وانت تجدهم اليوم في كورارة يتكلمون اللهجة الزناتية وكذلك في مزاب وورغلة وقد لاحـظ ابن خلدون وجـود زناتة كذلك في ناحية طرابلس ووسط سهول افريقية وجبال الاوراس بالجزائر، وما زال الى الآن في جبل نفوسة الطرابلسية «برابرة لهم صلة تاريخية وثيقة بمملكة تاهرت الزناتية» ويشعرون الى الآن بقرابتهم مـع المزابيين (كوتيـي ص 195) ويؤكد ابن خلدون ايضا ان معظم الزناتيين يقطنون «المغرب الاوسـط» (اى الجزائر) وينصب الوادي الزناتي الى اليوم شمالي الاوراس في حدود سهول قسنطينة والتل وقد تغلغلت اللغة العربيـة في المواطن الزناتية واعترف بذلك بعض المستعربين المعاصرين .

ومن زناتة كذلك بنو يفرن الذين أسسوا ممالك في أغمات وشالة وتادلة حيث ظلوا قابضيـن على زمـام الحكم الى عهـد المرابطين في حين أقام بنو عمهم المغراويون ممالك في فاس وسجلماسة وتلمسان وحتى في طرابلس .

واذا تتبعنـا مواطـن زناتة وجدناهم استوطنـوا في المغرب الاقصى حيث تسربوا من وجدة وفاس وممر تازة الى سهول المحيط الاطلسي المتسمة كلها بالطابع العربي.

وهكذا نرى ان زناتة التي انتشرت في مجموع افريقيا الشمالية تمثل احدى الدعائم السلالية لوحدة المغرب .

* * *

ولا يخفى ان البربر اما برانس أو بتر ونصف هؤلاء البتر من نفوسة ولواتة اى من أصل طرابلسى ولواتة بالخصوص قبيلة أصلها من برقة يقال انها من أرومة قبطية «وقد لعبت دورا هاما في بداية تاريخ المغرب العربي» كما يقول كوتيي وقد غمر اللواتيون الواردون من الشرق سفوح جبال الاوراس وكانوا عضوا قويا للدولة الحفصية في تونس ومن فروع البتر المطغريون الذين استوطنوا ممر تازة وأحواز تلمسان، وفي عصر ابن خلدون كان غالب سكان سجلماسة عاصمة تافيـلالت مطغرييـن وانبـث المطغريون كذلك في واحات النخيل بين توات وفجيج، وقد أكد كوتيي أن فجيج هذه كانت في القرن الرابـع عشر الميلادى هـي البقعة الوحيدة التـي احتفظت فيها عائلـة مطغرية بالسلطة السياسية (306).

وينتسب المطغريون لبني فاتن الذين توجد لهم فروع أخرى في افريقية وباقي نواحي المغرب لا سيمـا أقاليم المغرب الاوسط المحاذية للصحراء وهم الذين أسسـوا مملكة تاهرت وانتقلوا بعـد سقوط هذه المملكة الى جنوب القطر التونسي حيث أسسوا جزيرة جربة، ومن بين هذه الفروع قبائل مغيلة التي تقطن المغرب الاوسط من مصب مشليف الى مدينة مزونـة والمغـرب الاقصى بيـن وفـاس وصفـرو ومكناس وكذلـك مديونـة فـي مقاطعـة تلمسان وممر تازة شمالي فاس، ومن أهم قبائل بني فاتن كومية التي انتقل قسط منها مع عبد المومن الكومي الى المغرب وفي هذه القبيلة فخذة تسمى ندرومة وقـد اكد اللغوي الخبير وبليام مارسي ان لهجة ندرومة عربية قديمة ربما دخلت اليها في العهد الموحدي .

وتقطن في نفس المقاطعات مكناسة التي أسست كرسيف ورباط تازة وأقامت مملكتين احداهما في التسول (ناحية تازة) والاخرى في سجلماسة

ودائرتها ويتجلى من هذا العرض أن البتر أو زناتة استوطنوا السهول المتسلسلة بين النجاد والوهاد من طرابلس الى تازة واصلين بحبل وثيق اقطار المغرب العربى وصحراءه .

ذلك هو بعض الدور الذى قام به البتر، فماذا كان دور اخوانهم البرانس

ان قبائل البرانس التى اتسمت باهمية كبرى فى توجيه تاريخ المغرب العربى هى كتامة وصنهاجة ومصمودة .

فموقع كتامة الجغرافى هو الاطار الذى تركزت فيه الدولة الفاطمية والذى كان تابعا لبنى أغلب امراء افريقية، وقد اختار الفاطميون مهدية عاصمة لهم وبعد انهزام ابى يزيد «بوحمارة»، الذى كان يضعضع أركان الدولة الفاطمية الفتية رجع المنصور الفاطمى الى القيروان حيث أسس المنصورية فى أرباضها ثم كان فتح مصر ولعبت كتامة فى كل ذلك دورا أساسيا حيث كانت السند الاقوى للفاطميين، ومنذ ذلك العهد صار الحكم فى المغرب العربى الى البربر المسلمين طوال عدة قرون .

والمقاطعة «القبائلية» فى الجزائر هى الموقع الاصلى لقبيلة كتامة التى ما زال سكان شرقيها يتكلمون لهجة عربية، ومعلوم ان اللغة العربية دخلت مبكرا الى تونس وسهول عنابة حيث خلفت مباشرة اللغة البونيقية التى يجمعهما مصدر واحد فى حين أنها لم تدخل الجزائر ـ فى نظر ابن خلدون ـ الا فى القرنين الثامن والتاسع، وربما كان لكتامة أثر فى تعريب الناحيتين الوسطى والغربية للمغرب الاوسط، وهذا الدور الذى قامت به كتامة فى تاريخ المغرب العربى بل وفى تاريخ الشرق الاسلامى لم يمتد اكثر من نصف قرن ولكنه كان بليغا تغلغل فى الاعماق حيث ادى الى تاسيس الخلافة الفاطمية وانتقال الكتاميين أنفسهم الى الكنانة.

اما صنهاجة فانها قبيلة ترعرعت وامتدت فروعها فى اقاليم شاسعة من المغرب العربى وهى تقطن ناحية «القبائل» من الجزائر والصحراء الغربية (حيث يسمون الزناجة ومنها الزنوج فى بلاد السنغال) وشرقى الاطلس بين ممر تازة والصحراء وهم الذين ساندوا دولة المرابطين ولا تذكر صنهاجة الا مقرونة بكتامة وينتسب كلاهما الى حمير ـ على ما يقال ـ واذا كان اسم صنهاجة قد اندثر فى «قبائل» الجزائر فان البربرية قد اندثرت كذلك وخلفتها اللغة العربية الا عند جماعة ضئيلة تسكن بين بليدة والمدية (كوتيى ص 335) .

وصنهاجة الجزائريون الذين استقروا بين المغرب الاوسط وافريقية ليسوا من القبائل الرحالة مثل بنى عمهم المرابطين وقد خلف الفاطميين فى المغرب امير صنهاجى هو بلقين بن زيرى بن مناد الذى اسس مدينة اشير عام 324 هـ. ثم بعدها جزائر بنى مزغنة ومليانة والمدية وقد اسس حماد بن بلقين (عام 398 هـ.) القلعة المعروفة بقلعة بنى حماد وهى العاصمة الثانية لبنى زيرى الذين انتقل منهم الناصر بعد ذلك بثلاثة ارباع قرن الى بجاية وهى العاصمة الثالثة والاخيرة لصنهاجة وقد اكد كوتيى ان المملكة الصنهاجية خضعت لتاثيرات الشرق حيث ابرز بيليى فى حفرياته الطابع الشرقى الذى تتسم به الهندسة المعمارية (الطابع العراقى فى اروقة قلعة بنى حماد) (والطابع الفارسى فى زخرفة الاوانى)

اما المصامدة فهم سكان الاطلس الكبير الذين ساندوا دولة الموحدين ومنهم ايضا غمارة سكان الريف.

وقد اتضح الآن ان مجموع الجبال المغربية و«القبائل» الجزائرية كلها من البرانس الذين تعد منهم كذلك قبيلة اوربة وهى قبيلة كسيلة الشهير التى كانت تسكن غربى الاوراس حسب «مسكارى» ويقطن عقبها اليوم فى سهول وادى العبدى ووادى العرب ويظهر من كلام ابن خلدون انهم كانوا منتشرين فى التل الوهرانى وناحية تلمسان وحتى ممر تازة ، وقد انتقلوا بعد مقتل عقبة بن نافع وانهزام كسيلة الى المغرب الاقصى حيث نزلوا مدينة وليلى المعروفة ايضا بقصر فرعون وهذا مظهر لوحدة الجزائر والمغرب الاقصى الجغرافية والتاريخية حيث ان شكلية الاراضى نفسها اقرت رابطة طبيعية بين اقليمى الاوراس والملوية الذين كان امراء نوميديا (اى الجزائر) مثل سيفاكس وماسينيسة وجوكورطا متارجحين بينهما.

ولكن اين الصحراء من كل هذا ؟ الى اية شعبة ينتسب البربر الذين يتغلغلون فى اعماق الصحراء المتاخمة للسودان انهم بربر اشهرهم التوارك او الطوارق الذين يعتبرهم ابن خلدون من لمطة ولمتونة، الا ان علماء النسب يرون فى هؤلاء فريقين اثنين احدهما اللمطيون واللمتونيون الذين اسسوا الدولة المرابطية وهم من قرابة صنهاجة الاطلس وصنهاجة الجزائر فهم اذن برانس وهنالك فريق آخر وهم ملثمو الشرق المعروفون بالهكار وهم هوارة الذين جاءوا من برقة وطرابلس ولعبوا دورا هاما فى تونس والاوراس الجزائرية فهم اذن بتر من بنى عمومة البرانس.

وقد يلاحظ اننى لم اميز فى بحثى هذا بين العرب والبربر وقد فعلت ذلك عن قصد لان هذا المميز يكاد يكون غير موجود سواء اعتبرنا الارومة العربية للبربر تبعا لرأى كثير من علماء النسب او اعتبرنا الوحدة الطارئة اثر التوالد والامتزاج بين الجنسين او مظاهر الوحدة الاجتماعية والفكرية او غير ذلك فقد اكد مؤلف «عصور المغرب الغامضة «(ص 221 ـ 225)» ان نتائج الفتح العربى بعد مرور اثنى عشر قرنا تبعث على الدهشة لأن المغرب استعرب على نطاق واسع كما تغلغل الاسلام فى أحشائه وشمل مجموع اجزائه » وقلما احرزت الفتوحات فى تاريخ المعمور مثل هذا النجاح ... لقد شعر ابن خلدون ان امامه بالمغرب وحدة سلالية كبرى» ثم قال كوتيى (ص 254) « اننا نلاحظ خلال مجموع تاريخ المغرب تجاذبا بين الرحل البربر والعرب ذلك ان تشابه مناهج الحياة والعواطف الجوهرية اقوى من اختلاف اللغات» وقد اشرنا الى ما قاله رونان وهو ان من دعائم الوطن الوحدة الروحية واهمها وحدة الدين والعواطف فالمغرب الذى احتك نحو ألف من السنين بالحضارة القرطاجنية والبونيقية الشرقية(1) قد احتفظ فى قرارة نفسه باحساسات واستعدادات فطرية نصف لا شعورية تتفتح للاسلام « (256) لهذا» فقد اندرج فى بحبوحة الاسلام بالمغرب كل من له فكر مثقف وكل من يحس بالحاجة الملحة الى لغة مكتوبة والى أدب « (256) والظاهرة الجديدة التى تتحدى تاريخ اوربا كلها هى ان العربى الفاتح « عبر فى طفرة واحدة مساحات المغرب الشاسعة ناهجا المسلك الطبيعى الدائم بين الهضاب وممر تازة ... وعبر مضيق جبل طارق متجها لفتح الاندلس ساحبا معه القبائل البربرية لهذا الفتح «ص(257) واغرب من هذا ان الاندلس الذى هو من طينة سلالية غير طينة العرب ولا البربر علق هو ايضا بالعروبة ومظاهرها « واهمل حتى الادب اللاتنى ـ حسب المؤرخ دوزى ـ اعمق الاهمال واحتقره ابلغ الاحتقار بينما احس بالأدب العربى يلهب سويداءه وشعر بمتعة لا نهائية خالصة» «كان الاندلسى مستعد للتنازل عن الادب

---

(1) امتد اشعاع اللغة البونيقية التى كانت تشتمل على نسبة مهمة من العربية من قرطاجنة الى قابس ومن طنجة الى بجاية ثم الى بلاد الجريد والاوراس (تاريخ المغرب ـ كوساك ص 31) مثال ذلك ما لوحظ فى البونيقية من ان لفظ «ملك» لها نفس المعنى فى اللغتين (سوردون ـ الكتاب المذكور ص 38)

اللاتنى كله في مقابل نتف من الشعر العربي وهذا معيار لنفوذ العرب وسلاح قوى لكسب القلوب » (259) وما ثورة الخوارج التى امتدت من طرابلس الى تونس الى الجزائر الى طنجة وسهول سبو ثم من قابس الى فجيج الى سجلماسة سوى طفرة نحو دعم وحدة المغرب بايعاز دعاة العرب وتحت شعار الاسلام ولم يكن فيهذا اى مظهر مقصود لما زعمه المستشرقون من وجود روح انفصالية بين العرب والبربر او روح الثأر من البربر ضد العرب اذ لو كان ذلك حقيقيا لما اصطبغت الثورة بتلك الروح ولا بذلك الشعار غير ان هذه الثورة ما لبثت ككل الثورات فى العالم ان تمخضت عن تيارات عنيفة حادت عن مجراها الاصلى فاشيع باسمها الدمار فى افريقية ولكنها ادت مع ذلك الى نتيجتها المحتومة وهى كما يقول كوتيى (ص273) « تركيز السيطرة العربية » فى مجموع المغرب من افريقية الى تاهرت الى تلمسان الى مراكش ولعل من اهم رواسب طفرة الخوارج قيام مملكة المولى ادريس الذى احترمه حتى الاغالبة التونسيون ــ على قول النويرى ــ لقرابته من الرسول واذا كان من عادة امراء البربر الاستناد الى قبيلة مثل كسيلة مع اوربة والكاهنة مع جراوة والفاطميين مع كتامة والمرابطين مع صنهاجة والموحدين مع مصمودة وكومية فان المولى ادريس قد احتضنته مجموعة من القبائل لا واحدة ذكر منها ابن خلدون زواغة وزناتة وسدراتة وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة وجميع القبائل الاخرى التى كانت تستوطن المغرب مثل اوربة ومطغرة (التى ساندت ميسرة من قبل) ومغيلة الجزائرية. هذا علاوة على بنى يفرن ومغراوة اى مجموع الكتلة الزناتية من فاس الى الشليف الجزائرى ولم يكن مع المولى ادريس سوى بضع مآت من العرب اخترق بهم تامسنة الى تادلة الى الاطلس الكبير بينما اتجه الاغالبة الى نشر الاسلام وحضارته فى صقلية وهذه هي المرة الاولى التى تطأ فيها اقدام فاتح اجنبى تراب هذه الناحية من جنوب المغرب « لان الامبراطورية الرومانية لم تستطع قط المساس بهذه الكتلة البربرية الضخمة فى المغرب الجنوبى » (ص 289)

ويحق للمؤرخ كوتيى القول بان تاريخ المغرب الاقصى يبتدىء من هذه الفترة التى انفتح بعدها المجال واسعا للمرابطين والموحدين نحو الشمال والشرق.

« وقد عاد المغرب الاقصى فى عهد المرابطين ــ كما يقول الاستاذ «طيراس» فى تاريخه (ج أ ص257) كما كان مغربا مزدهرا تحتف به الطمانينة

والسلام غنيا بموارده الطبيعية ورجاله الشجعان ، كما ازدهرت في عهدهم وبفضلهم في الاندلس حضارة الاسلام (ج 1 ص 259) —

وقد امكـن لعبد المومـن بفضل الفكرة الاسلامية وعزيمته القوية ان يوحد مصامدة الاطلس (ج 1 ص 273) وان يؤسس مملكة مترامية الاطراف تمتد من قشتالة بالاندلس الى الجزائر (ج 1 ص 238) وعبد المومن هذا هو الذي وحد المغرب الاسلامي للمرة الاولى في التاريخ تحت سلطة سياسية مشتركة امتدت من قشتالة الى طرابلس (ج 1 ص 314).

وهكذا قامت للمرة الاولى في التاريخ — حسب المؤرخ كزيل — دولة موحدة في مجموع المغرب العربي (سوردون — الكتاب المذكور ص 28) ولكن في هذا العهد (القرن الخامس الهجري) انصبت على المغرب موجة من العرب الهلاليين والسلميين وكانت العربية اذ ذاك هي اللغـة الوحيـدة المنظمـة بالمغرب بالمعنى العادي للفظة لغة اى جهاز كامل الاجزاء بمفرداته ونحـوه وكتابته وادبه ، بينما ظلت اللهجات البربرية اللغة الشعبية خارج الحواضر (عصور المغرب الغامضة ص 386) غير ان العرب الجـدد اشاعـوا اللغـة العربية في شكلها الدارج حيثما حلوا اى في البادية نفسها وبذلك ، تغلغلت العربية في تونس وحواشي الاوراس والهدنة وهضاب اقليم وهران وسهوله وتسربت من ممر تازة الى سهول المحيط الاطلسي اى في مجموع البلاد التي تسودها السلالة الزناتية ومعنى هذا ان العامل اللغوي انضاف الـى العامل الجنسي لترصيص الوحدة بين هذه الاقطار من المغرب العربي على ان عرب معقل بلغوا مجموع الصحراء المغربية ولم يزد عددهم اذ ذاك على المائتين ومع ذلك تمكنوا من تعريب جزء غير يسير مـن صحـراء المغـرب ومنها شنجيط على ان افواج بني هلال وبني سليم التي اخترقت الفين من الكيلومترات لقطع المسافة الفاصلة بين صعيد مصر وتونس وكلها صحراء ما كانت لتتعدى مائتي الف نسمة على اكبر تقدير واذا صدقنا الاستاذ كوتيي القائل بأن سكان مغرب القرن الخامس كانوا اوفر منهم اليوم امكننا ان نقدر النسبة الضئيلة التي تمثلها هذه الهجرة العربية التي استطاعت مع ذلك ان تترعرع في شخص الاعراب الذين ساهموا في رفع نسبـة التوالـد بيـن الجنسين وامتزاج السلالتين ذلك ان هؤلاء الاعراب ما لبثوا ان عمروا كما يقول كوتيي (ص 405) « مجموع الصحراء الشمالية من سفوح الاطلس الى بحر الظلمات» ثم بعد ذلك سهول ازغار وتامسنا وتادلة ودكالة ومما يدل

على تسرب العربيـة عن طريقهم الى الصحراء ان «بعض التصانيف النحوية التى اندثرت فى المغرب توجد الآن فى الصحراء» (ص 405).

وفى الجزائر نفسها شاهد ابن خلدون انتشار هؤلاء الاعراب الذين ما لبثوا ان اندرجوا فى سلك قبائل زناتة الاصلية) بل كان لوجودهم بين ظهرانى البربر تاثير قوى ادى بالكثير الى تبنى اللغة العربية كما وقع فى افريقية حيث اعتنقت هوارة ما للهلاليين والسلميين من اعراف واساليب فى الحياة واللباس وغير ذلك بل تركت البربرية حتى اصبحت نسيا منسيا واتخذت مكانها لغة الضاد وقد انتشر بتوزغبة وهم من العرب فى المغرب الاوسط حيث سكنوا الحواضر والبوادى واندمجوا فى زناتة ولاحظ ابـن خلدون ان العرب اصبحوا يستوطنون فى عصره مجمـوع نواحـى بجايـة وقسنطينة التى كانت موطن زواوة وكتامة وعجيسة وهوارة اللهم الا بعض الجبال المنيعة.

ثم جاءت الهجرة الاندلسية بعد ذلك فانتشرت اللغة العربية والحضارة الاسلامية فى مجموع المغرب مع فلول الاندلسيين التى استقرت بالحواضر الكبرى مثل تونس ووهران وتطوان والرباط وفاس وحتى فى بعض النواحى الجبلية مثل فازاز بالاطلس الاوسط وقد تغلغلت الروح العربية فى نفوس البربر الى حد ان الرحل العرب بدون استثناء ـ كما يقول كوتيى (ص 410) اصبحوا يرفضون باستنكار فكرة الانتساب الى ارومة بربرية فهـم يـرون فى هذا الاحتمال سبابا لهم وضربا من المحال وهم لا يكتفون باتخاذ العربية لغة لهم فحسب بل يؤكدون انهم عرب وانه لا تجرى فى عروقهم نقطة من الدم ليست بعربية وهكذا نجد العرب اليوم مستقرين فى المواطـن التـى كانت تعمرها زناتة فى العصور الوسطى ، فهذا الاشعاع الخالد الذى تمخض عنه الفتح الاسلامى واستتباب الروح العربية منذ ازيد من الف سنة يتناقض مع ذلك الانمحاء الكلى الذى منيت به الحضارة الرومانية فى المغرب العربى فقد لاحظ كثير من المؤرخين الغربيين ومن بينهم سوردون (كتابه المذكور ص 41) « ان خمسة قرون ونصف قرن من المدنية الرومانية ، تبخرت فى المغرب فى ظرف قرنين اثنين ونصف قرن من فتح قـرطاجنـة علـى يـد جنسيريك عام 439 م الى ان فتح عقبة بن نافع مدينة طنجة عام 682 م وبعد هذا التاريخ لم يبق فوق تراب المغرب اى تراث رومانى غير الانقاض »

هذا فى حين ان حضارة البونيك ظلت متاصلة فى المغرب العربى حيث امتد نفوذها الى القرن الخامس اى طوال الاحتلال الرومانى ، محققة بذلك فترة انتقال سهلة الى الفتح العربى» (سوردون ص 31).

ولكن لما ذا نجحت حضارة البونيك حيث اخفقت مدنية الرومان ؟

يظهر ان وجود القرطاجنيين فى المغرب يرجع الى القرن الثانى عشر قبل الميلاد فقد اسست قرطاجنة عام 813 قبل الميلاد ولكن مدينة «اوتيك» التى اسست بالقرب منها هى اقدم وكذلك المدينتان المعروفتان بـ «هيبو» وهما بنزرت وعنابة او مدينة «ليبتيس ماكنة» اى طرابلس وتم هدم قرطاجنة عام 146 قبل المسيح بحيث يمكن القول بان النفوذ الفنيقى بالمغرب استمر عمليا الف عام وكانت قرطاجنة هذه تمثل فى غربى البحر الابيض المتوسط الحضارة الشرقية التى هى اقدم حضارة فى العالم وقد فضل الفينيقيون الاستيطان فى السواحل واقامة مدنهم على طولها حفظا لملاحتهم التجارية ومن بين تلك المدن قرطاجنة التى صارت عاصمة المغرب والتى دمرها الرومان فى «الحرب البونيقية الثالثة» التى كانت معركة دمار تهدف لمنع الزعيم ماسينيسا من الاستيلاء عليها واتخاذها عاصمة لمملكة مغربية وطنية كبرى ـ تلك هى نظرية المؤرخ كزيل الذى اكد من جهة اخرى ان ماسينيسا هذا تمنى ان يكون بالنسبة للحضارة البونيقية ماكانه الاسكندر المقدونى بالنسبة للحضارة الاغريقية ، لا سيما وان هذا الامتزاج والتداخل كانا قد قطعا اشواطا فى المغرب لانهما تهيئا منذ قرون (كوتيى ص 102).

ويرى كزيل ان قرطاجنة لم تبذل قط جهودا منظمة لادماج المغرب ولم تستعمر البادية المغربية مثل روما وقد اسست نحو العشرين مدينة فى الساحل بين طرابلس وتونس وامتزج الدم القرطاجنى بالدم البربرى فكانت لحمة اولى بين الشرق العربى الممثل فى القرطاجنيين وبين المغرب المشخص فى البرابرة وكانت لغة البونيك (التى تقرب من ارامية اهل الشام) اللغة الرسمية عند امراء نوميديا القوميين ولكن النفوذ البونيقى تجاوز الحدود التى كانت تشرف عليها قرطاجنة حيث وقع العثور على كتابات بونيقية فى تونس وشرقى الجزائر واكد سان ـ اوكستان الذى ولد فى منتصف القرن الرابع الميلادى) أن اللغة البونيقية كانت منتشرة فى البادية فى عهده واكد «بروكوب» Procope أنها كانت دارجة فى القرن السادس والمسافة قصيرة بين هذا العهد والفتح الاسلامى لهذا يقول كزيل ـ ان فى وسعنا ان نفرض ان البربر تبنوا لغة الاسلام لانهم تعلموها بدون

مشقة لمعرفتهم للبونيقية التى لا تختلف عنها كثيرا (تاريخ افريقيا الشمالية القديم ج 4 ص 498) وقد استند كزيل نفسه الى وثائق قديمة اشار اليها فى كتابه واستنتج منها كوتيى (عصور المغرب الغامضة ص 105) تسلسل تاريخ المغرب «تسلسلا عميقا» وقد وصف لنا بروكوب المذكور كيف هاجر العرب الناطقون باللسان البونيقى الى المغرب بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام وكانت فينيقيا تمتد اذ ذاك من صيدون (وهى صيدا الحالية) الى مصر وعند ما اكتسحها العبريون هاجر الفينيقيون من وطنهم الى بلاد الكنانة التى كانت فى حدود بلادهم ومنها الى المغرب حيث انتشروا الى «اساطين هرقل» (مضيق جبل طارق) ولهذه النظرية صلة بما قاله المؤرخون العرب فى انتساب كتامة وصنهاجة الى حمير ومعلوم ان الحميريين اقطاب الملاحة التجارية بين الهند وشرقى حوض المتوسط هم مثل الفينيقيين بالنسبة لهذا الحوض وكان بين البربر — فى نظر ابن خلدون — قبائل حميرية ومضرية وقبطية وكنعانية وقرشية تجمعت فى الشام وبها غزا افريقش الحميرى المغرب .

ومهما تكن قيمة هذه النظرية فالواقع ان القرطاجنيين مشارقة وان لغتهم وحضارتهم الشرقيتين ظلتا — كما يقول كزيل — تحت الرماد طوال عهد الرومان والوندال والبزنطيين الى ان جاء الاسلام فوجد فى «قرطاجنة جرثومة مشرقية لم يندثر اثرها مستعدة للفتح والازدهار » واستمرار البونيقية فى المغرب كانت له فى نظر كزيل ذيول اخرى منها الدينى (عبادة بعل مثل العرب) واستعمال الهلال واليد «الا صابع الخمسة» للاتقاء من العين والمحافظة الشديدة والتمسك بالدين .

ويستمر كزيل فى الاستنتاج فيلاحظ كمظاهر للطابع الشرقى فى المغرب استعمال القرطاجنيين للقميص الطويل بدون حزام وللشاشية والبرنس مع حلق الشعر او تقصيره وارسال اللحى وصبغها واستعمال الحناء والكحل والختان والسجود فى العبادة (مما كان يدهش الاغريق والرومان) وتحريم لحم الخنزير وما هو اعظم من ذلك وهو وحدة الفكر الذى يختلف هنا عن فكر الغربيين (كوتيى ص 125)

والذى يؤكد ايضا من الوجهة التاريخية وحدة القرطاجنيين والبربر او وحدة الشرق والمغرب ان القطرين اللذين فتحهما المسلمون واستوطنهما خارج افريقيا فى غرب حوض المتوسط هما الاندلس وصقلية وهما وحدهما اللذان استوطنهما الفينيقيون والقرطاجنيون قبل الاسلام » وعلى كل

فان وجود هذه الصلة بين قرطاجنة والاسلام ، قد اندرج في سجل التاريخ وان سكان قسط شاسع من المغرب يتكلمون لغة سامية قريبة من العربية ويلبسون ويتعممون ويفكرون ويحسون على طريقة المشارقة منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف من السنين (كوتيي 130 ـ 132).

وننساق من هذا الى الحديث عن الاعراف والعوائد الاجتماعية في المغرب، فما نسميه بالعرف لا يمثل العرف دائما، لان العادة المحكمة تكون تارة عرفا وتارة شرعا، والشرع كما يقول سوردون (ص 281) هو العرف العام اى المادة التي يستقي منا العرف في حين ان العرف في نطاقه الحقيقي ليس سوى ذلك الجزء الجنائي او المدني من العادات، وهو عبارة عن الاتفاقات المبرمة بين الجماعات لتحديد بعض نقط العادة أو تعديلها في خصوص العوائد المتعلقة بالسواقي او المخازن المسماة «بأجدير» (1) .

وشكلية الجماعة عند الشلوح شبيهة بالتي توجد عند امازيغ (الدشر ـ الدوار ـ مجلس الاعيان ـ اجدير الخ) وتلاحظ نفس الوحدة في الهيكل العام للقانون العمومي، ولا بدع في ذلك حيث ان القبيلة التي هي النواة الجهوية للجماعة تتسم بنفس المظاهر في السهول وفي الاطلسين المراكشي والتلي ومجلس الجماعة هو المكلف هنا وهناك بتطبيق العرف العام الذي هو الشرع وكذلك العرف الجنائي الخاص .

على ان الفقه المالكي منتشر في نصف المغرب العربي تقريبا (سوردون ص 473) وحتى في النواحي العرفية يلجأ الناس الى الطلبة او الى الحكام يطلقون عليهم اسم قضاة او مفتين ويختارونهم بالاقتراع لمدة مؤقتة او بصورة دائمة، ويؤكد سوردون «انه لم يقع قط اى تصادم بين الشرع والعرف» في المغرب (ص 342) ـ ولنضرب مثلا بمنطقة الاوراس البربرية، فان الفقه المالكي مطبق فيها، ولكن ذلك لم يمنع سكانها وهم شاوية ان يطبقوا في نفس الوقت عرفا يستمد مقوماته الخاصة من وسط شبيه

---

1) اجدير عبارة عن مستودع لخزن ذخائر مجموعة من العائلات التي تملك الهرى وتسمى اهل الحصن أو أهل الاصل وهي تكتتب لشراء الارض ثم تبني عليها عمارة من ثلاث طبقات ويباشر تسيير هذه المستودعات بالارتكاز على فكرة اللوازم وهي واجبات الشركاء او المصالح وهي العلائق بين هؤلاء الشركاء لا يخفى ان فكرة «المصالح المرسلة» في المذهب المالكي تجعل هذا النوع من العرف عادة محكمة ذات صبغة شرعية .

بسوس والاطلس الاوسط (ص 390) والاعراف متشابهة فى افريقية (تونس) وبلاد القبائل الجزائرية والاطلس الاوسط بينما نرى التقارب محسوسا بين الاعراف فى وسط المغرب الادنى وجنوبه والاوراس (ص 442) بحيث تلحظ وحدة موصولة بين كثير من اجزاء المغرب العربى لان الجوهر واحد «فمن اجدير الى قابس الى الجزائر الى بوذنيب الى ابن صالح فى الصحراء توجد لحمة واحدة فى الهيكل العام الذى هو افريقيا الشمالية» (ص 473) .

* * *

ولعل من ابرز مظاهر وحدة المغرب العربى المظهر الجغرافى الذى تمخضت عنه كثير من المظاهر وبالاخص الحاجيات الاجتماعية والوحدة الاقتصادية ذلك ان اقطار افريقيا الشمالية تتجلى كجزيرة جبلية شاسعة تمتد من الشرق الى الغرب فى مسافة ينيف طولها على 1.800 كيلومتر وعرضها على 400 كيلومتر ويحف بها البحر من ثلاث جهات، فى حين تتغلغل جنوبا فى فيافى الصحراء، واذا استثنينا هذه الصحراء الشاسعة التى هى امتداد طبيعى للمغرب العربى وجدنا ان مساحة افريقيا الشمالية تبلغ 800.000 ك. م.

ويمتد الاطلسان الاوسط والاكبر نحو الشمال الشرقى عبر المغرب العربى بواسطة الاطلس التلى بينما ينعرج الاطلس الاكبر شرقا الى جبال «القصور» ثم يستطيل «اطلسا صحراويا» نحو الشمال الشرقى فى سلسلة سامقة تخللها ممرات واسعة وفى تونس يلتحق الاطلسان الواحد بالآخر ثم يمتزجان.

ومن الاطلس الكبير الى تونس يحف الاطلسان بسلسلة من الهضاب الكبرى يتراوح ارتفاعها بين 800 و 1000 كيلومتر.

وتتسم الشواطىء ايضا بنفس المظهر : ضفاف واطئة فى المحيط الاطلسى دون اى نتوء صخرى وعلى ضفاف المتوسط شواطىء تتخللها فرض ضيقة متفتحة لرياح الشمال والشمال الشرقى .

اما المناخ فهو على وجه العموم حار معتدل مع امطار شتوية وتمتد امام نظرك على طول الشاطىء وفى السهول ومنحدرات الاطلس التلى والريف والاطلسين الاوسط والاكبر أدواح واشجار مستديمة الاوراق صيفا وشتاء تتخللها الدفل والعناب والدوم ومآت النباتات العطرية وترتفع غابات الزيتون

في السفوح الى 800 م. بينما تكثر في النواحي الرطبة اشجار الصنوبر والعفصية والبلوط والخفاف (الذى لا يوجد الا في الحوض الغربي للمتوسط) وتتسامق اشجار الارز في القنن العالية.

اما في الهضاب العليا والنواحي التي لا تنزل فيها الامطار بكثرة فان قطعان الغنم تسرح تحت حراسة رعاة رحل بينما تغطي الحلفة بخضرتها القاتمة مساحات شاسعة (افريقيا الشمالية لم. كليز Gleyze) ولا توجد في اى مكان في الدنيا غير الاطلس واسبانيا. فالحلفة اذن من اكبر خواص المغرب العربي (افريقيا البيضاء - كوتيي ص 161) وهكذا يتجلى الاطلس المتسلسل من المغرب الاقصى الى المغرب الادنى قطعة واحدة يغمرها نفس الضياء ونفس الاشعة ونفس المناظر الطبيعية (افريقيا البيضاء كوتيي ص 153) ولكن في مجموع اقطار الاطلس وعلى طول 3.000 كلومتر من اكادير الى صفاقس لا تتوغل الحياة البدوية والحضرية اكثر من 150 كيلومتر في عمق الجبال (ص 155).

ومن ثروات افريقيا الشمالية علاوة على الزيتون اشجار الفواكه واللوز والكرم والحوامض والمشمش.

وتتسم هذه الوحدة الجغرافية والاقتصادية بطابع خاص عميق بين المغرب الشرقي والجزائر حيث يمتد التل الوهراني الى نهر الملوية الذى هو اعظم نهر في افريقيا الشمالية كما تتلاحق هضاب دبدو مع هضاب تلمسان وتتلاحق نفس الهضاب من الجزائر الى قلب الصحراء «تندرارة» وفي هضاب الجزائر والمغرب الشرقي تكثر الحلفة وقطعان الغنم التي تباع في بركنت وتصدر الى الخارج من وهران وتعتبر فجيج مركزا هاما في الاطلس الصحراوى المغربي والجزائرى على ان سهول وهران نفسها انما هي امتداد طبيعي لممر تازة او العكس.

وتوجد في المغرب العربي نفس المعادن تقريبا (الفوسفاط والحديد والزنك والرصاص والنحاس، وان كان المغرب الاقصى ينفرد بالمانغانيز والقصدير والكوبالط والموليبدين وبالاخص الفحم والبترول).

وخلاصة القول هي «ان افريقيا الشمالية واحدة في جميع مظاهر حياتها الماضية والحاضرة» كما يقول الكولونيل بوطس في كتيبه عن افريقيا الشمالية (ص 55) فهي «كتلة متراصة لا يمكن تجزئتها» والعوامل شتى «لهذا التماسك وتلك الوحدة» بين اجزاء جزيرة هائلة عاش سكانها منطوين حول انفسهم آلاف السنين في حين هيأت لهم الوضعية الجغرافية الخاصة

أسباب التواصـل فتيسـرت في جميع العصـور عوامل التبادل من اقصى المغرب الى أقصاه بين عناصر تجمعها اروقة واحدة سلسلة من المسالك السهلة تمتد من تونس عبر ممر تبسة الى هضاب وهران ومن ممر تازة الى المحيط الاطلسي ! هذه الطريق التي عبرها عقبة بن نافع منذ ازيد من الف عام لتوطيد قدم العروبة والاسلام هي التـي وصفها ويليام مارسي بانها «الخط الاكبر للحياة في المغرب الاسلامي» وهذه الطريـق تتخلل الاطالس الثلاثة لتضفي على المغرب العربي وحدة جغرافية خاصة تجعل هذا الجزء من القارة الافريقية فريدا في بابه لاسيما اذا اضفنا الى ذلك وحدة الطقس التي تنشر على الكل سربالها الدافيء المشع بنوره الازرق اللماع.

والمغرب العربي يعتبر من الوجهة الاقتصادية قطرا فتيا فلاحيا في جوهـره ينطوي علـى قابلية ذاتية للتصنيع نظـرا لوفرة المواد الخامة واليد العاملة ولا تزيد التطورات الحديثة هذه المغارب الثلاثة الا تقاربا أبلغ وامتن

وهذه الوحدة الخاصة التي تجعل من المغرب العربي وصحرائه كتلة من جميع الوجـوه لا تتنافـى مع الوحدة العامة التـي تربط المغرب بالعالم العربي والتي تتجلى مظاهرها في وحدة اللغة والحضارة والدين والعواطف وكذلك التاريخ .

فالقطـر الليبي هو امتداد طبيعـي للمغرب العربي نحو الكنانة وباقي اقطـار الشـرق، تجمعـه بالمغرب وحدة الجنس علاوة علي وحدة التاريخ والحضارة ولكنه ينفصل عن المغرب جغرافيا واقتصاديا، لان الاطالس تمتد الى تونس فقط ولان الصحراء تمتد في ليبيا الى الشواطيء نفسها.

ولا يختلف وضـع مصر عن وضع ليبيا بالنسبة للمغرب الا قليلا اذا اعتبرنا ان الاقبـاط ينتمون الى نفس الفصيلة اللغوية التـي ينتمي اليها البربر وان مصر كانت دائمـا معبرا بين الشرق والمغرب العربيين وصلة وصل حية بينهما .

فعن طريق مصر دخل الى المغرب الفاتح العربي ثم تدفقت بعد خمسة قرون موجة العرب الهلاليين والسلميين الذين تواردوا الى الصعيد المصري من جزيرة العرب التي تصلها بالمغرب زيادة على هذه النفثة الجنسية التي كان لها اعمق الاثر في التاريـخ - أسباب أخرى لا تقل عن الاسباب التي تربطها بباقي العالم العربي.

وبلاد الشام التى كانت مهد الخلافة الاسلامية فى العصر الاموى والتى كانت حدودها السياسية والجغرافية والحضارية تتغلغل بين دجلة والفرات والاردن الى صحراء فلسطين كانت أيضا مهد الفينيقيين الذين نشروا فى جناحى العروبة الشرقى والمغربى نفس الحضارة بما فيها من أبسط المظاهر حتى الاقتصادية منها حيث «ان الفينيقيين هم الذين حملوا من الشام الى المغرب للمرة الاولى الزيتون والتين والكرم والرمان (الكولونيل بوطس ص 82)

ومن هذا العرض الموجز تتجلى لنا فى أعمق مظاهرها وابهى مجاليها تلك الوحدة العريقة التى تجعل من المغرب العربى مجموعة متراصة ينتظر ان تقوم بدور هام فى حوض البحر المتوسط خصوصا والعالم الحر عموما مع شقيقاتها العربيات.

ماريانو اريباس بالاو

معلومات جديدة عن سفارة محمد الدليمي

كانت لنا منذ مدة قصيرة فرصة التعرض لسفارة الحاج محمد الدليمي الذى اوفده الامير مولاى هشام الى اسبانيا عند ما رشح نفسه لعرش المغرب سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة والف عقب وفاة اخيه السلطان مولاى اليزيد (1) .

وقد استطعنا فى تلك الفرصة ان ندرس الانفصال الذى حدث فى اسبانيا امام وصول محمد الدليمي الذى اوقف فى قادس دون ان يمنح اعتبار السفير ودون ان يسمح له بالتوجه الى مدريد او تكون له فرصة يشرح فيها القصد من سفارته فاضطر فى النهاية الى الرجوع الى المغرب دون ان يتمكن من الاضطلاع بمهمته .

وكانت المهمة الرئيسية للسفارة طلب معونة اقتصادية من اسبانيا ، غير انه كان هناك مقصد ثانوى اهتم به السفير اهتماما خاصا وكان يتعلق بسعى عهد به اليه الامير مولاى عبد السلام شقيق الامير مولاى هشام .

وكان مولاى عبد السلام يتحلى بخصائص حميدة محبوبا من المواطنين والاجانب بحيث لو كان حاضرا فى وفاة أبيه ولم يصب بفقد البصر لكان هو المرشح للعرش (2).

---

1) انظر «سفارة مغربية موفدة الى اسبانية سنة 1792» لماريانو أريباس بلاو ـ تطوان 1953 .

2) انظر رسالة ضون خوان مانويل گونثالث سالمون الى كوندى دى اراندا المؤرخة بفاتح يونيه 1792. وهى محفوظة تحت رقم 72 بالارشيف التاريخى الوطنى ـ للدولة ـ المجموعتان 4327 و 4328 .

وذكر محمد الدليمي عند وصوله الى قادس ان الامير مولاى عبد السلام قد استقر منذ شهر بالصويرة بصفته خليفة اخيه مولاى هشام (3) لذلك فقد كان مولاى عبد السلام هو الذى اعد انتقال السفير محمد الدليمي الى قادس

وبمجرد وصول هذا السفير الى مرفأ قادس على متن الباخرة الفرنسية «مارى تريز» وجه الى «سالمون» رسالة قصيرة يخبره فيها بوصوله وبانه يحمل اليه رسائل الامير مولاى عبد السلام يخبره فيها بان الدليمي هذا يفد بصفته سفيرا. كما تتناول تلك الرسائل قضايا اخرى سيتكلم فيها الدليمي شخصيا معه (4).

ورسالة محمد الدليمي ممضاة من جانب «دافيد كاردوس تونييس» بأمر من السفير، ويثبت لنا ضون مانويل ڭونثالث سالمون فى احدى رسائله (5) بعض الاخبار التى تكفل لنا التعرف على دافيد كاردوس تونييس الذى امضى رسالة سفير مولاى هشام الى سالمون. فهو يهودى سبق له بعض الاتصال بقنصل اسبانيا فى طنجة فكلفه هذا بأن يهتم فى العرائش بما قد يحدث للبواخر الاسبانية التى تتجه اليها وبعد ذلك استبدل فى وظيفه هذا بضون خوسى دى لا كروث مندوب اسبانيا فى العرائش .

ولد كاردوس بمدينة جبل طارق وكان ابوه من اكبر تجارها. وكان يجيد عدة لغات، العربية والفرنسية والاسبانية والانجليزية فانتقل الى المغرب واستقر به فكان له فيه سلوك حسن. وقد عبر سالمون فى عدة مناسبات عن رغبته الملحة فى الانتقال الى اسبانيا بنية التنصر.

---

3) انظر الملحق رقم 2 بالرسالة المذكورة فى التعليق الثانى. وهذا الملحق يحتوى على التصريحات التى ادى بها السفير المغربى عند وصوله لميناء قادس وهو موجود فى المجموعتين المذكورتين .

4) انظر الملحق رقم 1 بالرسالة المذكورة فى التعليق الثانى. وهو موجود كذلك فى المجموعتين المشار اليهما.

5) هى موجهة الى كوندى دى اراندا ومؤرخة بفاتح يونيه رقم 73 فى الارشيف التاريخى الوطنى ـ للدولة ـ المجموعتين 4327 و 4328 . اما رسالة كاردوسو والملحق الخامس الذى يشير اليه سالمون فيوجد فقط فى المجموعة رقم 4327.

وامر ضـون مانويل گونثالث سالمـون عند ما تلقى هذه الرسالة ان ينتقل الى الباخرة الفرنسية احد خدامه وهو «ضون لويس غوبلو» مصحوبا بالمترجم ضون «بيدرو اومبيرت» ليحيي محمدا الدليمي باسمه الخاص واسم سالمون ويتسلم منه الرسالتين اللتين يشير اليهما الكتاب الذي تعرضنا له من قبل (6)

ودافيد كاردوس نونييس هو الذي امضى الرسالتين احداهما باسمه الخاص والاخـرى باسم مولاى عبد السلام. اما الرسالـة التى وجهها باسمه الى سالمون (7) فتشتمل على مجموعة من المعلومات المفيدة لمعرفة التطور الطارىء على الحالة فى قسم المغرب الذى يعترف بمولاى هشـام ولـو ان تلك المعلومات لا تتوفر كلها على نفس الدقة (8) .

ومن المعلومات المهمة التى تحتوى عليها رسالة كاردوسو تلك التى تتعلق بشخصية السفير المغربى محمد الدليمى. فهو يقول ان الدليمى لم يكن موجودا في المغرب اثناء اقامة سالمون بطنجة لانه كان قد رحل آنذاك الى الشرق. وكان الامير مولاى عبد السلام الذى ذهب الى الشرق فيما بعد هو الذى حمل الامر بعودة الدليمـى الى المغرب. فلمـا عاد كان السلطان مولاى اليزيد يعتلى العرش فدخل فى خدمته وقد كانت له مجادلات مع مولاى اليزيد فكانت حياته نتيجة لذلك فى خطر لم ينج منه الا بمعجزة. فلما توفى مولاى اليزيد دخل فى خدمة مولاى هشام .

ويعبر كـاردوسو فى فقرة اخرى من هذه الرسالة عن شعـور التجار ازاء محمد الدليمـى اذ كانوا يؤكدون ان له مكانة مرموقة فى اعين السلطان (مولاى هشام) محظوظا عنده، وكان فيمـا يقال احد الذيـن قاوموا الهجوم الاخير مع مولاى اليزيد وكـان فى طليعة من اجبروا العدو على افراغ آخر طلقاتـه .

---

6) انظر الرسالة المذكورة فى التعليق الثانى.

7) انظر الملحق رقم 4 بالرسالة المذكورة فى التعليق الثانى. وهو موجود فى المجموعتين المذكورتين.

8) يستنتج من احدى فقـرات الرسالة ان مدينتى فاس ومكناس قد اعترفتا كذلك بمولاى هشام فى حين ان هاتين المدينتين تؤيدان سلطة مولاى سليمان .

اما الرسالة التى كتبها كاردوسو بامر من مولاي عبد السلام(9) فتحتوى على عبارات مغايرة .

فالقسم الاول من الرسالة يذكر الصداقة الخالصة والانسجام الطيب بين اسبانيا والمغرب في عهد والده السلطان مولاى محمد الامر الذى جعله يؤمل استمرار الحال مع السلطان الجديد، شقيقه مولاي هشام الذى عزم على ايفاد محمد الدليمى بصفته سفيرا الى قصر اسبانيا مزودا باوراق اعتماده. ويطلب مولاى عبد السلام من سالمون ان يرعى السفير كما يرجوه ان يعتنى به .

وبعد هذه الفقرة ترد فقرة اخرى تشتمل على طلب موجه من مولاى عبد السلام الى سالمون ليتوجه هذا الى وزارة الدولة بطلب استقدام طبيب خبير من مونبلييه ليقوم بمعالجة مولاى عبد السلام من المرض الذى اصاب بصره لعله يجد بهذه المعالجة بعض التحسن . اما مرض الامير فيظهر انه كان غشاوة البصر فهو يقول ان «صاحب السمو لم يكن يرى بوضوح من يقترب اليه وانما يشاهد شبحا ».

اما فى الفقرة التاليـة فيعتمد الامير على المعاملة الطيبة التى كانت له فيما سبق مع سالمون ليسعى فى اعادة السلم والانسجام بين اسبانيا والمغرب عن طريق القنصل الاسبانى المذكور لتاكده من ان معرفته بشؤون المغرب ستساعده على تسوية الصعاب التى يمكن ان تحدث . ثم يؤكد ان لمولاى هشام احسن الاستعداد بالنسبة الى اسبانيا ويعد باستعمال كل نفوذه لتسوية كل القضايا على اساس الترضية التامة للجميع .

وفى النهاية يطلب منه ان يهتم بالسفير الدليمى حتى يتمكن من اشتراء بعض الاشياء التى كلفه بها .

ويمكننا مما سبق ان نلاحظ ان تحرير الرسالة ينم عن الصداقة الوثيقة تلك الصداقة التى يعزوها سالمون الى المراسلة التى كانت له معه فى عهد السلطان مولاى محمد بن عبد الله ،

ويرى سالمون نظرا للخصائص المتوفرة فى مولاى عبد السلام انه من المفيد ان يبقى على حسن الاستعداد نحو اسبانيا لان عدم استقرار الحالة بالمغرب يمكن ان يؤدى الى اى حادث يستدعى تدخله (10)

9) انظر الملحق الثالث بالرسالة المذكورة فى التعليق الثانى. وهو موجود فى المجموعتين المشار اليهما.

10) انظر الرسالة المذكورة فى التعليق الثانى .

ولما ورد فى الرسالة التى عثرنـا عليها والموجهـة من سالمون الى «كوندى دى اراندا» (II) اهمية فى هذا الاتجاه لانه يذكر ان مولاى عبد السلام كان يباشر فى ذلك الوقت عدة مساع من اجل وصول اخويه مولاى هشـام ومولاى سليمان الى تسوية سليمة فيما يخص مطامحهما فى عرش المغرب . وهذا امر يبرهن لنا عن الحنكـة السياسية للامير مولاى عبد السلام الذى يتخذ فى هذا الشان موقفا موافقا للرغبة التى طالما عبرت عنها وزارة الدولة الاسبانية مؤكـدة انها سترى بعين الرضـى كل تصالح يتم بين المطالبين الرئيسيين بالعرش ويقوم على تسوية خلافاتهما تسوية سلمية .

ويعتبر ضون خوان كونثالث انه من المناسب ان يجاب مطلب الامير فى هذا الامر ويبعث الى الصويرة بطبيب اسبانى مختص فى امراض العيـون التى يشير اليها مولاى عبد السلام فى رسالته (I2) .

وورد فى آخر رسالة كاردوسو (I3) بخصوص مرض الامير ما يثبت ان هذا الامير قد ذكر له انه وجد فى مسكرة طبيبا كان يتعهد «بمعالجته وازالة الغشاوة عن بصره» اذا هو اقام شهرا عنده. الا ان مولاى هشام لم يستطع قبول هذا العرض لان القافلة التى كان يسافر فيها لم تكن تتوقف طول تلك المدة ولذلك لم يجرب علاجه.

اما الفقرة الاخيرة من الرسالة التى كتبها كاردوسو الى سالمون بامر من مولاى عبد السلام فتتعلق بتسهيل امر اقتناء بعض الاشياء على السفير المغربى .

II) هذه الرسالة مؤرخة كذلك بفاتح يونيه تحت رقم 74 وهى فى المجموعتين 4327 و 4328 من الارشيف التاريخى الوطنى . ويقول نص الرسالة انه توجد بصحبته نسختان لرسالتين اخريين. اما الرسالة الثانية التى تذكر المساعى التى يشير اليها سالمون فى ملحقنا للوثائق ـ الوثيقة الاولى .

I2) انظر الرسالة المذكورة فى التعليق الثانى.

I3) انظر الملحق رقم 4 المذكور فى التعليق السابع.

ولائحـة هذه الاشياء ستورد في ملحق برسالـة وجهها اخوان «تشابى» من الصويرة الى حانوت «بارون دى قادث» (14). ويرى سالمون ان اقتناء ذلك لا يمكن ان يتم الا بعد ان يرخص للسفير بدخول قادس (15).

وقوبل وصول السفير الدليمى الى اسبانيـا باستياء شديد لم يلبث ان اصبح استياء عاما وكان لاسبانيا فى الرباط عميلان سببـت لهما هـذه السفارة مشاكـل خطيرة وهما القائـد ادريس ومسيو «ميـر» خليفة قنصل فرنسا . وقد اضطر الاثنان الى التأكيـد بان الدليمى لن يقبل فى اسبانيا ليتفاديا ايفاد مولاى سليمان لسفير آخر. وقد كان هذا الامير قد عين بالفعل عبد الله بركاس لينتقل الى اسبانيا بوصفه سفيرا له . غير ان القائد ادريس قد اقنع الامير بالعدول عن فكرته هـذه مؤكدا له ان السفير لن يتقابل فى اسبانيا لان المغرب كله لم يعترف بعد بمولاى هشام.

ويعترف القائد ادريس بان محمد الدليمى رجل طيب ويفيد سالمون ببعض المعلومات عن شخصه . ونحن نعرف من قوله انه زار جزءا من اوربا واقام ثمانية اعوام بتونس وانه كان يتكلم الاسبانية بعض الشيء . ولما علم القائد ادريس بوصول السفير الى مرفأ قادس وهو الذى نبه مولاى هشام من قبل الى عدم الفائدة من ايفاد اى سفير الى اسبانيا كتب من جديد الى هذا الامير وقواد جيشه يتأسف عـن مخالفتهم للتعليمات التى اصدرهـا اليهم بضرورة عدم ارسال اى سفير لانه لن يقبل فى اسبانيا. وقد تأسف كذلك من ان مولاى سليمان يستطيع ان يرسل سفيرا آخر فيعود كل ذلك بالضرر على اسبانيا وسمعتهـا. وهو لذلك ينبههم الى ان الدليمى لن يستقبل فى اسبانيا وانه سيضطر الى العودة الى المغرب على متن الباخرة التى اقلته الى قادس دون ان يكون لمولاى هشام وقواد جيشه حق الاحتجاج.

الا ان مشاغل المسيو «مير» والقائد ادريس لم تنته هنا. فبمجرد ما وصل الى الرباط نبأ سفارة محمد الدليمى فى ليلة رابع يونيه ارسل مولاى الطيب اخو مولاى سليمان عبد الله بركاش حاكم الرباط الى دار مسيو «مير» والقائد حمان بوقصيبة الذى كان يسمى نفسه امين سر مـولاى سليمـان وقد استدعوا القائد ادريس فاستمـر اجتماع الاربعة الى منتصف الليل .

---

14) انظر هذه الرسالة فى ملحق الوثائق الذى يصحب هذا البحث ـ الوثيقـة 1.

15) هكذا يذكر فى رسالته رقم 72 ـ انظر التعليق الثانى.

واتهم عبد الله بركاش القائد ادريس بالكذب عند ما اكد له ان اسبانيا لن تعترف بأي سفير الا اذا اعترف القطر كله بأحد الاميرين. ولما كان الدليمي قد ذهب فقد اعرب بركاش عن رغبته في الذهاب عاجلا الى اسبانيا لتنفيذ التعليمات التى اصدرها اليه مولاى سليمان. تلك التعليمات التى لم ينفذها لان القائد ادريس اقنعه بالعدول عنها. وقد اكد «مير» والقائد ادريس ان الدليمي لن يستقبل فى اسبانيا بل انه مضطر الى العودة حالا الى الصويرة . وهكذا اطمأن انصار مولاى سليمان وامكنت تهدئة مولاى الطيب (16)

ورغما عن التأكيدات التى اعطاها «مير» وادريس فان سفير مولاى هشام قد نزل فى قادس . لا بوصفه سفيرا وانما بصفته الشخصية .

وفى اليوم التاسع عشر من يونيه استقبل محمد الدليمي، حاكم قادس وضون خوان منويل ݣونثالث .

وقد سبق ذكر القضايا المتعلقة بالسفارة والتى جرى فيها الحديث بين الدليمي وسالمون خلال اليوم التالى فى كتابنا المشار اليه (17) . الا ان الدليمي قد اثار فى هذا الاجتماع الثانى قضية ايفاد طبيب فى العيون لمعالجة مولاى عبد السلام. ويقول الدليمي ان الامير قد كلفه بهذه القضية من غير اى تقييد بحيث انه يقبل مقدما كل ما قد يتفق عليه مع الطبيب مع العلم بأنه لا يمكن لهذا الطبيب ان يتوغل فى داخل البلاد او يغادر الصويرة الا عند ما يتم شفاء الامير او يصرح باستحالة علاجه فيعود فى هذه الحالة الى اسبانيا .

وكان الدليمي حريصا على تنفيذ هذه المهمة التى كلفه بها مولاى عبد السلام وقد اكد سالمون ان احسن شيء يمكن ان يسدى للامير المذكور هو ان يبعث اليه بالطبيب المذكور سواء كان من مونبلييه او من جهة اخرى على شرط ان يكون خبيرا بمعالجة ذلك النوع من الامراض .

وقد وعد سالمون السفير بأنه سيبذل كل ما فى ميسوره لتلبية طلب الامير. واخبر فعلا «كوندى دى اراندا» بذلك حتى يتخذ التدابير الكفيلة

---

16) انظر رسالة ضون خوان مانويل ݣونثالث سالمون الى كوندى دى اراندا بتاريخ 12 يونيه تحت رقم 80 . وانظر كذلك نسختى الرسالتين اللتين بعثهما مسيو مير والقائد ادريس بتاريخ 4 و 5 من شهر يونيه نفسه وذلك فى المجموعتين 4327 و 4328 من الارشيف التاريخى الوطنى.

17) راجع بحثنا المذكور «سفارة مغربية» فى الصفحتين 14 و 15.

بترضية مولاى عبد السلام اذا رأى ذلك مناسبا (18) وكانت الباخرة الفرنسية التى اقلت السفير المغربى من الصويرة الى قادس مضطرة الى الرجوع، فحسب سالمون ان الدليمى سيستغل هذه السفرة للاتصال بمولاى هشام واخيه مولاى عبد السلام ويبين لهما المصاعب التى نشأت فى طريق القيام بسفارته . وقد وجه الى هذا الامير رسالة مصحوبة بهدية على امل الاحتفاظ بحسن استعداده نحو اسبانيا، وذلك بالنظر الى الفائدة التى يمكن ان تعود على البلاد من صداقته فى اى لحظة بسبب الحالة التى كان يوجد عليها المغرب (19) .

ومستهل الرسالة اخبار بانه توصل من الامير بالرسالة التى ارسلها بواسطة السفير وامضاها دافيد كاردوسو.

وبعد ذلك يخبره بأن مولاى مسلمة عند ما نودى به فى مدن شمال المغرب طلب من المراكب الاسبانية بان تعود الى موانئها فى الوقت الذى اعرب فيه عن رغبته فى ايفاد سفير الى اسبانيا. وفى تلك الفرصة وجهت التعليمات الى حاكم سبتة ليعلم مولاى مسلمة بأن سفيره لن يقبل باى حال.

وبعد مدة قصيرة طلب الامير مولاى سليمان الموافقة على ايفاد سفيره فاجيب على ذلك النحو.

ونبه قصر اسبانيا مولاى هشام الى نفس الامر.

وكان موقف اسبانيا فاصلا فهى صديقة لجميع الامراء المغاربة ومصممة على مراعاة الحياد التام دون ان تتدخل فى الحروب الداخلية للمغرب . وكان الملك حريصا على ان يصفى الاميران الاخوان خلافاتهما فيما بينهما فيصلا الى تسوية ودية للتجزئة الحالية للامبراطورية، اما باقتسامها للقطر ويعترف كل منهما بالاخر واما بالاتفاق على احدهما يعين سلطانا فتتفادى اراقة الدماء ويعاد الامن والهدوء الى القطر المغربى .

وبعد الوصول الى هذه النتيجة يدخل شارل الرابع فى مفاوضات مع الامير الذى يتم الاعتراف به ليعقد معه معاهدة الصلح .

---

18) انظر رسالة ضون خوان مانويل كونثالث سالمون الى كوندى دى اراندا بتاريخ 23 يونيه 1792 رقم 84 فى المجموعتين 4327 و 4328 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة.

19) انظر رسالة سالمون الى كوندى دى اراندا رقم 84 التى وردت فى التعليق السابق.

لهذه الاسبـاب لم يستقبل محمد الدليمي بوصفه سفيرا فى اسبانيا، ومع ذلك فقد سمح له بالنزول فى قادس بصفته الشخصية فعومـل بكـل تقدير واعين على قضاء كل ما كان يحتاج اليه.

اما فيما يخص رغبة مولاى عبد السلام فى ان يبعث طبيبا اليه ليحاول علاج مرض بصره فيقول سالمون انه قد اخبر القصر بذلك لكى يفصل فى امر ايفاد طبيب خبيـر يمكـن للاميـر ان يستعيـد بصـره بفضل معلوماته واسعافاته .

ويخبر سالمون الامير فى نهاية الرسالة بأنه يبعث اليه بمناسبة رجوع الباخرة الفرنسية التى اقلت السفير الدليمى الى الصويرة سيفا مغمدا حسب المعلومات التى بعثها اليه من قبل حاكم طنجة محمد بن عبد المالك بأمر من مولاى عبد السلام . كما بعث اليه هدية متواضعة يرجـوه ان يقبلها كمربون على رغبته فى خدمته وترضيته كلما استطاع (20) .

وفى الوقت الذى وجه فيه سالمون هذه الرسالة الى مولاى عبد السلام وجه رسالة اخرى الى اليهودي دافيد كاردوســو نونييـن . ولهذه الرسالة بالنسبة الينا اهمية تفوق اهمية الرسالة السالفة .

يبدأ سالمون هذه الرسالة مؤكدا تسلمه للرسالتين اللتيـن بعثهـ اليه مع الدليمى. وفى الحين يتعرض لمسائله الخاصـة ورغبته فى التنصر فيقول انه لو استطاع الذهاب الـى اسبانيا بصحبة السفيـر لكانت الفرصة مواتية لتحقيق رغبته .

وعلينا ان ننبه ان اسبانيا كانت تعتبر من امارات قلة التقدير ان يعهد الى اليهود باجراء المفاوضات. وهذا هو ما جعل مولاى هشام فى هذه المرة يؤثر الاستغناء عن كاردوسو لانه كان يعرف موقف اسبانيا فى فرص سابقة . اما الرسائل الذى دفعها الدليمى الى سالمون والممضاة من جانب كاردوسو فقد كتبت فى الصويرة قبل خروجه الى اسبانيا .

---

20) بعث سالمون نسخة من هذه الرسالة الى كوندى دى اراندا مرفوقة برسالة رقم 84. وهذه النسخة موجودة فى المجموعتين المذكورتين فى التعليق رقم 18 .

تثبت فى ملحق الوثائـق ذكر الاشيـاء التى تتكون منها هذه الهدية حسب الوثيقة رقم 2 .

وسالمون يخبره فيما بعد بأنه يجيب مولاى عبد السلام فى الرسالة المرفقة . ولما كان يتوقع ان كاردوسو هو الذى سيكلف بترجمتها للامير فهو يرجوه ان يحسن الترجمة حتى يستطيع الامير ان يتفهم بكل دقة الدواعى التى ارغمت اسبانيا على عدم قبول السفير. وبعد ذلك يكلف بأن يستعمل نفوذه لدى مولاى عبد السلام حتى يضغط هذا على مولاى هشام ويحمله على مغادرة مراكش والتوجه الى الرباط للحصول على اعتراف تلك المقاطعات او للوصول الى تسوية ودية مع اخيه الامير مولاى سليمان . وبذلك يخرج المغرب من الفوضى التى يوجد فيها . «والا فكيف يريد اولئك الناس ان تدخل اسبانيا معهم فى المفاوضات ؟» .

ويعد سالمون بأنه سيعمل فى اسبانيا كل ما فى مقدوره لتنفيذ رغبات الامير. الا انه يتعين لذلك ان يصل مولاى هشام الى اتفاق مع اخيه مولاى سليمان او يخضع القطر كله لطاعته.

وفى نفس المركب الذى حمل هذه الرسالة بعث سالمون الى كاردوسو هدية متواضعة هى عبارة عن علبة من الشاى وثلاثة قوالب من السكر وثمانى لبرات من الشكولاته. وكل هذا فى صندوق صغير وضع عليه الحرفان الاولان من اسم دافيد كاردوسو. كما ارسل اليه برميلا صغيرا من خمر مالقة لاستهلاكه الخاص . وهو ينبهه الى انه يبعث الى الامير صندوقا وضعت عليه علامة (الحرف الاول من كلمة الامير) ويحتوى على سيف وعدة اشياء اخرى. اما مفتاح الصندوق فهو بداخل الكتاب الموجه الى مولاى عبد السلام.

وهناك فقرة اخيرة لا تتعلق بهذه المواضيع وليست لها اهمية بالنسبة لمقصدنا ثم جملة ملحقة بعد تاريخ الرسالة يخبر فيها بأنه توصل اخيرا برسالة اخرى من كاردوسو مصحوبة برسالة اخرى الى الدليمى يقول انه سلمها اليه فى الحال (21).

اما رسالة كاردوسو التى يشار اليها فى هذه الجملة الملحقة فهى محررة بأمر من مولاى عبد السلام. وهى اعادة للعبارات الواردة فى الرسالة التى دفعها الدليمى عند ما وصل الى مرفأ قادس (22).

---

21) نسخة هذه الرسالة توجد كذلك ملحقة برسالة سالمون رقم 84. وهى مذكورة فى التعليق رقم 18 وموجودة فى المجموعتين المذكورتين .

22) بعث سالمون هذه الرسالة الملحقة الى كوندى دى اراندا بصحبة رسالته اليه رقم 85 وهى مؤرخة باليوم 22 من يونيه وتوجد فى المجموعتين 4327 و 4328 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة.

وبعث كاردوسو مع رسالته هذه رسالة قصيرة اخرى يقول فيها ان الصويرة تتمتع بهدوء تام ونشاط في التجارة وحكومة صالحة واحترام مطلق لجميع الاشخاص . وقيمة هذه الاخبار نسبية ليس الا (23) .

وامر شارل الرابع اواسط يوليه بأن يجاب مطلب مولاى عبد السلام وذلك بان يبعث اليه طبيب في العيون لمعالجته من المرض الذى الم به. وهو فى هذا الامر يصدر تعليمات الى سالمون ليبحث فى قادس عن ذلك الطبيب فيرسله الى الصويرة بعد الاتفاق مع محمد الدليمي الذى كان قد عزم آنذاك على العودة الى المغرب دون ان يقوم بالمهمة التى عهد بها اليه مولاى هشام لدى قصر اسبانيا (24).

وتهيأ سالمون لتنفيذ تلك التعليمات فباشر البحث من غير جدوى لان الطبيب الوحيد الذى يوجد فى المدينة حسب ما يقال يمتنع من الذهاب الى المغرب . ويعد سالمون بمواصلة مجهوداته لحمل هذا الطبيب على الذهاب الى الصويرة او ليجد طبيبا آخر يكون مستعدا لذلك السفر.

ويخبر سالمون السفير المغربــى بالمساعى المبذولة لترضية مطلب الامير . واعرب الدليمى عن رغبته فى ان يذكر كل هذا للامير (25).

وفى 30 يوليه خرج السفير المغربى محمد الدليمى من قادس عائدا الى بلاده حاملا معه رسالة موجهة من ضون مانويل كونثالث سالمون الــى الامير مولاى عبد السلام وهذه الرسالة كسابقتها تشرح (26) الاسباب التى حالت بين اسبانيا واستقبال الدليمى بوصفه سفيرا. ويقول سالمون ان الملك قد استجاب الى طلب الامير ببعث طبيب فى العيون لمعالجته. الا انه لم

23) توجد هذه الرسالة فى الارشيف التاريخى الوطنى للدولة ـ المجموعة رقم 4327 ملحقة برسالــة سالمون الى كوندى دى اراندا رقم 85 وبتاريخ 22 يونيه.

24) انظر رسالة كوندى دى اراندا الى سالمون وهى محررة فى مدريد بتاريخ 17 يونيــه 1792. وتوجـد فــى المجموعتيــن 4327 و 4328 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة.

25) رسالة سالمون الى كونـدى دى اراندا بتاريخ 27 يوليه رقم 99 فى المجموعتين 4327 و 4328 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة .

26) هذه الرسالة السابقة مؤرخة باليوم 29 يونيه التى شرحناها شرحا مستفيضا فى الصفحتين السادسة عشرة والسابعة عشرة.

يعثر في قادس على اى طبيب . وهو ما يجعل السفير يعود بدونه غير ان سالمون لا يزال مكلفا بالبحث عن شخص مقتدر سواء في قادس او في غيرها من اطراف البلاد يرسله بمجرد العثور عليه (27). وابتداء من هذه اللحظة لم نجد اية اشارة جديدة حول ايفاد طبيب العيون ولا الى الاشياء التي كان يتعين على الدليمي ان يشتريها في قادس.

وبعد ذهاب الدليمي توصل سالمون برسالة من كاردوسو ينفذ فيها امر مولاى عبد السلام وهو في هذه الرسالة يخبره بانه توصل بكتاب سالمون اليه المؤرخ بعشري يونيه ويقول انه ترجم الرسالة للامير كلمة كلمة وان «كاتبا من ثقاة صاحب السمو قد سجل التعريب. ويقول الامير في جوابه «ان رغباتك كلها ستنفذ في اجل شهر» وانه يتعين البقاء على الدليمي في قادس الى ان يتسلم امرا جديدا. وهو يعرب عن شكره لسالمون على الهدية التي ارسلها اليه ويقول انه تسلمها بكامل السرور والارتياح وفق ما جاء في المكتوب (28) .

وأول سالمون كلمات مولاى عبد السلام حول ترضية جميع رغباته في ظرف شهر بانه سيتم الاعتراف بمولاى هشام سلطانا على المغرب كله داخل ذلك الاجل .

اما فيما يتعلق بالامر الى الدليمي بالبقاء في قادس الى اعلام جديد فيعتبر سالمون انه لما كان السفير قد خرج متأثرا ومقتنعا بان حالة المغرب تستوجب عودته بكيفية مطلقة فانه سيقوم بابادة كل سوء تفاهم يمكن ان يترتب عن عودته (29).

---

27) بعث سالمون بنسخة من هذه الرسالة الى كوندى دى اراندا بصحبة رسالته اليه بتاريخ 31 يوليه رقم 101؛ وهى توجد في المجموعتين 4327 و 4328 من الارشيف التاريخي الوطني للدولة.

28) انظر رسالة دافيد كاردوسو الى ضون خوان مانويل كونثالث سالمون المحررةفي الصويرة بتاريخ 3 يوليه، ملحقة برسالة سالمون الى كوندى دى اراندا بتاريخ 14 اغسطس 1792 رقم 110 من المجموعة 4327 من الارشيف التاريخي الوطني للدولة.

29) انظر رسالة سالمون الى كوندى دى اراندا بتاريخ 14 اغسطس 1792 رقم 110 في المجموعتين 4327 و 4328 من الارشيف التاريخي الوطني للدولة.

وقد قلنا عند دراستنا لسفارة الدليمي ان هذا السفير قد عزم على النزول في العرائش والخضوع للامير مولاي سليمان (30) وقد كتب الدليمي بالفعل رسالة الى سالمون حررها في العرائش بتاريخ 18 اغسطس. وهو يخبره فيها بحوادث السفر منذ خروجه من قادس وعزمه على النزول في العرائش (31) . وقد اشرنا في دراستنا المذكورة لانفصال القنصل الاسباني عند ما تلقى هذه الرسالة وللمخاوف التي اعرب عنها الكوندي دي اراندا لانه كان يتوقع ان يظن مولاي هشام ان اسبانيا هي التي حملت الدليمي على اتيان ذلك العمل . كما اشرنا الى ان مولاي سليمان قد احسن وفادة الدليمي عند وصوله الى العرائش وانه اصدر اليه الامر بالتوجه الى فاس (32) .

وبعد ذلك وجدنا ذكرا قصيرا ورد على سالمون من طنجة مفاده ان الدليمي قد وصل الى فاس في الرابع والعشرين او الخامس والعشرين من اغسطس دون ان يعرف شيئا عن استقبال مولاي سليمان له ولا عما دار من حديث بينهما حول اسبانيا (33).

وفي تلك الايام توصل سالمون بكتاب من «مير» محرر في الرباط بتاريخ 30 اغسطس يقول له فيه انه حريص على معرفة رد فعل انصار مولاي هشام عند ما علموا بأن الدليمي قد نزل في الاراضي الخاضعة لمولاي سليمان

وأراد مير ان يستغل فرصة رجوع الدليمي من قادس دون السماح له بالذهاب الي مدريد ولا بتخويله اعتبار السفير ليبرهن على نوايا اسبانيا في التزام الحياد التام بعدم مساعدة احد الجانبين او الاضرار بالجانب الآخر

---

30) وفقا لبحثنا المذكور «سفارة مغربية» صفحة 22 .

31) توجد من هذه الرسالة في الارشيف الوطني للدولة بالمجموعتين 4327 و 4828 ترجمة قام بها ضون مانويل گونثالث سالمون ملحقة بالرسالة رقم 117 المحررة بتاريخ 26 اغسطس. ويقول سالمون في هذه الرسالة انه قام بهذه الترجمة لان الاصل غير صحيح لا في النص الاسباني ولا الايطالي. وقد اثبتناها في ملحق الوثائق نظرا لاهميتها ــ الوثيقة رقم 3

32) وفق بحثنا «سفارة مغربية » صفحة 22.

33) انظر رسالة ضون خوان مانويل گونثالث سالمون بتاريخ فاتح شتمبر ملحقة برسالة سالمون الى كوندي دي اراندا رقم 120 والمحررة بتاريخ 7 شتمبر نفسه، وذلك في المجموعتين 4327 و 4328 من الارشيف التاريخي الوطني للدولة.

واكد للسلطات المغربية انه لو ذهب الى اسبانيا سفير آخر من طرف مولاى سليمان او غيره من المطالبين بالملك لما قوبل بصفة رسمية ولعومل بنفس المعاملة التى تلقاها الدليمى .

ويقول مير انه قد سئل بالحاح عن الداعى الذى حمل محمد الدليمى على النزول بالاراضى الخاضعة لمولاى سليمان. وقد اجاب خليفة القنصل الفرنسى على هذه الاسئلة بلباقة فقال ان السبب هو تخوف الدليمى من ان يستقبل استقبالا سيئا من طرف مولاى هشام امام فشله التام فى المهمة التى عهد به اليه.

ثم يقول مير انه يجهل تاثير نزول الدليمى بالعرائش فى مولاى هشام وهو يظن ان الدليمى ربما كتب الى احد اصدقائه بمراكش يبرر له عمله، ولو انه يعتقد ان قصد الدليمى هو الاجتماع باقاربه المقيمين بقبيلة مجاورة لمكناس وامله فى ان يجد عند مولاى سليمان حظوة تفوق حظوته عند مولاى هشام (34) .

ولتعزيز موقف اسبانيا الذى عرضه مير على انصار مولاى هشام والقضاء فى نفس الوقت على الشائعة القائلة بان اسبانيا قد اثرت فى الدليمى، كتب سالمون الى دافيد كاردوسو رسالة يعرب له فيها عن استغرابه واندهاشه لخبر نزول الدليمى فى العرائش لان نزوله لا يرجع الى رياح معاكسة اجبرت المركب على اللجوء بالثغر وانما كان بارادة من الدليمى الذى تاثر بالاخبار التى وردت عليه فى تلك الميناء حول الحالة التى يوجد عليها كل من مولاى سليمان ومولاى هشام.

وسالمون يخبر كاردوسو بشروط العقد المبرم مع ربان المركب الفرنسى «روفليكسيف» الذى كان يقل السفير فذلك العقد ينص على ان ربان المركب يتعين عليه ان يحمل الدليمى وحاشيته ومتاعه بكيفية مباشرة الى كل من موانىء الجديدة وآسفى والصويرة ويكون من حق الدليمى ان يختار احدى تلك الموانىء لنزوله . لذلك فمسؤولية نزوله بالعرائش انما تقع على الدليمى نفسه .

---

34) انظر رسالة مير الى سالمون بتاريخ 30 اغسطس الملحقة برسالة سالمون الى كوندى دى اراندا بتاريخ 7 سبتمبر – رقم 121 فى المجموعة 4327 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة.

وطلب القنصل الاسباني من كاردوسو ان يطلع الامير مولاى عبد السلام على فحوى الرسالة وينشره بين الناس حتى يعلموا الحقيقة كلهم فلا يتعكر صفاء نوايا اسبانيا، ولما كان المركب المذكور قد تابع سيره الى احدى الموانىء المشار اليها بنية وسق السلع على حساب الشركة فقد بعث سالمون ربان المركب ليشهد بصحة جميع ما ورد في الرسالة (35).

وبعد بعث هذه الرسالة تسلم سالمون رسالة اخرى من كاردوسو باسم مولاى عبد السلام واخرى باسمه الخاص. اما الرسالة الاولى فمؤرخة برابع وعشرى اغسطس ولا تذكر اى شىء عن سفارة الدليمى.

واما الرسالة الثانية فتحتوى على فكرة يقول فيها كاردوسو انه لم يكن هناك اى سبب لايقاف السفير فى اسبانيا وان الاوامر المتعلقة برجوعه قد صدرت الى قادس منذ مدة حسبما قال له الامير مولاى عبد السلام. ثم يقول كاردوسو ان نبأ خروج الدليمى من قادس قد راج دون ان يرى له اثر بعد (36) ولم يكن فى هذا الوقت الذى قد وصل فيه الى الصويرة ما يثبت نزول الدليمى بالعرائش. وتقول هذه الرسائل ان مولاى عبد السلام قد ذهب الى «سانطا كروث».

وفى رسالة للقائد ادريس بتاريخ 14 سبتمبر توجد اشارة الى ان مولاى عبد السلام قد ترك فى الصويرة امرا بتوجه محمد الدليمى الى الاجتماع به فى سوس بمجرد وصوله بدلا من الذهاب الى مراكش ليخبر مولاى هشام بنبأ سفارته (37) .

---

35) انظر رسالة سالمون الى كاردوسو بتاريخ 7 سبتمبر الملحقة برسالة سالمون الى كوندى دى اراندا بنفس التاريخ ـ المجموعة 4327 رقم 22 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة.

36) هذه الرسالة محررة فى الصويرة بتاريخ 29 أغسطس وهى توجد فى المجموعة 4327 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة ملحقة برسالة سالمون الى كوندى دى اراندا رقم 124 بتاريخ 21 سبتمبر.

37) انظر رسالة القائد ادريس الى سالمون المحررة فى الجديدة بتاريخ 14 سبتمبر رقم 124 . ملحقة برسالة سالمون الى كوندى دى اراندا بتاريخ 28 من الشهر نفسه. رقم 125 فى الارشيف التاريخى الوطنى للدولة ـ المجموعة رقم 4327.

وفي اوائل اكتوبر يرد خبر من طنجة عن الدليمي يفيد ان السفير موجود بفاس وان مولاى سليمان يرعاه وهو على الدوام فى صحبته وان كان لا يحظى باى وظيف (38).

وفي اليوم العاشر من اكتوبر نفسه يتسلم سالمون كتابا غفلا بواسطة مركب جنوى قدم من الصويرة وآسفى.

ويقول صاحب هذه الرسالة لسالمون بشأن السفير المغربى ان مولاى هشام وجميع اهل القصر قد استاءوا كثيرا لعدم اهتمام اسبانيا بمحمد الدليمى وانهم كانوا يعتبرون ان اسبانيا لن ترفض لهم ما يمكن ان يساعدهم خصوصا وانهم هم الذين هزموا مولاى اليزيد عدو الاسبانيين اللدود. ويرى سالمون أن الرسالة ربما كانت واردة من اليهودى دافيد كاردوسو. ولما كان القائد ادريس قد فر من المغرب ويوجد فى مرفأ الجزيرة الخضراء فقد استشار معه في الامر . فقال له ادريس انه لو رأى الرسالة لتعرف على الخط في الغالب ، اما فيما يعود لمضمون الرسالة فرأى غير صائب لان مولاى هشام وكبار حاشية القصر غير مستائين بل ان هؤلاء لم يكن لهم اى دخل فى ايفاد السفير، وكانوا يرغبون فى وقوعه بين ايديهم لانزال العقاب به، ويرى القائد ادريس ان مجرد التجاء محمد الدليمى وطلبه حماية مولاى سليمان برهان كاف على عكس ما ورد فى الرسالة (39).

وفي اواخر اكتوبر بعث سالمون الى كوندى دى اراندا رسالة لخليفة القنصل الفرنسى بالرباط «مير» مؤرخة باليوم الثالث من الشهر نفسه . وهذه الرسالة تشتمل على فقرة تذكر التأثير الذى احدثه نزول الدليمى فى العرائش، ويقول مير ان هذا النزول لم يحدث الا تأثيرا مؤقتا وان جميع الناس يسالونه عما اذا كانت لاسبانيا مساهمة فى سلوك الدليمى هذا وكان مير على علم بعقد ابحار المركب وشروطه فاذاع كل ذلك بحيث لم يعد احد يتحدث.

---

38) انظر رسالة ضون خوان مانويل كونثالث سالمون بتاريخ 30 سبتمبر الملحقة برسالة سالمون الى كوندى دى اراندا بتاريخ 9 اكتوبر رقم 128 فى المجموعة 4327 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة. اما رسالة سالمون التى يرد فيها هذا الخبر فهى فى المجموعة 4328.

39) ان الكتاب الغفل ورسالة القائد ادريس بتاريخ 15 اكتوبر يوجدان ملحقين برسالة سالمون الى كوندى دى اراندا بتاريخ 26 اكتوبر رقم 130 ـ المجموعتان 4327 و 4328 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة.

وهو يعد بالاجابة على ذلك النحو كلما وجهت اليه اسئلة اخرى ويقول لسالمون انه في امكانه ان يتاكد من ان كل الناس مقتنعون بأن اسبانيا قد حافظت على حيادها. وهذا امر يعيده مير على رؤوس الاشهاد في جميع المناسبات (40).

وفي اليوم الرابع والعشرين من اكتوبر كتب محمد الدليمي نفسه الى سالمون يؤكد له ارسال كتابين سابقين دون أن يكون قد تلقى اى جواب عنهما ويورد الدليمي في هذه الرسالة سلسلة من الاخبار المتعلقة بنشاط مولاى سليمان. غير انه لا يشير الى سفارته الا عرضا (41) .

وقد اجاب سالمون برسالة اخرى اكد له فيها موقف اسبانيا الذي هو موقف الحياد ازاء مختلف الامراء المطالبين بعرش المغرب. وان اسبانيا غير مسؤولة قطعا عن نزول سفير مولاى هشام بميناء العرائش الخاضعة لمولاى سليمان (42).

اما القائد ادريس الذي فر من المغرب واخذ يسمى نفسه «فوناس فرنسيسكو سيجرين» فقد حرر تقريرا عن الحالة السياسية للمغرب.

وهو يقول في هذا التقرير المؤرخ بخامس نوفمبر ان مولاى هشام ورؤساء جيشه يتهمونه الآن ويجعلونه مسؤولا عن قرار الدليمي الغادر لانهم الحوا في ايفاد السفير المذكو الى آسفي ليخبر بالاوامر التي حصل عليها خلسة من مولاى هشام بوصفه سفيرا بدون اى علم لا من الرؤساء ولا من

---

40) رسالة مير الى سالمون توجد ملحقة برسالة سالمون الى كوندى دى اراندا بتاريخ 26 اكتوبر. رقم 134 في الارشيف التاريخي الوطني للدولة ــ المجموعتان 4327 و 4328.

41) هذه الرسالة توجد ملحقة برسالة سالمون الى كوندى دى اراندا بتاريخ 20 نوفمبر رقم 141 المجموعة 4327 من الارشيف التاريخي الوطني للدولة.

42) جواب سالمون بتاريخ 19 نوفمبر يوجد ملحقا برسالة سالمون الى كوندى دى اراندا بتاريخ 20 نوفمبر رقم 141 المجموعتان 4327 و 4328 من الارشيف التاريخي الوطني للدولة. وقد ادرجناها في ملحقنا التاريخي لتلخص موقف اسبانيا ــ الوثيقة الرابعة.

مولاى هشام نفسه؛ لان هذا لم يسمح له الا بالذهاب للعناية بشؤون اخيه مولاى عبد السلام (43).

وآخر اشارة لسفارة الدليمى نجدها فى الرسالة التى وجهها اليهودى كاردوسو من سانطا كروث دي بربرة بتاريخ 3 اكتوبر الى سالمون يخبره بأنه تلقـى رسالتـه المؤرخة بثلاثين سبتمبر والتى اطلع عليها مولاى عبد السلام فى الحين ويقول كاردوسو بصدد سفارة الدليمى ان الامير قد بقى مشدوها من المعاملة التى لقيها السفير المغربى . وهو لا يأتى بأى ايضاح؛ ولا يمكن الا ان نفترض ان مولاى عبد السلام كان ينتظر ان يقابل الدليمى بوصفه سفيرا وان يجاب طلبه الى تأخير رجوع السفير الى المغرب حتى يصدر امر جديد بذلك (44) .

والمعلومات الجديدة التى ذكرناها اخيرا عن سفارة الدليمى تسمح لنا بأن نستنتج ان السفير كان فيما يظهر يمثـل الامير مولاى عبد السلام اكثر مما يمثل اخاه مولاى هشام. فالرسائل التى اظهرها فى اسبانيا محررة بأمر من مولاى عبد السلام والتكاليف التى حمل بها هى فيما نعلم تكاليف هذا الامير. لذلك فليس من المستبعد ان ينتظر كبار قواد مولاى هشام رجـــوع الدليمى لمعاقبته. ويدل على ذلك ايضا الامر الذى تركه مولاى عبد السلام بتوجه الدليمى عند وصولـه للصويرة الى سانطـا كروث ليجتمع به بدلا من الذهاب الى مولاى هشام ليخبره بسفارته. وهذا الحرص على ان يكون هو اول من يستمع الى وصف الدليمى لسفارته يجعلنا نظن ان مولاى عبد السلام ربما كان هو الذى اوفد السفير تحت مسؤوليته الخاصة، بل انه من الممكن ان يكون مولاى عبد السلام قد حاول بهذه الطريقة اجبار اسبانيا على الخروج من حيادها وارغامها على تقديم العون لمولاى هشام لانـه ما كان ليتوقع ان يحظر الوصول الى القصر الاسبانى على سفير موفد من مطالـب بالعـرش تحمل تكاليف الحملة على مولاى اليزيد .

---

43) بعث سالمون بهـذا التقرير مع الملاحظات التى رآها مناسبة الى وزير العدلية الجديد «دوكى دى لا الكوديا» مع رسالته رقم 147 المؤرخ بالحادى عشر من ديسمبر. انظر المجموعة رقم 4327 فى الارشيف التاريخى الوطنى للدولة.

ومن هذا نستنتج ان موقف محمد الدليمي واستغلالـه فرصة النزول في العرائش والدخول في خدمة مولاى سليمان وان كانت خيانـة للثقة التي وضعها فيه مولاى هشـام ربما كان له ما يبـرره تمام التبرير بسبـب فشل ارساله له بل بسبب عدم مشروعية سفارته، لانه كان في استطاعته ان يبرر فشله لو كان الامر بمغادرة اسبانيا صدر اليه من مولاى هشام. الا انه اذا كانت الاوامر صادرة عن مولاى عبد السلام فالغالب انه قد توقع الموقف الصعب الذى سيجد نفسه فيه عند الرجوع الى الصويرة. واذا اضفنا الى هـذا أن اسرته كانت توجد في الارض الخاضعة لمولاى سليمان تعين علينا ان نعترف بان مصالحه كلها كانت تدفعه عند رجوعـه من اسبانيا الى ذلك الجزء من المغرب الذى يعترف فيه بسيادة السلطان المقبل. والغـلط في كل حال صـادر عن مولاى هشام او مـولاى عبد السلام بارساله في مهمة يستحيل القيام بها ما لم تخرج اسبانيا عن حيادها . ولو زوده بالتعليمات الضرورية في هذه الحالة لاستطاع الرجـوع الى الصويرة دون ان يـرى نفسه مهددا بأى خطر .

ميكيل طراديل ماطيو

عند نهاية حملة الحفريات سنة 1950 جلبت الى «المتحف الاثرى» لتطوان مع مواد اخرى قادمة من لكسوس مجموعتان برونزيتان تمثل اولاهما كفاح هرقل ضد «انتيو» وتمثل الثانية صراع «تيسيو» ضد «مينوتاورو». ويغلب على الظن ان المجموعتين كانتا تشكلان جزءا من وحدة تجميلية نظرا لتساوى حجمهما وتشابه موضوعهما. ومع ان خبرهما قد اذيع لاول مرة (1) فان المجموعتين لم تكونا هدفا لاى دراسة مستفيضة كالتى نجريها الآن لاول مرة.

I

وصف القطع

هرقل وانتيو

يمثل الشخصان كرجلين بلغا اشدهما ولكل منهما لحية واضلاع قوية وقد اشتبكت يداهما فى الصراع وحمل احدهما على الآخر. ويمكن ان تعتبر هذه المجموعة مجرد تشخيص للصراع الرياضى دون اى خاصية ميتولوجية لولا النبل الذى ينم عنه وجهاهما. ذلك النبل الذى يتنافى مع المظهر الذى اعتاد الاقدمون تشخيص مصارعى السيرك عليه. وكذلك مع السن المتقدمة للشخصين الامر الذى يحملنا على ربط هذه المجموعة بمجموعات اخرى معروفة فى نفس هذا الموضوع.

اما هيئة هرقل فيبلغ طولها من اعلى الرأس الى طرف القدم الممدودة واحدا وثلاثين سنتيمترا وهى مقاييس تعادل مقاييس انتيو.

وهرقل هو فى القسم الاعلى من المجموعة ويظهر وقد تغلب على خصمه بحيث يقع جسمه على جسمه وركز فخذه اليمنى فى القسم الجانبى الاسفل

---

(1) قد نشرت بعض ملاحظات عن الاكتشاف فى مجلات مختلفة اسبانية لعلم الآثار واول تلك الملاحظات كانت بقلم م. طراديل تحت عنوان:
Las últimas investigaciones sobre los romanos en el norte de Marruecos.
فى مجلة «Zephyrus» بصلمنقة العدد الاول (1950) ص 29 وما بعدها مع صورة لتمثال «هرقل» و«أنتيو» وفى المجلة الدولية «Fasti Archaeologicio» التى تصدر بمدينة «فلورينسة» العدد الخامس (1950) (1952) ص 390 — 391 ثم رددت صدى هذا الاكتشاف الصحافة المغربية والصحيفة «Le Figaro» الباريسية.

من ظهر انتيو وفخذه اليسرى في حين انه يقبض بيده اليمنى بشدة على الساعد الايمن للمغلوب ويقبض ساعده الآخر من مرفقه. ووثقل هرقل كله يقع على انتيو . بحيث ان رجله اليمنى واقعة عليه كما مر وصفه والرجل اليسرى لا تصل الى الارض. وراسه القوى يتوجه نحو راس الخصم فينظر اليه نظرة من يبذل مجهودا كبيرا دون ان يفقد هدوءه ورباطة جأشه.

ويظهر انتيو تحته وهو يحاول بجهد يفوق الطاقة البشرية الافلات من قبضة خصمه فهو يتحمل ثقله وثقل خصمه مرتكزا على ركبته ورجله اليمنى وقد انثنت على الارض بينما توجد رجله الأخرى في هيئة موازية لرجل خصمه وابهامه يمس الارض اما الساعد الايسر فيتوجه الى فوق وقد تغلب عليه هرقل وهو يقبض بيده المطوقة على يد الخصم يريد ان يتحرر منه ويقبض خصمه على ساعده الايسر من مرفقه وهو الى اسفل وان رأسه الذى هو رأس شيخ ذو ملامح لا تخلو من النبل متجه بعض الشىء الى فوق وينم فى جانبه الايسر عن الم شديد .

وكلاهما عار بكيفية تامة الا ما كان من ثوب يحيط براس انتيو.

اما القيمة الفنية للقطعة فهى حقا جيدة. وان تدقيق نحت الرأسين وتناسب الاطراف وبروز الاضلاع تنم عن اتقان العمل وانه اقتداء بنحت آخرمن الدرجة الاولى. ونعرض لهذه القضية فيما بعد بتفصيل كبير. وعلى كل حال فيتعين علينا ان لا ننسى مكان التزيين منها وانها نسخة متسلسلة ولو انها تشكل جزءا من انتاج راق .

والشىء الذى يظهر هذه الخاصية هو لبعض مظاهر النقص الذى يفاجئنا فى قطعة فنية من هذه الدرجة . وابرزها نحت الايدى وخاصة اليد اليسرى لهرقل واليد اليمنى لانتيو اللتين تتجلى فيهما خشونة النحت بالاصابع التى تزيد نسبتها على النسبة المطلوبة .

اما حالة الاحتفاظ فحسنة. والتلف الوحيد الهام هو انكسار الرجل اليسرى لانتيو. الا ان جمع الاجزاء باتقان قد اعاد الرجل الى حالتها الاصلية. وان البرونز قد احتفظ بطبقة خضراء جميلة دكناء بعد التنظيف الذى تم بسهولة .

تيسيو ومينوتاورو

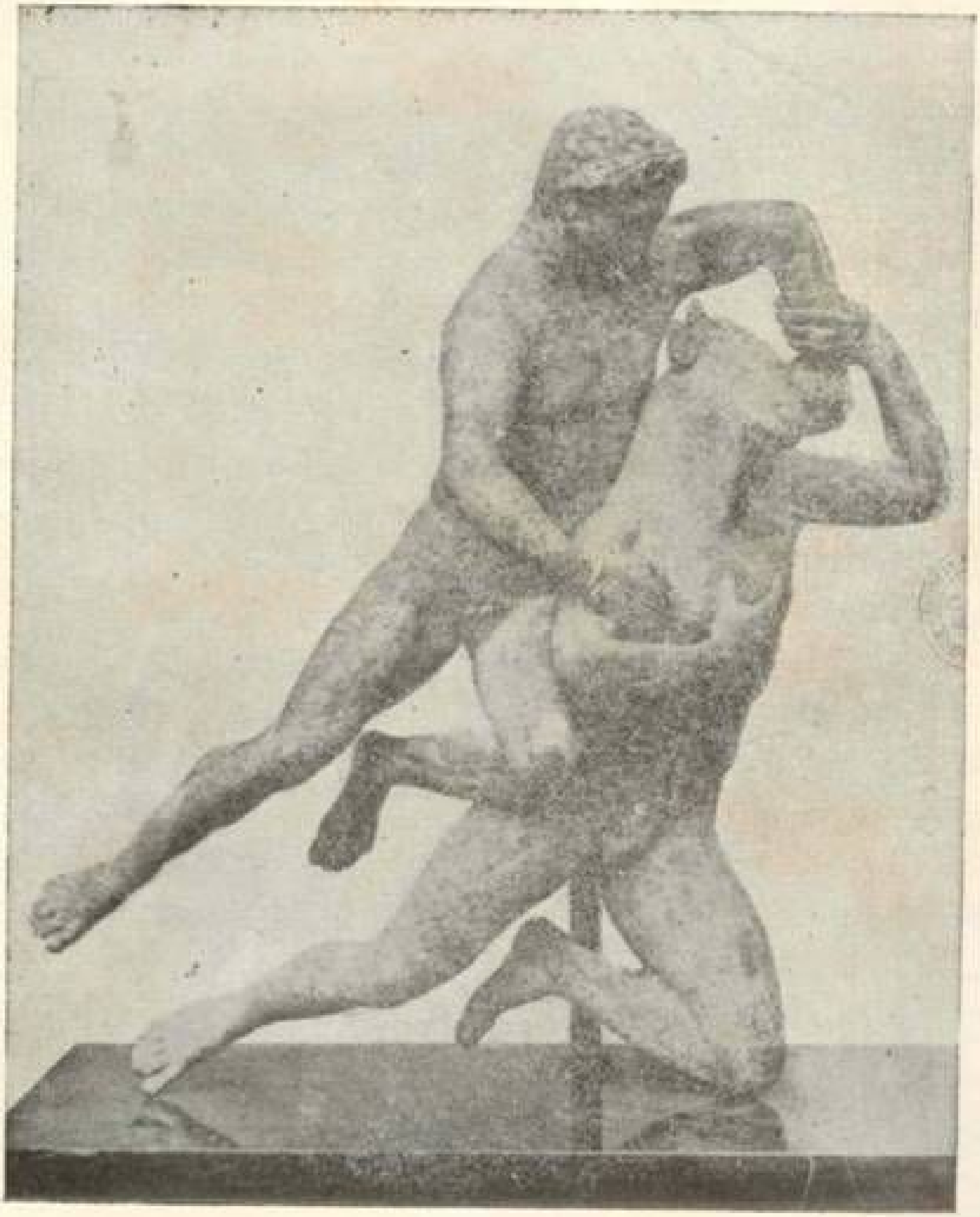
ان وضع الهيئتين فى هذه المجموعة شبيه بوضعهما فى المجموعة السابقة كما اشرنا الى ذلك من قبل فالغالب هنا يسيطر على المينوتاورو ويرتكز عليه.



اللوحة الاولى تمثل « هيركوليس » و « انتيو » (الكسوس)
(المتحف الاثرى بتطوان)



اللوحة الثانية تمثل « تيسيو » و« والمينوطاورو » (اللكسوس)
(المتحف الاثرى بتطوان)



اللوحة الثالثة تمثل « تيسيو »و« والمينوطاورو » (أفروديسيك)
(متحـف برليـن)



اللوحة الرابعة تمثل الجانب الخلفى لمجموعة « تسيو »
و « والمينوطاورو » (متحف برنين)

ومقياس تيسيو من اعلى الرأس الى طرف القديـم الممـدودة اربعـة وثلاثون سنتيمترا. اما المقياس العمودى من نفس تلـك النقطة الى القاعدة فواحد وثلاثون.

ويشخص تيسيو كرجل شاب ذي ملامح عادية قوية وهو يضغط بركبته والقسم الاسفل من فخذه اليسرى على الفخذ اليمنى للغول فى الوقت الذى يقبض فيه بيديه على قرنيه.

اما المنوتاورو فيرتكز على الارض بركبة رجله اليسرى وعلى الابهام من رجله اليمنى الممتدة ويحتمل ثقل خصمه وهو يحاول الدفاع عن نفسه بالقبض بيده اليسرى على ساعـد الغالـب الذى يقبض علـى قرنه الايسر ويطلق ساعده الايمن الى الوراء فى وضع غير مجبور عليه بل مخالف للطبيعة كما لو كان يحاول بيده المفتوحة قبض رجل تيسيو (سنعود الى هذا الموضوع فيما بعد).

ورأس المينوتاورو ذو اهمية خاصة اذ له شكل بشرى لا حيوانى كما هو المالوف فى الوصف الاتباعى للصور والتماثيل. والمميزان الخصوصيان هما الاذنان والقرنان. ولولا هذان المميزان لما امكن التعرف عليه لان الوجه لاينم عن اى تعبير حيوانى، بل انه على العكس يشخص رجلا شابا ذا مظهر طبيعى تام ومع ذلك فالعنق غير بشرى بصفـة تامـة، ومـا كنا لندرك تأويل هـذا المظهر لو كنا نجهل تطور الهيكل. وما من شك فى ان النحات قد استرشد بتمثال بدائى للمينوتاورو فجعل له رأسا بشريا ، الا ان الفنان الذى اجرى الاستبدال قد نسى اصلاح العنق فكان ذلك سبب هذا الشذوذ.

وكلاهما عار كما فى المجموعة السابقة ويحيط برأس تيسيو ثوب كما رأينا فى رأس انتيو .

اما درجة الاحتفاظ فهى اقل من درجة المجموعة السابقة وان كانت جيدة، فان القسم الاكبر من الرجل اليسرى ينقص تيسيو وينقص المينوتاورو رأسا قرنيه اللذان اصابهما التلف لدقتهما. وان فعل النار ظاهر على القسم الاكبر من الهيئتين وخاصة الرجلين. ونفس الشىء نلاحظه فى وجه تيسيو ففقد بذلك جزءا من جماله. وله مظهر غريب من بعض وجهات النظر ورغم ذلك كله نستطيع ان نقول اننا نملك القطعة فى ظروف لا تبتعد بهـا كثيرا عن الظروف التى صهرت فيها . ولهذه المجموعة غشاوة خضراء تقل جمالا ودقة عن خضـرة المجموعة السابقة .

خـواص المجمـوعتيـن

وكلتا المجموعتين مصهـورة فى قطعـة واحدة باستثناء الساعديـن . فالساعد الايمن لكل من هرقل وانتيو والساعد الايمن لتيسيو والمينوتاورو مصهور كل منهما على حدة فى حين ان الساعد الايمن لهرقل وانتيو والساعد الايسر لتيسيو والمينوتاورو اللذين يجمع بينهما اليدان يشكلان وحدة من حيث الصهر. وفى خط الالتئام بين الجسمين توجد زاوية تكفل توحيد القطع وجعلها على غاية ما يمكن من المتانة.

وهذا الالتئام لا يترك الشك فى ان الساعد الايمن للمينوتاورو عند ما اجريت عملية التحامه فى معمل الاصلاح بالمتحف قد اضطر الى اجرائه على تلك الزاوية لان وضعه لا يستقيم من الناحية التكوينية للهيكل والغالب على الظن ان ذلك جاء نتيجة لنقص فى عملية الصهر فتحول موضع الالتحام عن مكانه واتخذ ذلك الوضع الغير طبيعى. اللهم اذا كان هناك قصد فى تشويه اعادة بناء المجموعة .

ولكل من هرقل والمينوتاورو ثقبة مستطيلة فى ظهره فهى فى المجموعة الاولى تبلغ 2 × 16 سنتيمترا. اما فى المجموعـة الثانية فان الحـدود قـد تكسرت واتخذت شكلا يقارب المستدير. ولذلـك لا يمكن اعطـاء المقاييـس المضبوطة وان كان فى الامكان الافتـراض بأنها شبيهة بمقاييس المجموعة السابقة. والظاهر ان هذه الثقب التى هى من فعل الصهر كانت تستعمل لتركيز عماد بها لان كلتا المجموعتين ليس لها من الاستقرار ما يكفى لبقائها قائمة دون الاعتماد على عماد . وقد حلت المشكلة اثناء تنصيب المجموعة فى (المتحف الاثرى لتطوان) بقضيب معدنى رقيق مستقيم يبدأ من القاعدة لينثنى فى الارتفاع المطلوب ويدخل فى الثقبة المشار اليها.

وقضية هذه الثقب تضعنا امام مشكلة اخرى وهى التساؤل عن الغرض ونوع التزيين الذى تستعمل له هذه التماثيل. وهى اسئلة لا نجد لها جوابا بالاعتماد فقط على المعلومات التى توجد لدينا الآن .

وما من شك فى ان هاتين المجموعتين كانتا تشكلان جزءا من مجموعة للتزيين كما يلاحظ ذلك عند النظرة المجردة، فالحجمان المتشابهان والموازنة بين الموضوعين وتناسبهما امور لا تترك اى شك. ولنا الدليل الكافى على ما نقول فى عدم استقلالهما والثقبة المشار اليها. الامر الذى يؤكد انهما كانتا مضمومتين الى شىء قد يكون نوعا من الاثاث فى الغالب. والى نفس هذه

النتيجة وصل عدد من علماء الآثار ومؤرخي الفن الذيـن اهتموا بالمجموعة المماثلة الموجودة في متحف برلين والتي سنتعرض لها في فصل المقارنات دون ان يحصلوا على تدقيق يفوق تدقيقنا.

والاثاث الوحيد الذي يمكن ان نعرفه والذي قد يكون له علاقة بالنحوت التي تهمنا هو «فراش ديلين» الذي عثر عليه في نفس الغرفة التي وجدت فيها المجموعتـان ومع ذلـك فقطع التزييـن التي شكلت اجـزاء الوحدة هي بدون شك صورة «ليدا» مع البجعة التي كانت تزين احد الطرفين ورأس بجعة كان يزين الطرف الآخر. وهذه قطع تتناسب بحجمها وشكلها مع قطع كلينيس البرونزية تمام التناسب. الا انني فيما اعلم اعتقد انه لا يوجد اي منحوت من حجم المجموعتين وشكلهما .

II

محـل الاكتـشـاف وظـروفـه

دار «المريـخ» و «ريـا»

ظهرت المجموعتان في نفس البيت من الدار التي نطلق عليها هذا الاسم ورغما عن ان هذا البحـث لا يكفي لدراستهـا دراسة مطولة ولا هو مناسب لتلك الدراسة الواسعـة التي سيشملها كتـاب سيصدر في القريب حول غرائب لكسوس فان من المفيد اعطاء فكرة عامة وذكر خصائص المجموعتين المكتشفتين (2) .

فدار المريخ وريا تشغل جزءا كبيـرا من مدينة ليكسوس وذلك في الحي الواقع في القسم العالي من المدينة حيث يوجد سهل واسع ينتهي في جهته الغربية عند سور ، ومن الراجح ان الحي الانيق بما نعرف من تاريخ

---

(2) وحول فترات تطور الحفريات المختلفة في «لكسوس» طوال السنين الاخيرة انظر : م. طراديل M. Tarradell: **Las excavaciones de Lixus** في مجلة «Ampurias», XIII, Barcelona, 1951, págs. 186 y ss.; **Tres años de investigaciones arqueológicas en Marruecos**, en «Crónica del II Congreso Nacional de Arqueología», (Madrid, 1951); **Las últimas invèstigaciones sobre los romanos en el norte de Marruecos**, «Zephyrus», I, Salamanca, 1950, págs. 49 y ss.; **La Arqueología Romana en el Protectorado de España en Marruecos**, «Archivos del Instituto de Estudios Africanos», XII, Madrid, 1950, págs. 31 y ss.

لكسوس كان موجودا بهذه الجهة لانه كانت توجد دار اخرى على مقربة من هذه وهى دار «هيليوس» التى كان فى امكانها على التقريب ان تنافس الـدار الاخـرى .

وكل هذه المجموعة من البنايـات التى تشكل المستوى الاول من حيث وجهة نظر الحفريات توجد مهدمة الى حد بعيد يكاد يجعلها سطحية. وزادت فيه عوامل انشقاق الارض، اما دار المريخ وريا فقد كانت الارض قبل ابتداء الاعمال تشكـل مرتفعا صغيرا يقطعه جدار عمودى على السور ربما كان من عهد متأخر عن العصر الرومانى، وكان هذا الجدار يتصل بالسور فى نقطة قريبة من النقطة التى يبتدىء فيها الخروج، وهذا القطاع الذى يتقدم التخطيط العام للسور فـى العهد الرومانى فى واجهة يبلغ طولها اربعين مترا يظهرنا على مجموعة فريدة من الكراسى الكبيرة، وقد سماه «تيسو» بالجدار الفتى لانه فى اواخـر ما بقـى من العهـد السابق لانقلاب لكسوس الى مستعمرة رومانية. وعند ما لم يصبح ذا مهمة دفاعية امسى حدا لهذه الدار التى ندرسها الآن. اما الجدار السابق الذكر والمعمول من الحجر الصغير المخلوط بالطين فقد حفظ القسم الاكبر من الدار لان التراب الذى تجمع على جانبيه هو الذى غمر البقايا القريبة من تلك البقايا التى تنتسب الى المستوى العادى للدار والتى هى الوحيدة التى أمكن الاحتفاظ بها . فنحن بجوار الجدار نجد ارتفاعا يبلغ المتر بينما يـزول هذا الارتفاع عند ما نبتعد عنه بستة او سبعة امتار زوالا تاما بفعل انشقاق الارض.

وعند ما جرى حفر تلك الهضبة الاصطناعيـة اثنـاء 1948 ـ 1950 تم العثور على مجموع الدار. فلها بهـو مربع يبلغ ضلعه عشرة امتار وهو غير مرصـوف. وربما كـان روضا يقوم على جانب رواق يرتكز على اعمدة. ولا يحتفظ من هذا الرواق الا بجناحين ومن الاعمدة الا بقاعدة واحدة وبضع اجزاء تم التحامها. وكانت الغرف تطل على هذا الرواق. اما الغرف الواقعة عند الجهة الشمالية فاربع، ولها احجام متشابهة جدا وتوجد ثلاث منها مرصوفة بنوع متشابه من الفسيفساء . ولهذه الفسيفساء تزيين مختلف فى كل قطعة من قطعه يحيط به خط خارجى وشعار مركزى مستدير يبلغ قطره 1,20 مترا . اما القطعة الاولى من الفسيفساء المكتشفة فتشخص لقاء الاله المريخ مع «ريا سيلفيا». وقد زالت الجدران والرصيف ابتداء من منتصفه. ونحن نجد التـراب العـادى فى مستـوى الرصيف . ونفس الامر يحدث فى الجناحين الآخرين. ولهذا السبب لا تمكن معرفة كيفية البناء فى هذين الاتجاهين .

وفى الجهة المقابلة اعنى بعد الغرفة التى يوجد فيها فسيفساء المريخ والسلسلة المجانبة له توجد حمامات صغيرة كانت تكون جزءا من الدار واحسن تلك القاعات حالا هى قاعة «التبريد» التى تنتهى الى صهريج ذى عشرة اضلاع يحتوى على اجود انواع الفسيفساء واحسنها حالا. ويظهر فيه أدونيس وفينوس يحيط بهما اله النوم. وربما كان هذا رمزا لاحد فصول السـنـة .

الا ان الجانب الذى يهمنـا فى دراسة منحوتـات البرونز هو الجانب المقابل بكيفيـة خاصـة، فعند نهايـة القاعة الكبرى نحو غرب البهو نجد ان مستوى الغرف ذات الفسيفساء (المستوى الاول) يـزول بكيفية عاجلة اثر غرفة لا نعرف مظاهرها من خلال ما بقـى من آثارها العمرانية والتى وجدت فيها مجموعة من لوازم التجميل من مشط وملاعيق ولقاتيط وغيرها من الامور التى تفيد فى معرفة هـذا الباب . ومنها تدخـل فى مساحة تبين انخفاض مستواها (وهو ما نسميـه بالمستوى الثانى) ذلك لان انشقاق الارض قد اثر على المستوى الاول .

وقد كفل لنا هذا الحفـر المعرفة بأن هذه الدار قـد بنيت فى القرن الثانى فوق ابنية ترجع الى عهد سابق، ولا يمكننا التنبؤ بشيء حول وضعها العام ولا حول توجيهها بالاقتصار على ما اكتشف لحد الآن، اذ لذلك يتعين انتظار توسيع الحفريات، وعلى كل حال يمكن القول منذ الآن بان تقسيم الدار وشكل جدرانها ليس لهما اى معلم من معالم البناء الرومانى بل ان كل ما بها يتفق مع هيكل البنايات التى وجدناها فى مدينة «تمودة» السابقة للعهد الرومانى كما يتفـق مع اسلوبهـا (يمكـن تاريخ بنائها فى القرنين الثانى والاول السابقين للتاريخ الميلادى). وان مستوى التحطيم لذلك العهد يلاحظ كذلك فى هذه البنايـة الامر الـذى يمكن من الافتـراض ان البناء من عصر متواز، ولـو انهما كـانا مكونين خلال الامبراطورية العليا الى ان جاء القرن الثانى الذى شيدت فيه على انقاض الجدران القديمة دار المريخ وريا.

الغرفة رقم 11 ومجموعتها الاساسية

الا ان البنايات السابقة للعهد الرومانى من المستوى الثانى لم تستعمل لهذا الغرض فقط. بل ان جزءا منها قد اعيد استغلاله كغرف تحت الارض فى دار المريخ وريا فان ثلاث غرف مستطيلة وطويلة جدا ـ وكل واحدة بجانب الاخرى ـ قد استحالت الـى مخازن للمـاء المنهمر على سطوح تلك الدار،

ويظهر ان مشكلة الماء كانت حادة في مدينة لكسوس اثناء ازدحامها بالسكان لان القسم الغالب من الدور كان يحتوى على تلك المخازن . وتمكن ملاحظة الاسمنت الروماني يكسو القسم الداخلي من الجدران القديمة حتى يستحيل تسرب المائع من خلالها . وقد لوحظ كذلك ختم احدى النوافذ القديمة وتكسير زوايا الغرف القديمة التي تحولت الى مخازن للمياه ورصفت ارضها بنفس الاسمنت الروماني. اما الغرف الاخرى فقد اصبحت مخازن وبيوتا ثانوية كما تمكن رؤية ذلك فيما عثر عليه من مجموعة الاواني في طبقتين تعلو احداهما الاخرى .

ونفس هذا المصير هو الذي كان للغرفة الحادية عشرة التي كانت تحتل الزاوية الجنوبية الغربية من السور السابق للعهد الروماني والمعمول من الصخور الكبيرة التي كانت تحد الدار من هذه الجهة. وكان النزول الى هذه الغرفة يتم بواسطة سلم يبتدىء من المستوى العادي للدار. وقد عثر في ارض الغرفة على بقايا آنية كبيرة ذات جوانب قوية.

وعند ما تحطمت الدار واعقبها الحريق هوى سقف هذه القاعة الذي كان أرضية البيت الاعلى فسقط بكل ما كان يحتوى عليه. وقد تحطمت الفسيفساء بسبب ذلك فاصبحت اجزاء متكسرة . غير ان هذه الاجزاء تسمح لنا بمعرفة الشبه الموجود بين رسوم هذه الفسيفساء التي عثرنا عليها في حالة جيدة. وكان بصحبة هذه البقايا عدد كبير من الحجر وقطع الآجر. اما الآثار التي عثرنا عليها فهي اثاث الغرفة العليا نظرا لجودة القطع وشكلها عند ما برزت بين بقايا البناء الذي هوى .

اما بقايا هذا الانقراض فهي «كلينى» او فراش «ديلوس» الذي سبق ذكره والذي يحتفظ منه علاوة على قطعتى التزيين وتمثال ليدا الصغير ورأس البجعة وقسم كبير من رجليها وكلها من البرونز وشمعدان من نفس المعدن وله ثلاثة اقدام تمثل ثلاثة مخالب وصحن مستدير بارز ويوضع وضعا افقيا حيث تشخص مطاردة الاسود للغزلان ؟ وعدة رؤوس بشرية وساعد ضاع قسمه في الحريق وظهر «هرمافروديت» صغير معمول من الرخام.

والاحتفاظ بهذه المجموعة الهامة يسير الشرح. فعند ما اعيد بناء الدار ابتداء من المستوى الاول اعنى المستوى العالي للارض في ذلك العصر فان هذا البيت الارضي قد امتلأ بانقاض البيت الاعلى دون ان يجتهد احد في استرجاع الاشياء التي بقيت مدفونة فيه . ويغلب على الظن ان من انجزوا

هذه الاعمال العمرانية الجديدة كانوا يجهلون مصير تلك الاشياء وذلك مع العلم بأن اعادة البناء قد تمت في عصر متخلف ولم تكـن على ما يرام من الجـودة .

تـحـطـيـم الـدار :

فما هي الاسباب التي ادت الى تحطيم الدار وفي اي تاريخ حدث ذلك التحطيم ؟ ان امارات الحريق كانت توجد ظاهرة ابان حفر بيوت تلك الدار. وان ما عثرنا عليه من تماثيل وخاصة الشمعدان وتمثال «انتيو» و «المنيوتاورو» قد تكبد فعل النار كذلـك. ولا يظهر ان هذا الحريق كان حدثا عارضا. ذلك لان بقاء تلك القطع مهجورة بعد الانهيار يكفي تماما لرفض هذا الافتراض . اذ لو كان الحريق عارضا لبذلـت الجهود لانقاذها، خصوصا وان تلك القطع ثمينة تستحق تلك الجهود، وخاصة في مكان مستعمر كمدينـة لكسوس لان تلك القطع كانت ذات قيمة كبرى نظرا لغرابتها .

ويوجـد علاوة على هذا شاهـد يثبت العكس. فالعثور على جثة في حالة سيئة من الاحتفاظ بقعر احد مخازن الماء مصحوبة بعتاد القصر مـع نقود مستديرة ترجع الى القرنين الثاني والثالث ـ ويسهل تاريخها ـ يحملنا على القول بان تحطيم الدار مصحوب بآثار العنف والقتال. وعدم المبادرة الى اصلاح الدار او اعادة بنائها الا بعد اعوام عديدة وبكيفية سيئة يدلنا على ان المدينة كانت تجتاز فترة مضطربة .

وتاريخ التحطيم زيادة على قيمته لمعرفة التماثيل البرونزية يساعد على ايضاح هذا المشكل .

وعناصر التاريخ التي نملكها هي الآتية :

الاول ـ اضمن هذه العناصر هو العثور على نقدين من عصر متواز فقد وجد متوسط من البرونز لعهد «فورديانو بيو» (238 ـ 244) بين مجموعة البرونز في الغرفة الحادية عشـرة، كما وجد متوسط آخر من البرونـز لعهد «فيليبو الكسنـدر» (244 ـ 249) ظهر فـي قاعة مفروشة بالفسيفساء وفي مستوى مضبوط من وجهة النظر الاثرية لانه وجد فوق ذاك. ولكل هذه الاشياء قيمة فريدة .

الثاني ـ اما الخزف الذي كان في مقدوره ان يعيننا كثيرا فهو غير فاصل في هـذا الباب لان غرف المستوى الاول كان مغطـى بطبقة ضئيلـة بحيث ان المواد الظاهرة تعطينا تواريخ متعددة، الامر الذي يحملنا على الظن

للازمات الصعبة. ويمكن ان يعتبر في المقاطعات المصابة على الاقل بداية العهد الجديد الذى سمى بالامبراطورية السفلى (5).

وقد انتقل الغزاة بالفعل من شبه الجزيرة الى موريطانيا بعد ان قطعوا البوغاز. ويوجد نص لاوريليو فيكتور يؤكد هذا القول تاكيدا قاطعا (6). واليه استند «توفونوت» عند ما افترض ان البرابرة الذين صدوا فى تامودة وورد ذكرهم فى اللوحة التى يحتفظ بها الآن فى «المتحف الاثرى لتطوان» كانوا هم الفرنك والالامانيون(7) . الا ان الخبراء لم يجمعوا على قبول هذا القول وان كان فى ظاهره هو الراجح (8) . وان قلـة الاعمال الاثرية التى انجزت الى عهد قريب فى شمال المغرب لم تسمح بالعثور على الشواهد المادية على ذلك الغزو. وقد يكون هذا هو السبب الاول.

ذلك لانه فى امكاننا ان نفترض ان هؤلاء الغزاة هم الذين حطموا مدينة لكسوس. فاذا كانوا قد عبروا البوغاز فمن الصعب ايقافهم قبل الوصول الى هذه المدينة التى لا تبعد عن شواطىء البوغاز الا بنحو مائة كيلومتر. وعلاوة على هذا فالحاميات الرومانية بالمغرب لم تكن عديدة ابدا كما هو معروف.

ويوجد رغم ذلك افتراض آخر ممكن، وذلك هو ان تنسب تلك المصيبة الى الاهالى انفسهم. سواء كانـوا ثوارا داخل حدود المقاطعة الرومانية او رحلا مستعدين على الدوام لاختراق الحدود قادمين من الجنوب. وليست لدينا اخبار عن وجود مثل هذه الحركـة فى هذا العصـر. غير انه يحسن التذكر بأننا لا نملك اى شـىء فيما يتعلـق بالوثائق. فتحطيـم المدينتين الوحيدتين المعروفتيـن بفضـل الحفريـات المنجزة فى المنطقة الجنوبية

---

(5) الوثائق الاثرية تزداد يوما بعد يوم افصاحا فيما يدل على تدمير كثير من المدن فى ذلك الوقت، ومع هذا فلا تزال تنقصنا دراسة شاملـة تحقق هذه الاشياء كما ينبغى ، وكانت المحاولة الاولـى فى هـذا الصـدد تبليغى المؤتمر الوطنى الثالث لعلم الآثار الذى انعقد بجليقية سنة 1953 بعنوان
Sobre las invasiones Germánicas del siglo III en la Peninsula Ibérica.

(6) Aurelius Victor, Lib. de Caesaribus, 33.

(7) Rev. Et. Lat., 1938, pág. 266.

(8) انظر على سبيل المثال : Mateo y Llopis: Monedas de Mauritania, Tetuán, 1949, pág. 47. الذى يؤمن بان هذه اللوحة من العهد البزانطى

(فولوبيليس وبناصا) يرجع فيما يظهر الى عهد متأخر (9). ونحن نرى فى هذه الحالة ـ مع مراعاة التحفظ الرزين دائما ـ انه من المنطق ان يكون ذلك الغزو من فعل الفرنك والالامانيين، وربما كان من نتائج مرور هؤلاء، علاوة على الضعف العام الذى كانت الامبراطورية توجد عليه فى ذلك التاريخ مما حمل الرحل البرابرة خارج الحدود بعد التيقن من قوتهم على انهاء عمل التحطيم .

وعند ما نترك هذه القضية ونتوجه الى دراسة قطع البرونز نجد هذا التاريخ حدا نهائيا لجميع القضايا المتعلقة بهم «وكياتهم العملية».

III

دراسة الاشخاص واوجه الشبه والزمن

انه من المعلوم ان مصارعة هرقل لانتيو تكون جزءا فى دائرة اعمال البطل وتشكل القسم الحادى عشر منها (10) فقد خرج من اليونان بغية التحصيل من «تريتون» او «نيربو» على الطريق السرى الذى ينتهى به الى «روض تفاحات الذهب» وبعد معرفة هذا الطريق ينتقل الى ليبيا وطن «انتيو» الابن العملاق «لبوصيدون» و «جيا» الذى كان يرغم الاجانب الذين يدخلون الاراضى الخاضعة له على المقاتلة فى صفوفه. ولما كان ينتصر دائما فقد اقام من عظام اعدائه المغلوبين هيكلا عظيما لابيه «بوصيدون».

وسر قوته العظيمة كان يرجع الى حماية والدته «الارض» التى كانت تنفحه بالقوة الضرورية وقد صارعه هرقل فتغلب عليه بذكائه لانه كان يعرف سره. فقد انتهز فترة من فترات المصارعة وقبض على خصمه ورفعه. فلما فقد اتصاله بالارض التى كانت تشيع فيه القوة السحرية استطاع ان يخنقه .

---

(9) قارن: R. Thouvenot, **Une colonie de la Mauritanie Tingitane: Valentia Banasa**, Paris, 1941, en el capitulo «El fin de Banasa» págs. 61 y ss.

(10) فى هذا الموضوع وموضوعات الميثلوجى بالنسبة للامثلة التى تتناولها فيما بعد قارن المقالات الخاصة بهذه الموضوعات فى الموسوعتين : Daremberg-Saglio-Pottier Pauli-Wissowa' والقاموس الميثلوجى «Röscher»

وقد شوهد فى اقصوصة انتيو رمز طبيعى متعلق بافريقيا. فالعملاق قد يكون تشخيصا لزوابع رياح الصحراء التى تشاهد ما دامت على اتصال بالارض بما تثيره من غبار ورمال وتختفى عن الانظار عند ما يزول ذلك الاتصال . غير انه لا يوجد اى سند لهذه النظرية الحديثة. وهناك رأى آخر يشاهد فى هذه الاقصوصة رمزا للصراع بين الاهالى والمستعمرين.

ولما كان لفظ ليبيا على العموم مرادفا لافريقيا فيظهر ان موقع «الميتو» ــ قصة من اديان الوثنية ــ بعد خروجه من اليونان قد اخذ ينتقل نحو الغرب كلما كانت المعلومات الجغرافية لليونانيين تتسع فى هذا الاتجاه. فقد كان انتيو يعيش فى برقة حسب الشاعر «بندارو» فى حين ان الروايات التى وردت من بعد والتى يثبتها بلوتاركو ولوكانو واسترابون وبومبونيو ميلا وبلينو تحدد ناحية العملاق فى الطرف الغربى الاقصى من افريقيا. وهذا الطرف هو بالضبط المنطقة الواقعة بين ليكسوس وطنجة. واسم زوجة انتيو هو «تنجى». ويظهر انه كانت لهذا الاسم علاقة بالاسم القديم لمدينة طنجة .

والعثور فى عهد «صيرطوريو» على قبر انتيو فى المنطقة الواقعة بين لكسوس وطنجة اكد هذا التحديد للموقع فى العهدين اليونانى والرومانى . ويحكى بلوتاركو ان هذا القائد قد شاهد اثناء احد اسفاره بتلك الناحية قبل تدخله فى شبه الجزيرة الايبيرية قبرا يبلغ طوله ستين ذراعا كان يعتبر آنذاك رمس العملاق .

وهناك قسم آخر من «الميتو» يرد متعلقا بالمغرب الافريقى وهو الذى يوصف فيه « جنة الهيسبير » ولا يذكر موقعه فى وجهة اخرى الا فى حالة واحدة. وهذه الجهة الطرف الشمالى للعالم. اى فى بلاد اقصى الجهات الشمالية .

اما الشخصيات الوهمية لاعمال هرقل فعديدة لا تحصى فقد كان احد الموضوعات فى الميتولوجيا اليونانية التى صادفت النجاح الكبير اذ اتخذه كثير من الفنانين عنصر الاستلهام منذ العهد العتيق الى الامبراطورية السفلى فغمروا الاسواق بالتماثيل الصغيرة التى كانت نسخا للقطع الفنية الشهيرة. وحادث الصراع مع انتيو يرد بكثرة فى تلك التماثيل عند ما لا يشخص الكل.

ويمكن على العموم التمييز بوضوح بين شكلى التشخيص. فالاول يوافق الاقصوصة تمام الموافقة بحيث يظهر انتيو وقد رفعه غالبه فى الفضاء حتى يحول بين اتصاله بالارض التى تجدد قوته. وهذا التشخيص

شائع . ولعل شيوعه يرجع الى دقة موافقته للاوصاف التى وردت فى النصوص حول تلك المصارعة.

اما الامثلة التى تستحق الذكر فعديدة . ويكفى ان نذكر احد النماذج الذى صنعه «بوليكليتو» والذى كان من ضمن المجموعة التى نقلت الى روما حسب ما قاله پلينيو .

اما التشخيص الثانى فقد استغنى فيه عن الدقة. اذ يصور فيه الشخصان كما لو كانا مصارعين عاديين. وقد اصبح هذا التشخيص هو صاحب الحظوة عند الرسامين. الا انه لم يصادف نفس الذيوع بين النحاتين. لذلك يعتبر التمثال الذى وجد فى لكسوس احد التماثيل القليلة المعروفة .

وشخص هرقل فى قطعتنا هذه يناسب النماذج المعروفة منذ مستهل الفن الاغريقى فهو شخص ذو قامة متوسطة قوى العضلات ذو شعر ولحية كثيفين وتمكن مقارنته مع المدعو هرقل فارنيشيو الذى اتخذ هندامه نموذجا لعدد من تماثيل البرونز الصغيرة .

شخص تيسيو والمينوتاورو

ان الدائرة الاسطورية لتيسيو تتوازى الى حد ما مع الدائرة الاسطورية لهرقل بحيث انهما تختلطان فكلاهما يجوب العالم وهو يأتى عظائم الاعمال . فقد كان تيسيو بطل اثينا على الخصوص وتعتبره الاساطير اهم الملوك الميثولوجيين لاثينا قبل حربها مع طروادة بقليل .

اما صراعه مع المينوتاورو فقد كان اصله كما ياتى : ذلك ان «مينوس» ملك كريت قد اراد ان يبرهن لرعاياه على قوته امام الآلهة فطلب من بوصيدون ان يخرج من البحر ثورا يضحى به قربانا له الا ان الملك امام جمال ذلك الحيوان قد ضحى بحيوان آخر مكانه. وقد شغفت زوجة مينوس حبا بالثور كعقاب من الآلهة فكان لها ولد هو المينوتاورو له جسم بشرى ورأسه رأس ثور وذعر مينوس فسجنه فى السرداب وفرض على الاثينيين ضريبة سنوية قوامها سبعة فتيان وسبع فتيات تقدم الى الغول.

ولجا تيسيو الى «اريادنا» التى قدمت اليه تاجا لا معا لينير به الظلمات وهو التاج الذى تسلمته من «ديونيسوس» وخيطا حتى يستطيع الدخول الى اعمق مكان فى السرداب والخروج منه وهكذا دخل الى عرين الغول وقتله.

والخرافة قديمة نظرا لعلاقتها بالقوة الكريتية ويظهر انها اشارة الى العهد الذى كانت فيه جزيرة كريت بسيطرتها على البحر دولة قوية. كما

انها تشير الى سقوطها فيما بعد وقيام سلطة القارة والمدن البحرية مكانها. اما تيسيو فقد ورد ذكره في الالياذة. ولعل هذه الحوادث قد وقعت حوالى القرن السادس لان تشخيصها الرمزى قد بدأ يظهر فى القرن الخامس. فالفنانون يشخصون انتيو كما تصفه الاسطورة شابا ذا عنفوان دائم وصاحب جمال وبأس الا انه لا وجود للتفاصيل النصية حول كيفية حدوث الصراع وتقول الروايات العتيقة انه كان على الشبان الآثينيين ان يتوجهوا الى كريت من غير سلاح لذلك فقد كان تغلب تيسيو على المينوتاورو راجعا الى قوته فحسب الا اننا نجد من جهة اخرى انه كان من التقاليد العتيقة ان يشخص وهو يحمل السلاح لانه يظهر فى المآثر القديمة وهو يحمل سيفا بيده وقد عوض السيف فيما بعد بعمود. وعلى العموم فان البطل يقبض على الغول الجاثم على ركبتيه باحد قرنيه بينما يقبض باليد الاخرى على السيف او على العمود.

اما قائمة الشخصيات فطويلة ولنذكر رغم ذلك بين رسوم الكؤوس كاس « اوفيبيتو » الموجود فى متحف فلورنسة (ب10) ورسم كاس « بولتشى » فى المتحف البريطانى (11) ومن الرسوم البارزة نذكر الآثينى ورسما منحوتا المقبرة (12) وقطعة من الذهب الكورينتى (13) ولجولباكى (14) وضريح تيسيو فى روما (15) ورسم ديلفوس المنحوت (16) وآخر لكولونيا فى متحف «سيفيرينوس فيتاليكس» القديم (17) والباب الاسود لبيزانصون البارز (18) اما من النحوت فمجموعة « فيلا البانى » (19) وفسيفساء «اسكوبكوم» فى سويسرة (20).

اما تشخيص الصراع مع تيسيو من غير سلاح فنادر جدا ونحن نجده فى مجموعة بمتحف اللوفر حيث يوجد الخصمان واقفين وهما يتصارعان

(10 bis) S. Reinach, **Rep. as. peint**, I, 523.
(11) Núm, 825, **Cat.**, III, E, 36.
(12) Wolters, **Fouilles de Delphes**, lám. XXXIX.
(13) Arch. Zeitung, 1884, pág. 106, Lám. VIII, 3.
(14) Benndorf-Liemann, Lám. XIX, 10.
(15) Arch. Zeitung., 1894, pág. 274.
(16) Reinach, **Reh. reliefs**, I, 126.
(17) 128. كذلك
(18) Reinach, **Reh. reliefs, I, 81.**
(19) Reinach, **Reh. estat.**, I, 184.
(20) Nittell de Antiq. Gesell., Zurich, **XVI, Lám. XXIX.**

فى وضع مخالف للوضع الذى لدينا (21) الا اننا نجد تشخيصا موازيا يكاد يكون علـى نفس الدقة فى مجموعـة بمتحف برليـن وهو ما سنتفرغ له فيما بعد هذا .

مجموعة تيسيو والمينوتاورو فى متحف الآثار القديمة ببرلين

يستحق هذا التشخيص اهتماما خاصا لانه ربما خرج من نفس المعمل الذى صنع به تمثال ليكسـوس كما سنـرى (22) وقد تفرغ لدراسته عدد من الباحثين . بحيث ان ما انتهوا اليه من نتائج الـدرس صالح فـى معظمه بالنسبة لمجموعة ليكسوس (23) .

فقد عثر عليه سنة 1878 بالقرب من «افروديسياس» فى آسيا الصغرى وذلك بكيفية عارضة وعلـى عمق قليل دون ان يتدخـل الفنيون، وبعد مدة قليلة انتقل مباشرة الى متحف برلين .

وهو فى حالة جيدة رغم انه كان هدفا لترميمات طفيفة وطوله من قمة رأس انتيو الى طـرف القدم الايمـن للمينوتاورو اربعة وثلاثون سنتيمترا، اما الاشكال فمصهورة على انفراد وتلحم مـن السواعد التى هى قطع منفردة كذلك ولها ما يربطها بالجسم ولكل من تيسيو والمينوتاورو فى القسم الايسر الاعلى من ظهرهما نقبة يلحم منها مع القطعة المخصصة له .

واذا كانـت هذه الجزئيـات الفنية تظهر تشابهه مع التشخيص الذى ننشره فى هذه الكتابة فهناك خصائص اخرى يتفقان فيهـا واحـدى هـذه الخصائص سوء الصنع الفنـى الملحوظ فى الايدى الامر الذى يتعارض مع باقى اطراف الجسم المتقنة الصنع .

---

(21) **Reh. estat.**, II, 510, 4.

(22) نبهنا صاحبنا الاستاذ الكبير J. Esteirich الى مجموعة «برلين» بعد ان اطلعناه على صورة تمثال «هرقل» و«انتيو» الذى كان قد اكتشف من قبل بايام قليلة ؛ فافادنا ان هناك تشابها بين الوضع والحجم.، وقد اكتشفنا بعد ذلك باسبوعين مجموعة «تيسيو» و«ميناتاورو» فى الكسوس

(23) نشرت هذه النتائج لاول مرة بـ A Conze, 38 Winkelmanns Program, 1878, Baumeister, **Denkmaler**, III, 1791, fig. 1875. Röscher **Mit., L.** II, 3009, fig. 6. Reinach **Repert. Stat**, II, 2. F. Schottmüller, **Bronze Statuetten un Geräte**, (2.ª ed.), pág. 35, lám. 17; Neugebauer, **Griechische Bronzen**, pág. lám. 26. Führer, I, pág. 71, lám. 40. W. Lamb. **Greekand roman bronzes**, pág. 206. Neugebauer, **Schumacher Festschrift**, 235. Neugebauer, **Die griechischen Bronzen der Klassischen Zeit und des Hellinismus**, Berlín, 1951, pág. 75-8, láms. 34-35.

وهناك فرق ضئيل في الوضع ذلك ان تيسيو يقبض باليد اليسرى على قرن المينوتاورو بدلا من ان يقبض عليه بيديه فى حين انه يقبض باليد اليمنى على ظهره اما الساعد الايمن للمينوتاورو فهو منقبض الى الصدر بدلا من ارساله نحو الخلف وهذا الوضع شبيه بوضع هرقل فى مجموعة ليكسوس. الا ان الفرق الملحوظ هو فى رأس المينوتاورو الذى هو رأس الحيوان فى مجموعة برلين وفق التقليد المعروف فى التماثيل والرسوم. وقد رأينا ان هذا كان الاصل فى تمثال ليكسوس عند ما اشرنا الى ذلك فى تعاضنا لوصف العنق وان التشخيص بالراس البشرى كان فى الغالب من عمل التاسخ واختراعـــه .

اصلـه وزمنـه :

يجب ان لا يقوم اى شك حول الخاصية اليونانية لاصلى التمثالين البرونزيين من تماثيل لكسوس، وليس من الضرورى ان نعود الى الالحاح فى هذا الموضوع. ويمكن فـى هذ العصـر ان نجد لهما علاقـة بالاسلوب الليسيبى، فعند التعرض الى شكل هرقل ذكر المدعـو فارنيسيـو انـه يعتبر فى الغالب نسخة من اصل «ليسيبو» واغلب المؤلفيـن الذى درسـوا مجموعة برلين التى تعرضنـا لها فى الفقرة السابقة قد وصلوا الى نفس النهاية ، ويمكن كذلك جعل علاقة مع تمثال هرقل عنـد تغلبـه على انثـى الغزال، ذلك التمثال الذى ورد من پومپية والذى يوجد محفوظا فى «متحف باليرمو الوطنى» ويفوق بعض «الشـىء» تمثالنـا فى الكبـر (60 سنتيمترا) حيث يظهر البطل فى وضع شبيه بوضع تيسيو لكسوس الـذى يتشابـه كذلك معه فى الراس. ويعتبر هذا التمثال من عمـل ناسخ فى القرن الاول قبل المسيح حيث كان النساخون ينقلون التماثيل اليونانية بقصد التزيين. وقد جرى التفكير كذلك فى ليسيپو او فى مدرسته باعتبارهـا اصـلا مـن اصول الفن .

ومن المعلوم ان هرقل كان من الموضوعات المأثـورة عنـد ليسيپـو وتلامذته الذين اتخذوه نموذجا للمصارعين. ونموذج الصراع ووضع المتصارعين لا يعينان بحال على تحديد الزمن ولا على تعرف نسبة الاسلوب. ذلـك انه توجد تماثيل متوازيـة فى ازمان متباعدة كمـا هو الحال فى كأس اغريقى للقرن السادس قبل المسيح او فى مجموعة تصور مصارعة جنـدى رومانى لجندى مـن بلاد الغال. وهو يقل فى ثلثيه عن حجم تماثيلنا؛ ولعله كان من

ادوات التزيين. ورغما عن كوننـا لا نملك اليقين فان ما قلنـاه كاف لـوضع المجموعتين وتعريف حالتهما من الوجهة الفنية والزمنية. وليس فى الامكان اليوم ان نحدد اكثر من هذا .

وتبقى هناك مسالة معرفة الزمن والمكان اللذين انجز فيهما ذلك النقل الذى وصل الينا. وهى مسالة اكثـر صعوبة من سابقتها. ولما كـان الامر يتعلق بالمعمل المنتج ولو كان انتاجه متسلسلا وذا جودة. ولـم تكـن تعـرف الاعمال من هذا النوع الا فى مجموعة «الافروديت» ومجموعتى ليسكوس فان تاريخ الانتاج يمكن ان يتراوح بين اوائل القرن الاول قبل المسيح الى ما بعد مستهل القرن الثانى بعده. ومعنى هـذا ان الانتاج قد كثر امام الزبناء الجدد الذين اوجدهم العالم الغربى الرومانى الى حدوث النهضة الحدريانية .

وان بعض المتخصصين فى دراسة مجموعة برلين ـ وهم لم يعزموا على التاكيد بشىء حول تاريخ صهر تلك القطعة ـ قد اشاروا الى مصر باعتبارها مكانا محتملا لذلك الانتاج. وهكذا عمد «نوجباور» الى المقارنة مع هيكل اسود له نفس العيب وهو الايدى الغليظة البشعة والشىء الذى لا شك فيه ولا مكان للانتقاد هو ان قطـع البرونز الموجودة فى لكسوس قد قدمت من شرق البحر الابيض المتوسط. وهذا دليل جديد على العلاقات بين الشرق ولكسوس المستعمرة اليونانية القديمـة، تلك العلاقات التـى يظهر انها لم تنقطع ابدا.

ومن جهة اخرى نجد ان التمثالين البرونزيين للكسوس هما من ضمن المجموعة الغنية التى تم العثور عليها فى المغرب. ومجموعة «ولوبيليـس» تشكل كشكولا فريدا. ولامر ما كان اكتشاف القطع الاولى عند ما كان الناس يستبعدون وجود تلك الكنوز الدقيقة فى مدن موريطانيا البعيدة الفقيرة حدثا حقيقيا فى الاوساط المعنية بالفن القديم. وهذه القطع هى غلام يزين رأسه إكليل الغار يبلغ طوله 1,40 مترا وهو من الانتاج اليونانى القديم الذى تختلط فيه الطرائف الفنية لكل من «بوليكليتو» و «ليسيبو» و «براكسيطيليس». ثم غلام آخر اصغر منه (85 سنتيمترا) واقل منه جودة وهو فى حالة يصب فيها ما اشتمل عليه اناء مرفوع فى كاس . وشاب عار وهو يركـب حصانـا (49 سنتيمترا) ظن انه من اطول مدرسة بوليكليتو واسلوبه . ثم كلب فى حالة النباح وقد بلغ من الاتقان درجة عالية بحيث انه يعتبر من اجمل مظاهر الفن القديم فى تشخيص الحيوانات ولو انه من الممكن ان يكون قد وقعت المبالغة فى تقدير قيمته بعض الشىء وبعدها نجد صورتين اضيفتا الى هذه المجموعة

فى المدة الاخيرة. واحدى الصورتين هى «لكاتون» . اما الصـورة الاخـرى فلشخصية يونانية قد تكون هى صورة هيبرون الثانى الصقلـى. وفى النهايـة نجد راسا لبغل متوجا. بغصون الكرم كان يشكل جزءا كذلك من فراش ديلوس

وان مجموعة البرونز لمدينة فولوبليس قد اعتبرت امرا مقصور الوجود بالضرورة على المغرب. ولتبرير هذا القول كان «كاركوبينـو» يلجأ الـى التفكير بانها من بقايا المجموعات الشهيرة التى كان يملكها ملك متيم بالفنون والآداب تهذب حسب الطريقة اليونانية، ذلك الملك هو «يوبا» الثانـى الـذى ربما اتخذ مدينة فولوبيليس العاصمة الغربية لمملكته الواسعة الاطـراف . اما العاصمة الشرقية فقد كانت هى «قيصارية» التى تسمى الآن «شرشل» وبدون ان تنفى الامكانية التى استقبلت قبولا حسنا والتى يمكن ان تتخذ الآن افتراضا متينا للعمل من ان فولوبيليس كانـت قاعدة ملك يوبا. وبدون ان نحاول المقارنة بين مجموعة البرونز الموجودة فى لكسوس :والمجموعة التى تم العثور عليها فى فولوبيليس (لنتذكر ان حفريات لكسوس مـا زالـت فى بدايتها فى حين ان حفريات فولوبيليس قد تقدمت تقدما مذكورا) فقد اصبح من المفيد ان نؤكد بان مدينة فولوبيليس لم تعد هى وحدها المالكة للتماثيل البرونزية اليونانية التى فى موريطانيا. ونتائج هذه الملاحظة من شأنها ان تذهب بنا بعيدا جدا اذا نحن اردنا اتباعها هنا لانها تتعلق بنقط عديدة من التاريخ القديم لهذه البلاد. وتتعين مراجعة ذلك التاريخ فى كثير من نقطه بعد مرحلة جديدة من مراحل الحفريات فى شمال المغرب باعتبار تلك المرحلة المصدر الجديد الغنى والموثوق به فى نفس الوقت.

محمد المنوني

علاقات المغرب بالشرق ايام السلطان ابى الحسن المرينى*

يعد عهد السلطان ابى الحسن المرينى العصر الذهبى للعلاقات بين المغرب والشرق، وسوف تعتنى هذه الرسالة بالبحث فى شىء من التبسط عن مظاهر هذه العلاقات التى كانت تتمثل فى المكاتبات التى لم تنقطع بين ابى الحسن ومعاصريه من ملوك مصر وما والاها : الملك الناصر محمد بن قلاوون، وابنيه الملك الصالح ابى الفداء اسماعيل، فالملك الناصر حسن كما كانت تتمثل فى الهدايا العظيمة المتبادلة بين الطرفين، وفى السفارات التى كان ملك المغرب يسيرها الى الشرق منفردة تارة، وبرفقة الركاب الحجازية مرات أخرى، حتى بلغت السفارات التى تحدثت عنها هذه الرسالة تسع سفارات.

ومن خلال هذه السفارات تحاول هذه العجالة ان تدرس مظاهر العلاقات الاخوية بين المغرب والشرق لهذا العهد .

1 ـ سفارة عام 736

هذه اولى سفارات ابى الحسن الشرقية فيما وقفت عليه، ولم يرد حديث مفصل عن هذه السفارة التى باشر امرها الشيخ ابو عبد الله محمد ابن الجراح، وانما وقعت الاشارة لرسالتها وجوابها فى قطعة صدرت بها الرسالة المغربية لسفارة 737 .

وكانت الغاية منها مخاطبة الملك الناصر فيما عزمت عليه والدة ابى الحسن من حج البيت الحرام وزيارة القبر المكرم. والصلاة بالمساجد الثلاثة التى تشد لها الرحال. ثم اعلامه بما كان من امر حركاته بافريقيا. وجهاده بالاندلس. وما منحه الله تعالى من نصر لقلوب اهل الايمان مبهج. ولصدور عبدة الصلبان محرج .

---

*) مقتطف من بحث عن العهد المرينى لكاتب السطور.

واجاب الناصر عن المخاطبة المغربية معبرا عما حصل له من الابتهاج بما اعتزمته الاميرة المرينية. وانه متى وقع الشعور بمقدم المولاة الوالدة على بلاده. وقربها من جهاته يقدم للخروج من يتلقي ركابها حتى تحمد وجهتها الشريفة بجميل نظره وايابها .

ذلك ما اشارت له القطعة المذكورة من حديث هذه السفارة التى يترجح انها وقعت عام 736. ووالدة ابى الحسن اسمها «العنبر»(1) ويتحدث فى «المسند الصحيح الحسن» (2) عن بعض اخلاقها قائلا : فكان فيها من الرأفة والرحمة والشفقة على الخليقة ما قضى منه العجب. فكم جهزت من يتامى. وكم زوجت من ايامى. وكم بذلت من صدقات. وكم اجزلت من صلات. عدا ما كانت تسرده من الصيام. وتهديه من التحف الى المشاعر الكرام. وبعد ان عزمت على حج بيت الله الحرام. اخترمها دونه الحمام. وكانت ارحم خلق الله للانام.

ولم يذكر ابن مرزوق تاريخ وفاة هذه الوالدة، الذى لا شك انه كان بين عامى 736 و 737 فانها فى تاريخ هذه السفارة عام 736 كانت لا تزال بقيد الحياة. بينما نجد سفارة عام 737 تنعاها للملك الناصر.

اما القائم بهذه السفارة محمد بن الجراح، فلم اقف له على خبر ، وقد يكون شيخ ركب مغربى سار به للحج وقام خلال ذلك بالسفارة بين الملكين .

2 ـ سفارة عام 737

حدد تاريخ هذه السفارة بأنها وقعت اثر فتح تلمسان على ابى الحسن (3). ولا شك ان تاريخ هذا الفتح كان فى 27 رمضان من عام 737. فتكون السفارة ذهبت بعيد هذا التاريخ .

اذ ذاك كتب ابو الحسن للناصر بن قلاوون يعرفه بفتح تلمسان وارتفاع العوائق عن ركب الحاج فى طريقهم. وكان سفيره فى ذلك فارس ابن ميمون بن وردار. ثم عاد السفير بجواب الكتاب. وتقرير المودة بين السلف. هذا ما كتبه ابن خلدون وصاحب الاستقصا (4) عن هذه السفارة.

---

1) روضة النسرين فى دولة بنى مرين لابن الاحمر.

2) قطعة منه انتسخها لى مشكورا الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور

3) تاريخ ابن خلدون (7) 264 الاستقصا.

4) فى المكانين الآنفى الذكر.

ومن حسن الحظ ان يكون كتاب «صبح الاعشى» قد احتفظ بالرسالتين المتبادلتين بين الملكين فى هذا الصدد (I) . وها هى خلاصة وجيزة لهما فيما يلى :

تفتتح رسالة ابى الحسن بالقطعة التى تبت مضمنها فى سفارة عام 736، وبعد ما تنعى لملك مصر والدة ابى الحسن تقول :

واما تشوق ذلكم الاخاء لمواصلة الكتب بسار الانباء فان من اقربها عهدا... ما كان من امر ابن تاشفن صاحب تلمسان... ومن هنا تدخل الرسالة لصميم موضوع السفارة التى تخلله بالحديث عما قامت به الجيوش المغربية من اعمال بافريقيا والاندلس.

فان صاحب الاندلس ابن الاحمر لما استصرخ بابى الحسن على اعدائه جهز معه هذا الاخير ولده فى اربعة آلاف من الابطال الذين نازلوا جبل طارق حتى فتحوه. واناب طاغية النصارى للسلم واسقاط ضريبته على مسلمى الاندلس الذين كانوا يعطونه ما ينيف على الاربعين الفا من الذهب فى العام. ضريبة الزمهم الطاغية اداءها .

وبعد هذا الانتصار اعتنى ابو الحسن بتحصين الجبل. مبتدئا من تحصين اسواره وابراجه بما يغدو على جبينه تاجا واكليلا.

وتتوسع الرسالة كثيرا فى الحديث عن فتح تلمسان الذى تيسر به القصد الى البيت الحرام، وجعل ملك المغرب يتفرغ للجهاد بالاندلس الذى هو الفضيلة المدخرة لهذه الدولة ...

اما رسالة الملك الناصر، فبعد ما افتتحت بتقديم التعزية الحارة فى والدة ملك المغرب، تمنت ان لو قدمت ليتلقاها من ملك الشرق زائد الاكرام، واعلنت انه من ورد من جهة ملك المغرب فان ملك مصر يقابله بما به يليق ويبلغه فى درر السلامة مع الركب السطانى امله من قضاء المناسك والتطواف بالبيت العتيق .

ثم لخصت باقى فصول الرسالة المرينية ، وعلقت على ما احرزه الجيش المرينى من الظفر بالاندلس، بأن ذلك عزة اسلامية جدد الله تعالى على يد المقام بذلك القطر صدورها .

I) رسالة ابى الحسن واردة بصبح الاعشى (8) 87 ــ 99 ، ورسالة الملك الناصر واردة بالصبح (7) 395 ــ 407.

وذكرت ان والد ابى الحسن كان فى كل آونة يخبر الملك الناصر بمثل هذا الفتح، ويذكر ما نال من جزيل المنح. وتلك شنشنة يعرفها من اخزم، وسنة سلك فيها الشبل الصائل سنن ذلك الضيغم الاعظم.

ثم قالت : وحيث سلك المقام سنن والده الشهيد. قضى الود ان نتحفه من احاديث جيشنا بما يشنف سمعه. وهنا تقص الرسالة خبر غزو الجيوش الناصرية لملك الارمن النصارى الذى تسميه الرسالة بمتملك سيس. بما ظهر فى هذا المتملك من المراوغة فى اداء الجزية ومطالبته بتنقيص بعض المقرر، فانهض اليه الملك الناصر جيوشه الابطال. والمجاهدين الابرار. الذين جاسوا خلال تلك الديار. وما برحوا كذلك حتى نازلوا البلد المسمى بآياس وحاصروه حتى اذعنوا للسلم. وطاع ملكهم باداء ما عليه من الجزية، وتسليم قلاع معدودة لنواب الملك الناصر. واستقرار ما عليهم من القطيعة،وعقد الهدنة علىامور محببة عند المسلمين،فظيعة لدىاهل الكفر

هذا بعد ان استولت الجيوش الناصرية على قلاع لهم وحصون، وطلعت الاعلام الاسلامية على قلعة آياس، واعلن فيها بالاذان. وكان الجيش الناصرى اخذ قبل ذلك قلعة بكاورا.

ولما طولع الملك بهذا الخبر السار، من على القوم بالامان. وتقدم الى نوابه بالكف عن قتالهم بعد تسليم القلاع. وهدم الاسوار التى كان بها لاهل الكفر الامتناع. وبعد ذلك ورد عليه كتاب بعض نوابه بالاطراف من اولاد قرمان : بأنهم عند عودهم من سيس اخذوا للكفر تسع قلاع. فتكمل المأخوذ فى هذه السفرة وما قبلها خمس عشرة قلعة، واخيرا تختتم الرسالة بالرغبة التالية :

ونحن نرغب الى المقام ان يواصل بكتبه المفتتحة بالوداد، المشتملة على النصرة على اهل العناد، المشحونة بمواقع الفتح والظفر التى تتضاعف ان شاء الله تعالى وتزداد. المحتوية على الطارف من الاخلاص والتلاد، المتصل سببها بين الآباء الكرام ونجباء الاولاد.

والآن وقد تمت خلاصة الرسالتين نقفى عليهما بالملاحظات التالية :

1) فارس بن ميمون بن وردار القائم بأمر هذه السفارة : من عرب الحشم وصار فى ايام ابى عنان وزيرا له، وكلفه بقيادة الجيش الذى غزا به افريقية. ثم لما تآمر ضده فى هذه الغزوة قتله عند رجوعه بفاس فى 13 حجة من عام 758 (1).

---

1) انظر تاريخ ابن خلدون (7) 297 ـ 298. روضة النسرين 82.

2) محل والدة ابى الحسن سأذكر ما عثرت عليه من خبرها فى رکب عام 738 .

3) وقع فى صبح الاعشى (7) لدى تقديم الرسالة الناصرية : انها جواب عن الرسالة الصادرة من ابن ابى الحسن، ولاشك ان زيادة كلمة «ابن» هنا: سبق قلم. اما من المؤلف او الناسخ. فالرسالة الناصرية فى اثنائها تسمى المخاطب بها عليا، ص 400 س (1) ثم تكنيه بابى الحسين. وتكنى والده بابى سعيد ص 402 س 3، 4، وايضا فصاحب الصبح لما ذكر ج 8 هذه الرسالة المغربية نسبها لابى الحسن نفسه .

3 ـ رسالتان من الناصر

بعثهما لابى الحسن صحبة الشيخين الاجلين ابى محمد عبد الله بن صالح، والحاج محمد بن ابى لمحان. وذلك اثناء رجوعهما من الحج فيما يظهر.

ولم اقف على تفصيل موضوع الرسالتين. وانما وقعت الاحالة عليهما فى قطعة وردت صدر رسالة الناصر لابى الحسن الآتى الحديث عنها فى ركب 738. ويؤخذ من تلك القطعة ان موضوع الرسالتين كان فى شفاعة او نحوها اذ تقول الرسالة الناصرية فى هذا الصدد :

فاما ما ذكره ـ ابو الحسن ـ من ورود الكتابين الواصلين الى حضرته صحبة الشيخين الاجلين ابى محمد عبد الله بن صالح ، والحاج محمد بن ابى لمحان. وانه امضى حكمهما، واجرى رسمهما، فقد «اثرنا للاجر حوزه، واخترنا بالشكر فوزه، وقصدنا بهما تجديد جلباب الوداد، وتأكيد أسباب الولاء على البعاد. والا فمع وجود انصافه الحقوق من غاصبها تستعاد، والوثوق بنصره للمظلوم وقهره للظالم لا يختلف فيه اعتقاد، وقد شكرنا لكم ذلك الاحتفال، واثرنا حمدكم فى المحافل والمحال.

ولم ادر تاريخ الرسالتين بالضبط. انما يعلم انهما لم تقع الاشارة لهما فى رسالة ابى الحسن الآنفة الذكر. والتى تاريخها بعيد 27 رمضان 737 ولا فى جوابها بينما ورد التلويح لهما فى رسالة ابى الحسن الآتية والمؤرخة فى 25 من ربيع النبوى عام 738 وفى جوابها . وعلى هذا تكون رسالتا الناصر وردتا على ابى الحسن بين التارخين المذكورين.

واول حاملى الرسالتين ابو محمد عبد الله بن صالح : يمكن ان يكون من بيت ابى محمد صالح. ويكون هو الفقيه الخطيب حاج بيت الله الحرام ابو محمد عبد الله بن يحيى بن ابراهيم. حفيد الشيخ الامام ابى محمد صالح واخ ابى العباس احمد العلامة الجليل مؤلف «المنهاج الواضح». بقى ابو محمد

هذا على قيد الحياة الى ايـام السلطان موسى بن ابى عنـان المرينى الذى نقله من رباط آسفى الى مراكش، وولاه الخطابة وامامة الخمس بمسجد باب أغمات. وانعم عليه بانعامات واسعة (1). اما رفيقه الحاج محمد بن ابى لمحان فلم اقف له لحد الآن على خبر .

4 ـ سفـارة عـام 738

وقعت هذه السفارة ضمن ركب مغربى جليل ارتبط حديثه بها ارتباطا لا نرى معه بدا من التحدث عن الركب قبل ان نتناول موضوع السفارة .

وقد طارت لهذا الركب شهرة فائقة بالمغرب والشرق. بما كان فيه من الربعة الكريمة التى بعثها ملـك المغرب للمسجـد النبوى المكرم. ومن حج الاميرة المرينية حظية والد ابـى الحسن. ثم ما صحبـه ذهابا وايابا من الهديتين العظيمتين المتبادلتين بين ملكى المغرب ومصر ومـا والاها. وما كان من احتفال الملكين به الاحتفال الشيق .

وكانت قصـة تسيير هذا الركب ان ابـا الحسن لما فتـح تلمسـان وارتفعت العوائق عن طريق الحاج ، اجمع على كتابة نسخة من المصحف الكريم بخط يده لتكون وقفا خالصا منه على المسجد النبوى المعظم. فانتسخها بخطه لهذه الغاية، وجمع الوراقين لتذهيبها وتنميقها، والقـراء لضبطهـا وتهذيبها حتـى اكتمـل شأنها. ثم صنـع لها اوعيـة متعددة متنوعة فائقة الصنعة (2) وكانت محل والدة ابى الحسن ومربيته الحرة مريم اقتضت منه الوعد بالحاج عند ما يملك تلمسان فلما فتحها اراد ان ينجز لها وعده(3)

ذلك كان سبب بعث هذا الركب للبقاع المقدسة. على ان معظم القصد كان نحو الاول (4) . ولذلـك كلـه كان هذا الركب موضـوع احتفال كبيـر بالمغرب والشرق.

فقد كان من اهتمام ابي الحسن به ان بعث فيه وجهاء بنى مرين واعيان العرب، ورجال الدين، والصلاح، وكل من له شهرة بمزية. كما بعث فى رفقة

---

1) استفدت خبر هذا من بعض المقيدات التاريخية.

2) تاريخ ابن خلدون (7) 264 ـ 265، الاستقصا (2) 62. ولم افصل محاسن الصنعة الموجودة فى تلك الاوعية تأخيرا لها الى مبحث الفنون ان شاء الله تعالـى.

3) تاريخ ابن خلدون (5) 440 ـ 441.

4) معظم القصد هذا تشير له رسالة ابى الحسن الآتية خلاصتها.

الاميرة المرينية عددا من نساء الدولة واحظيائها (1). وانضاف لهؤلاء واولئك امم سارت معهم برسم الحج (2) الامر الذى جعله ركبا عظيما للغاية .

والى جانب الربعة الشريفة التى حملها هذا الركب للمسجد النبوى الكريم، بعث ابو الحسن لملك مصر والحرمين الشريفين هدية عظيمة كانت حديث المجالس فى المغرب والشرق، وافاض ملك المغرب من كرمه على الركب، فاعطى للاميرة المرينية 3500 دينار ذهبى كما اعطاها 16.500 دينار منه برسم شراء الرباع بالمدينة المنورة لتكون وقفا مؤبدا على القراء فى الربعة الكريمة، وعلى غيرهم من المالكية. واعطى لقاضى الركب 300 دينار منه وكسوة رفيعة. ولقائده 400 دينار منه وكساوى متعددة ومراكب ـ بغلات ـ وللرسول الحامل للهدية 1.000 دينار منه، ولشيخ الركب 500 دينار منه ولجماعة الضعفاء من الحجاج 600 دينار منه، وبرسم العطاء للعرب 3.800 دينار منه و «300» كسوة . هذا الى العدد الكثير من الذهب العين برسم الوصفان والخدام(3). وفوق ذلك بالغ ابو الحسن فى رسالته (4) للملك الناصر فى التوصية بالحجيج حتى يسهل طريقه فى ذهابه وايابه. مع الرغبة فى ايصال المصحف الكريم للمسجد النبوى المعظم.

ثم فصل هذا الركب من تلمسان بعيد يوم الخميس 25 ربيع النبوى عام 738. اذ ذاك هو تاريخ رسالة ابى الحسن للملك الناصر. ووصل الركب لمصر فى 22 رمضان من العام 738 (5) . فاستبلغ ملكها فى حسن الاستقبال والاحتفال حسبما تصف ذلك رسالة الناصر لأبى الحسن وتقول :

... فقد استقبلناهم ـ اهل ركب المغرب ـ على بعد بالاكرام، واحللناهم من القرب فى اعلا مقام، وصرفنا الى تلقائهم وجه الاقبال والاهتمام، وعرفنا حقهم اهل الاسلام، ونشرنا لهم بفنائنا الاعلام، ويسرنا لهم باعتنائها كل مرام. وامرنا بتسهيل طريقهم، وتوصيل البر لفريقهم. واسدلنا الخلع على

---

1) انظر رسالة ابى الحسن الآنفة الذكر.

2) المسند الصحيح الحسن.

3) المصدر الاخير مع مختصر الاحاطة مصور المكتبة العامة بالرباط رقم 1707 ورقة 167 ومع رسالة ابى الحسن المشار لها قريبا.

4) سيأتى هذا البحث على خلاصتها.

5) هذا التاريخ حدده المقريزى فى السلوك الجزء الثانى من القسم الثانى ص 447 .

جميعهم، واحتفلنا بهم في قدومهم ومقامهم وتشييعهم، واجزلنا لهم اقسام الانعام في توجيههم، وكذلك يكون في رجوعهم، ثم تقول الرسالة الناصرية:

وسطرناها وركبكم المبارك قد رامت السرى نجبائهم، وامت ام القرى ركائبهم، يسايرهم الامن ويصاحبهم... فقد اعدت لهم المير في جميع المنازل، وشدت لهم الهجان البوازل... ووكلت بهم الحفظة في المخاوف، ونصبت لهم الادلة في المجاهل... وشوهد من تعظيمنا لهم ما يحسدهم عليه ملوك الزمان بكل مكان، وكتبنا على ايديهم الى امراء الاشراف بالنهوض في حقهم والوقوف... وكذلك كتبنا الى امراء المدينة المشرفة ان تتلقى بالقبول الحسن مصحفه، وتحله بين الروضة والمنبر، وتجله... وعما قليل يتم حجهم واعتمارهم، ويؤم طيبة الطيبة العاطرة زوارهم... ثم يعودون الينا فنعيد لهم الصلات... ثم يصدرون ان شاء الله تعالى اليكم ركائبكم بالمنح مثقلات، ومطالبهم بالمناجح مكملات.

وبعد الرسالة الناصرية ، ها هو مؤرخ مصر المقريزى في كتابه السلوك (1) يصف استقبال الملك الناصر لهذا الركب، ويفصل كثيرا من مظاهر احتفاله به ويقول :

وكان قد اخرج المهمندار الى لقائهم وانزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح، وهم جمع كثير جدا... ثم نقلت الحرة الى الميدان بمن معها [وفرقهم ـ الناصر ـ في منازله وانزلهم دار كرامته، وقد هيئت بالفرش والماعون] (2) ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلواء والفاكهة في كل يوم بكرة وعشية ما عمهم وفضل عنهم. فكان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأسا من الغنم، ونصف اردب ارزا، وقنطار حب رمان، وربع قنطار سكرا، وثمان فانوسيات شمعا، وتوابل الطعام. وحمل اليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين الف درهم، واجرة حمل اثقالهم مبلغ ستين الف درهم. ثم خلع على جميع من قدم مع الحرة(3) ، فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم . حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول. وحمل الى الحرة من الكسوة ما يجل قدره، وقيل لها: ان تملى ما تحتاج اليه ولا يعوزها شيء. وانما تريد عناية السلطان اكرامها واكرام من معها حيث كانوا. فتقدم السلطان الى

---

1) الجزء الثاني من القسم الثاني 447 ـ 448، ونقل كلام السلوك هذا في النفح (2) 548 والاستقصا (2) 63.

2) ما بين المتعكفين مدرج من كلام ابن خلدون في تاريخه (5) 441.

3) الظاهر ان المراد جميع من قدم معها من اعيان الركب خاصة

النشو(1)والى الامير احمد ان يبعثا بتجهيزها اللائق بها . فقاما بذلك واستخدمها لها السقائين والضوئية، وعينا كل ما تحتاج اليه فى سفرها من اصناف الحلاوات والسكر والدقيق والبجماط، وطلبا الحمالة لحمل جهازها وازودتها ومندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولى الجيزة، وامره ان يرحل بها فى مركب لها بمفردها قدام المحمل، ويمتثل كل ما تامر به وكتب لاميرى مكة والمدينة بخدمتها اتم خدمة.

هذا وحسبما يستفاد من لائحة منح ابى الحسن لهذا الركب، فقد كانت هيئته العليا تتالف من قاض وقائد وشيخ للركب. ولم يسم «المسند» ــ المنقول عنه جل تلك اللائحة ــ من افراد هذه الهيئة. سوى شيخ الركب وابهم اسم من عداه من القاضى والقائد.

والظاهر ان قاضى هذا الركب هو ابو اسحاق ابراهيم بن عبد الرحمن ابن ابى بكر التسولى التازى ثم الفاسى المعروف بابن ابى يحيى؛ احد سفراء هذا الركب للملك الناصر حسبما سيذكر. ومستندى فى ان هذا هو قاضى هذا الركب : ان «المسند» يذكر فى اللائحة المشار لها ان ابا الحسن اعطى لقاضى الركب 300 دينار وكسوة. بينما يذكر مختصر الاحاطة(2) فى لائحة منح ابى الحسن لهذا الركب : انه اعطى ابا اسحاق بن ابى يحيى 300 دينار من الذهب وكسوة رفيعة. ومما يؤيد هذا ان ابا اسحاق المذكور كان شخصية لامعة فى الفقه المالكى تدريسا وتاليفا كما يعلم مما سيذكر عنه بعد.

اما قائد الركب فالظاهر ايضا انه هو ابو سعيد عثمان بن يحيى بن محمد بن جرار التلمسانى. من جلتهم . ذكر عنه ابن خلدون (3) : انه استأذن السلطان ــ ابا الحسن ــ عند تغلبه على تلمسان. فى الحج بالناس. فاذن له، وكان قائد الركب من المغرب الى مكة سائر ايامه حتى استولى على اعمال الموحدين ... وكانت وفاته فى رمضان عام 749 وله ترجمة بالدرر الكامنة (4) .

---

1) هو شرف الدين عبد الوهاب بن التاج فضل الله المعروف بالنشو ناظر الخاص الشريف والمقتول عام 740 تحت عقوبة الملك الناصر انظر «النجوم الزاهرة» (9) 139 .

1') مصور المكتبة العامة بالرباط رقم 1707 ورقة 197.

2) فى تاريخه (7) 114 ــ 115.

3) (2) 452 .

والوحيد الذي عينه «المسند» من هيئة هذا الركب. هو شيخه واميره الذي سماه احمد بن يوسف بن ابي محمد صالح. وهو اسم شهير في مشيخة ركب الحاج المغربي. حسبما ذكره بهذه الخطة ابن الخطيب في «نفاضة الجراب» بل ان عائلته كانت لها عراقة في امارة هذا الركب (1) ومع ذلك فلم يكن ابن ابي محمد صالح هذا شيخا لهذا الركب، وانما كان شيخه واميره هو الحسن بن عمران كما صرحت بهذا رسالة ابي الحسن للملك الناصر المكتوبة في شان هذا الركب وسفارته، والآتية خلاصتها بعد.

ومن هذا يتبين ان جعل ابي العباس ابن ابي محمد صالح شيخا لهذا الركب. سهو ظاهر من صاحب «المسند» سرى له من كون المذكور موسوم بامارة ركب المغرب، وتداولها في بيتهم.

وبحكم وظيفة الحسن بن عمر ان شيخ هذا الركب، فقد كان ـ مع ابي اسحاق بن الشيخ ابي زكرياء يحيى بن عثمان السويدي ممن عينهما ابو الحسن لتقديم محل والدته للملك الناصر (2).

سفـارة الركـب

وضمن هذا الركب كانت السفارة التي اوفدها ابو الحسن على الملك الناصر برسالته التي تشرح مهمتها، وبالهدية المغربية العظيمة. وبالغ ابو الحسن في انتقاء افراد هذه السفارة من خواص مجلسه، وكبار اهل دولته وهم : «1» السفير المغربي الشيخ ابو اسحاق ابراهيم بن ابي زيد عبد الرحمن المعروف بابن ابي يحيى (3) في اعيان القضاة . وهو المذكور فيمامر قاضيا للركب. و «2» الحاجب المريني ابو زيان عريف بن ابي زكرياء يحيى السويدي امير زغبة من عرب بني هلال (4) و «3» خاصة مجلس ابي الحسن عطية بن مهلهل بن يحيى. كبير اخواله من عرب الخلط و«4» كاتبه ابو الفضل محمد بن ابي عبد الله محمد بن ابي مدين العثماني، و «5» عريف الوزعة ببابه الشيخ ابو محمد عبد الله دعى عبو بن قاسم المزوار (5).

---

1) «اسفي وما اليه ص 100

2) هذا افصحت عنه رسالة ابي الحسن للملك الناصر .

3) انفردت بذكره الرسالة الناصرية الآتية خلاصتها بعد .

4) هذا مع الكاتب ابن ابي مدين اتفقت عليه الرسالة الناصرية مع تاريخ ابن خلدون (7) 266، والاستقصا (2) 62 .

5) هذا مع عطية بن مهلهل انفرد بهما تاريخ ابن خلدون والاستقصا.

وذهبت السفارة مع الركب حتى وصلت للملك الناصر وادت له الرسالة والهدية المغربيتين. وهنا نقف لنتحدث عن محتويات كل من الرسالة والهدية ، اما الرسالة فخلاصتها ــ حسب الوارد منها فى صبح الاعشى(1) ــ هو ما يلى :

«... فانا ــ ابا الحسن ــ نحيط علم الاخاء ــ الناصرى ــ ما كان من عزم المولاة الوالدة على اداء فريضة الحج، فاعترض الحمام، دون ذلك المرام. وان لدينا من نوجب اعظامها، وتقيمها بحكم البر مقامها. وعزمها الى ما املته مصروف. وهى محل الوالدة المكرمة. وقد شيعناها الى حج بيت الله الحرام، والفوز من السلام، على الرسول عليه وءاله الصلاة والسلام، بنيل السول والمرام .

وحين شخص لذلكم الغرض موكبها ، أصحبناها من حور دولتنا واحظيائها، ووجوه دعوتنا واوليائها، من اخترناه لهذه الوجهة الحميدة الاثر، من أعيان بنى مرين والعرب، واولاد المشايخ اولى الديانة والتقوى، وكل من له اثرة مشهورة وقصدهم من اداء الحج قصدها .

وهكذا سيرنا من تحف هذه البلاد اليكم ما تيسر فى الوقت تسيير ، وان تعذر فى كثير مما قصدناه ولهذا الغرض اردناه تيسيره، لطول المغيب عن الحضرة والشغل بتمهيد البلاد التى فتحها الله تعالى علينا فى هذه السفرة . وعينا لا يرادها ــ محل الوالدة ــ لديكم. وايفادها عليكم : ابا اسحاق ابن الشيخ ابى زكرياء يحيى بن عثمان السويدى. وامير الركب الحسن بن عمران وغيرهم.

ومقام ذلك الاخاء الكريم يسنى لهم من اليسرى والتسهيل القصد والسول ويامر نواب ماله من الممالك لتكمل العناية بهم فى الممر والقفول

ومعظم قصدنا من هذه الوجهة المباركة ايصال المصحف العزيز الذى خططناه بيدنا، وجعناه ذخيرة يومنا لغدنا. الى مسجد سيدنا ومولانا، وعصمة ديننا ودنيانا، محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وءاله وسلم بطيبة زادها الله تعالى تشريفا ، وابقى على الايام فخرها منيفا.

وقد عينا بيد محل الوالدة المذكورة من المال ما يشترى به فى تلكم البلاد المحوطة من المستغلات ما يكون وقفا على القرأة فيه، مؤبدا عليهم وعلى غيرهم من المالكية فوائده ومجانيه .

---

1) ج (5) 99 ــ 103

والاخاء المذكور يتلقى من الرسل المذكورين ما اليهم فى هذه الاغراض القيناه، ويأمر باحضارهم لادائهم بالمشافهة ما لديهم او عيناه، ويوعز باعانتهم على هذا الغرض المطلوب، وييسر لهم اسباب التوصل الى الامل والمرغوب».

وبعد خلاصة الرسالة المغربية نذكـر ان هدية ملـك المغـرب للملك الناصر كانت جليلة للغاية. فقد قدرت قيمتها بمصر بما يزيد على 100.000 دينار مصرى، وبعث ملك مصر من اصطبلاته لحملها ثلاثين قطارا من بغال النقل سوى ما تبعها من البخاتي والجمال (1).

وانى مـورد عن هذه الهديـة ما ذكره ابن خلدون فى تاريخه، وفى «التعريف بنفسه» ثم اتبع ذلك ببرنامج لهذه الهدية يفصل ما عند ابن خلدون ويزيد عليه، وقد اعتمدت فى سياق هذا البرنامج على ثلاث مصورات من اختصـار الاحاطـة (2)، قابلـت نصوصها بعضهـا ببعض واستخرجت من مجموعها النص الـذى اثبتـه هنا. ثم قابلـت هذا المستخرج على نصى المسند (3) والسلـوك (4) عن هـذه الهدية، فمـا وجدت فيهما من زيادات خللت بها نص اختصار الاحاطة. واضعا لها بين منعكفين. وما كان فيهما من مخالفات نبهت عليه فى التعليق، قال ابن خلدون فى تاريخه : (5).

«ووقفـت على برنامج الهدية بخط ابى الفضل ابن ابى مدين ــ احد رسل ابى الحسن للناصر ــ ووعيته وانسيته، وذكر لى بعض قهارمة الدار انه كان فيها خمسمائة من عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب والفضة

---

1) السلـوك للمقريـزى الجـزء الثانـى 44. مـع تاريـخ ابن خلدون (5) 441 .

2) هذه المصورات الثلاثة هـى : النصـف الثانى الموجود من اختصار الاحاطة للبقنى المحفوظ بمكتبة الاسكوريال تحت رقم 1673 من قائمة م. ليفى بروفنصال. والموجـود منـه نسخة مصورة بالمكتبة العامة بالرباط رقم 1582 ، مع اختصار آخر للاحاطة مجهول المؤلف. يوجد منه نسختان مصورتان بمكتبة الرباط ايضا رقم 1707 ورقم 1578 وكلام الاختصار المذكور عن هذا البرنامج ورد فى ترجمة ابى الحجاج يوسف بن اسماعيل ابن نصر احد سلاطين مملكة غرناطة.

3) لابن مرزوق وقد نقل كلامه فى الموضوع فى النفح (2) 547 والاستقصا (2) 62 ــ 63 .

4) للمقريـزى .

5) (7) 562

ولجمها خالصا، ومغشي وموها، وخمسمائة حمل من متاع المغرب وماعونه واسلحته. ومن نسيج الصوف المحكم : ثيابا واكسية، وبرانس، وعمائم وازرا معلمة، وغير معلمة، ومن نسيج الحرير الفائق المعلم بالذهب : ملونا وغير ملون، وساذجا ومنمقا، ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة بالدباغ المتعارف وتنسب الى اللمط (1) ، ومن خرثي المغرب وماعونه وما يستظرف صناعته بالمشرق.حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت»

وقال في التعريف (2)

« واحتفل فيها ـ ابو الحسن في الهدية ـ ما شاء، وانتقى من الخيل العتاق والمطايا الفره وقماش الحرير والكتان، والصوف ومدبوغ الجلود الناعمة، والاواني المتخذة من النحاس الفخار المخصوص كل مصر من المغرب باصناف من صنائعها. متشابهة الاشكال والانواع. حتى لقد زعموا انه كان فيها مكيلة من اللالىء والفصوص. وكان ذلك وقر خمسمائة بعير. وكانت عتاق الخيل فيها خمسمائة فرس بالسروج الذهبية المرصعة بالجواهر واللجم المذهبة، والسيوف المحلاة بالذهب واللالىء . كانت قيمة المركب الاول منها عشرة آلاف دينار. وتدرجت على الولاء الى آخر الخمسمائة . فكانت قيمته مائة دينار»

وبعد كلام ابن خلدون ها هو نص ابن الخطيب عن برنامج الهدية الذى توسع في الموضوع عن سابقه قال :

نسخة العقد الذى يتضمن هدية السلطان ابى الحسن الى صاحب الديار المصرية صحبة الربعة الكريمة بخطه ـ وهو الذى وقعت الشهادة فيه على متولى قبض الهدية من خدامه (3)

وذلك قبة من مائة بنيقة (4) وفيها اربعة ابواب. وقبة اخرى من ستة

---

1) في كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني : « واهل لمطة اصحاب الدرق ينقعونها في اللبن حولا مجردا فينبو عنها السيف، وان قطع السيف منها شيئا نشب السيف في الدرقة ولم يمكن ان ينزع من الدرقة، والدرقة اللمطية ليس عليها قياس»

2) 338

3) هذه الفقرات الاخيرة مزيدة من «اعمال الاعمال» لابن الخطيب الذى اثبت فيه هذه الهدية ورقة 98 من النسخة المحفوظة بالمكتبة العامة بالرباط رقم 1552 .

4) البنيقة في الاصطلاح المغربي تطلق على البيت الصغير المحجر.

وثلاثين بنيقة داخلها حلة (1) مغلوقة (2) جوفها حرير ابيض ووجهها حرير ابيض. وركيزها (3) «ابنوس وعاج مرصع. واكبار(4) [عامن] فضة مذهبة والشرائط حرير [ملون] ضربت القبتان بالصفصيف (5) وحل فيها جميع الهدية. وصففت جميع الدواب بجهازاتها امام القبة : من الخيل ثلاثمائة وخمسة وثلاثون (6). من البغال بين ذكور واناث [مائة وعشرون] (7) ومن الجمال سبعمائة، الا انها لم تصفف بل اعدت لحمل الهدية (8)، ومن البزاة الاحرار اربعة وثلاثون(9). ومن احجار الياقوت مائتان وخمسة وعشرون (10) ومن قصب الزمرد مائة وثمانية وعشرون ومن حبوب الجوهر الفاخر

---

1) يظهر من سياق هذا العقد ان الحلة صنف مخصوص من الثياب.

2) بالغين المعجمة في نسخة من مختصر الاحاطة وفي نسخة 1582 منه محلوقة بالحاء المهملة وفي نسخة 1588 منه مخلوقة بالخاء المعجمة وعبارة (م) * في هذا : مبطنة مجلة مذهبة .

3) في (م) وعمودها.

4) الاكبار جمع كبر بالتحريك وهو الطبل، واحسبه يقصد بالاكبار التفافيح في اعلى القبة.

5) كذا في نسخة 1707 وفي نسخة 1578 بالصيصف.

6) هذا العدد هو الذي في المسند وتقدم عن ابن خلدون انها كانت خمسمائة. وسكتت المصادر الثلاثة عن شياة هذه الخيول. وتفيد رسالة الناصر الآتية الوانها من شهب، ودهم، وكمت، وحمر، خضر، وشقر.

7) في السلوك للمقريزي لدى حديثه عن هذه الهدية مخالفة لما عند ابن الخطيب وابن مرزوق وابن خلدون في عدد الخيول والبغال. وهذا حديثه عن عددها وجهازاتها : وكان من جملتها ـ الهدية ـ اربعمائة فرس منها مائة حجرة، ومائة فحل، ومائتا بغل، وجميعها بسروج ولجم مسقطة بالذهب والفضة، وبعضها سروجها وركبها ذهب، وكذلك لجمها، وعدتها اثنان واربعون رأسا، منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر.

8) هذا يفيد ان عدد الجمال التي حملت الهدية 700. وتقدم عن ابن خلدون انها «500» .

9) مثل هذا في (م) وفي السلوك ان عدد البزاة «32».

10) عبارة (م) : ومن احجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرون.

*) رمز للمسند الصحيح الحسن لابن مرزوق

اكثره ثلاث «الاف واربعة وستون (1) ومن احجار الزبرجد [مائة و] ثمانية وعشرون ومن [السيوف] المهندات [المحلاة] بحلية الذهب [المنظم بالجوهر] عشرة، [وفيها سيف قرابه ذهب مرصع مع حياصة (2) ذهب مرصع (3)] ومن ازواج مهاميز الذهب عشرة [والسروج عشرة] ومن ازواج الاركـــب عشرة: واحد كله ذهب، وثلاثة كلها فضة، وستة مزججة مذهبة على الحديد، واثنان من المضمات من ذهب [مما يليق بالملوك] وشاشية [حرير] مذهبة [بذهب مكلل بالجوهر، وســروج مخروزة بالفضــة عشــرة]، وحلل [كثيرة منها مذهبة] ثلاثة عشر وعشر كلل، ومخاد حلة ونسق ذهـب مائتــان (4) وانزاق (5) ذهب عشرون، وقدود ستة واربعون (6) وفرشة حلة (7)، وعشر علامــات معششة(8) ، وعشر وقايــات مذهبــة (9) وستة وعشــرون قناعــا

1) هذا العدد فى نسخة 1582. وفى نسخة 1578. اربعة آلاف بدل ثلاثة «الاف وعبارة (م): ومن الجوهر النفيس الملوكى ثلاثمائة واربعة وستون .

2) فى القاموس وشرحه : الحياصة سير يسد به حزام السرج ، وقد استعمل فى كل ما يشد به الانسان حقوه .

3) ما بين المنعكفين هنا هو وحده من السلوك،وما عداه فهو من المسند.

4) عبــارة (م) اوسع مما هنا : ومن الفضال المنوعة ، والفــرش والمخاد المنبوق، والحلل ثمانمائة هـ والفضال : الثوب الذى يبتذل فى الشغل او للنوم، او يتوشح به الانسان فــى بيته، والمنبوق ان كــان بالباء فهو من التنبيق بمعنى الترتيب ولا بعيد ان يكون مصحفا عن المنسوق ، اما الحلل فالظاهر انها تصحيف الكلل بالكاف.

5) النزق والنيزق لغة فى النيزك : وهو الرمح القصير ، وتصحفت الانزاق فى (م) بالاناق .

6) عبارة المسند فى هذا وما قبله : ومن الاناق ــ مصحف الانزاق ــ عشرين مذهبة. ومن الخلادى ستة واربعين هـ. وفى التاج ومـمــا يستــدرك عليه ــ صاحب القاموس ــ الخالدى ضرب من المكاييل.

7) عبارة (م) وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة.

8) فى (م) ــ بنقل الاستقصا ــ : وعشر علامات مغشاة مذهبة.

9) الغالب ان وقايات هنا تصحيف عن رايات التى لم تذكر ثمة وذكرها فى المسند اثر العلامات بلفظ : وعشر رايــات مذهبة، ومما قيل فى الفرق بين العلم والراية ان العلم علامة لمحل الامير يدور معه حيث دار، والراية يتولاها صاحب الحرب، انظر التراتيب الادارية «1» 318.

مذهبة، وثلاثون من وجوه اللحف حرير وذهب (1)، ومائتان من المحرزات الملونة الرفيعة المختمة (2)، وحيطيان احدهما حلة والآخر نزق ذهب (3) وثلاثة وعشرون شقة من الرصان (4) واثنان من حنابل الحلة، وعشرة براقع [مذهبة] للخيل منها ثمانية من الحلة، ومن اجلة الخيل ثلاثون (5)،وثلاث طنافس من الحرير، وحنابل حرير اثنان، وعشرة حنابل من الحرير والصوف، وحنابل وانشريشية وزمورية مائة وسبعة (6) واربعة آلاف (7) من الجلد الشركي والاغماتي ، ومن درق اللمط المثمنة مائتان (8) ومن الاكسية المحررة اربعة وعشرون (9) ، [ومن المشقفات مائة وخمسون] ومن البرانس المحررة ثمانية، ومن الاحاريم ما بين محررة وصوف عشرون (10) ، ومن ازواج المحفف (11) خمسون، وعشر لزمات من الفضة، وستة عشر شقة من الملف [الرفيع].

ذلك ما وقفت عليه من محتويات الهدية المغربية جملة وتفصيلا، ولقد تقبلها الملك الناصر قبولا كريما وحسن لديه موقعها، وكان يوم وفادتها عليه بمصر مشهودا تحدث به الناس دهرا (12).

وقد افاضت رسالة الناصر لابى الحسن فى التعبير عن مدى اكبار الملك الشرقى لتلك الهدية وحسن موقعها لديه وقالت :

---

1) فى (م) : ومن اوجه اللحف المذهبة عشرين.

2) جعلها فى (م) : ثمانمائة.

3) فى (م) جعلهما معا من الحلة.

4) فى (م) عشرون فقط

5) الجل بالضم والفتح للدابة كالثوب للانسان يصان به يجمع على جلال وجمع الجلال اجلة، وعبارة المسند فى هذا : وعشر امثلة مرقومة

6) فى (م) وحنابل مائة واثنى عشر كلها حرير.

7) فى (م) : فى (م) وثلاثون جلدا شرك.

8) فى (م) : واربعة آلاف درقة لمط، منها مائتان بنهود الذهب ، وثمانمائة بنهود الفضة.

9) فى (م) : ثمانية عشر.

10) عبارة المسند : ومن احارم الصوف المحررة عشرين.

11) بحاء مهملة وفاءين فى نسخة 1582 وبحاء وباءين فى نسخة 1707، وبخاء معجمة من اعلى وفاءين فى نسخة 1578 .

12) تاريخ ابن خلدون (7) 365.

«... وعرضوا بين ايدينا ما اصحبتم من الطرف والهدايا التى لا تحملها ظهور البحار فكيف ظهور المطايا، من عقود منظمة، وبرود مسهمة، ومطارف معلمة، ولطائف بالامكان والاتقان معلمة، وصنائع محكمة، وبدائع للافهام مفحمة، وذخائر معظمة، وضرائر للشموس فى الكون والسمة، وبواتر تفرق بين الهام والاجسام والهمام ملحمة، واخاير بمقدار مهديها فى الجلال مفهمة، وخيول مسومة، بالاهلة مسرجة وبالنجوم ملجمة، معودة نزال الابطال معلمة... تسحب من الحرير اذيالا، وتصحب من الوشى سربالا، وتميس بحالها وحلاها عجبا واختيالا، ويقيس مشبهها سرعتها بالبرق فلا يتغالى، غاتيات الاجسام، عاليات كالاكام ... وجنيبة (1) تجر من ذيولها كل فضاض . وحسبت لاختلاف شياتها كانها قطع الرياض : من شهب كانما ارتدت الاقاح ... ودهم نفضت عليها الليالى صبغتها فلا براح... وكمت كأنها متح صلب البطاح... وحمر كأنها خلقت للنجاح ... وخضر كأنها البزاة الموساة الوشاح... وشقر تكبو فى طلبها الرياح... ووراءها البغال . التى تحمل الاثقال ... وعليها الزناريات الموشعة، وحليها الجلال الملمعة، وهى تمشى رويدا، وتبدى قوة وايدا، كان قلامتها قناة عيدا ؟ وهى وافرة الامداد، فاخرة على الجياد، باهرة العدد متكاثرة الاعداد ... فتلقينا اجناسها وانواعها... وقالت الالسنة وطالت فى وصف ما عليه به فتح فاسبان ووضح، وكان لاهل الايمان بنعمته اعظم هناء واكبر فرح».

ثم بعد تقديم تلك الهدية للملك الناصر حسبما اشير له قبل - ذهبت السفارة المغربية ضمن ركب المغرب حتى قضوا فرضهم. وانظر عن المصحف الكريم المبعوث مع هذا الركب للمسجد النبوى، واوقافه، واستمرار القراءة فيه، ما يذكر فى ركبى 749، 745 .

ولما عاد وفد المغرب لمصر كان الملك الناصر قد هيأ لملك المغرب مكافأة له عن هديته هدية عظيمة بقى حديثها مذكورا بين الناس (2) ثم بعثها مع السفراء المغاربة لابى الحسن.

ويعطينا ابن خلدون (3) تفاصيل عن الهدية الشرقية التى عاين اصنافها لما مرت بتونس فى طريقها للمغرب ويبين انها كان فيها «الحمل المتعارف» الذى يحمل كل سنة الى دار السلطان وهو يشتمل

1) عطف على خيول مسومة.

2) تاريخ ابن خلدون (7) 265.

3) فى التاريخ (5) 144، مق التعريف بابن خلدون 338 - 339 .

على ثياب الحرير والقماش المصنوعة بالاسكندرية (1) قيمة ذلك الحمل خمسون الف دينار مصرى، كما كان فيها خيمة من خيام السلطان المصنوعة بالشام على مثال القصور، تشتمل على بيوت للمراقد، واواوين للجلوس والطبخ، وابراج للاشراف على الطرقات، وابراج احدها لجلوس السلطان للعرض، وفيها تمثال مسجد بمحرابه وعمده ومأذنته، حوائطها كلها من خرق الكتان الموصولة بحبك الخياطة، مفصلة عل ىالاشكال التى يقترحها المتخذون لها. [والكفاة(2)مرساة اطرافها فى الارض باوتاد الحديد والخشب كانها قباب ماثلة] وكان فيها ايضا خيمة، مستديرة الشكل، عالية السمك، مخروطة الراس، رحبة الفناء، تظل خمسمائة فارس او اكثر [مؤزر باطنها من ثياب الحرير العراقية، وظاهرها من ثياب القطن الصرافية، مستجادة الصنعة بين الحدل والاوتاد احسن ما يراه من البيوت، كما تشتمل الهدية ايضا على صوان من الحرير مربع الشكل، يقام بالحدل الحافظ ظله من الشمس] وعلى عشرة من الجياد المقربات الملوكية، [بسوج ولجم ملوكية مصنوعة من الذهب والفضة، مرصعة باللآلىء والفصوص، وبعث مع تلك الجياد (3) خدم يقدمون ببنائها المتعارف فيها].

هذا ما ذكره ابن خلدون عن هذه الهدية والغالب انه كان فيها ايضا الكسوة العتيقة للكعبة، يفيد هذا ما جاء فى مسالك الابصار (4) لابن فضل الله العمرى الذى حج فى هذا العام 738 وتولى بيده خلع كسوة الكعبة العتيقة قال : وحملت الكسوة العتيقة فى تلك السنة 738 الى السلطان بمصر، لتجهز الى السلطان ابى الحسن المرينى مع ما يجهز، عوض هدية بعثها فى هذه السنة، صحبة مريم زوجة ابيه... وعوض بنو شيبة والاشراف من بيت المال .

وفى طريق الهدية للمغرب، مرت بتونس ومعها الخدام القائمون بنصب الابنية فعرضوها على سلطان تونس (5)، ثم وصلت الهدية الشرقية

---

1) عبارة تاريخ ابن خلدون (7) 265 : ومن ثياب الاسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب.

2) الكفة حاشية الشيء .

3) كذا فى طبعة مصر لتاريخ ابن خلدون، وظاهر ان الجياد تصحيف عن الخيام .

4) ج (1) 100 ــ 101.

5) التعريف بابن خلدون 339.

الى سلطان المغرب حيث وقعت منه احسن المواقع، واعاد الكتب والرسل بالشكر (1) للملك الناصر.

وفوق هذه الهدية فقد كان الملك الناصر بعث الى ملك المغرب برسالة(2) يجيب فيها عن رسالته المارة خلاصتها.

ويلفت النظر فى هذه الرسالة الشرقية بوجه خاص انها تفيض ودا واخاء نحو ملك المغرب، حتى انها لتستدعيه لحج بيت الله الحرام، وزيارة البقاع المقدسة وتقول عن ذلك فى اواخرها :

والله تعالى يقربه من تلك المواطن، ويدنيه منها بالظاهر وان كان يسرى اليها بالباطن، ويسهل له ذلل الحرم، وان كان قد اعان القاطن والقادم، حتى تحل ركائبه بين المروتين وتجيز، ويكون له بذلك على ملوك الغرب تمييز. وما ذلك على الله تعالى بعزيز .

وزيادة على هذا الموضوع الختامى من الرسالة، فهى تحوى فصولا اخر سبقت نصوصها مبسطة فى مضامين بحث هذا الركب وقبيله، وهى جواب عن فصول الرسالة المغربية فصلا فصلا ، انظر صحائف 7،10،13،30،21

وبعد فهذه ملاحظات ختامية لهذا الركب .

1 – من مقابلة هذه الخلاصة الوجيزة للرسالة الشرقية مع الخلاصة المارة الذكر للرسالة المغربية – يظهر ان بالوارد بالصبح من هذه الرسالة الاخيرة بتراليس بالقليل، فقد سقط من الرسالة المغربية القطعة التى تتحدث عن الرسالتين الواردتين على ملك المغرب من طرف ملك مصر، بينما يثبت جواب ذلك فى الرسالة الشرقية ملفتا النظر للبتر الواقع فى هذا المكان .

كما سقط من الرسالة المغربية النص الذى يسمى طائفة من اعضاء السفارة المغربية المسمين بالرسالة الشرقية .

2 – يظهر ان الرسالة الشرقية بادر الملك الناصر بارسالها قبل سفر الركب والهدية للمغرب . يشير لهذا ما ورد فى مواضع من الرسالة الناصرية من قولها :

وسطرناها – الرسالة المصرية – وركبكم المبارك قد رامت السرى نجائبهم، وامت ام القرى ركائبهم ... ثم يعودون الينا فنعيد لهم الصلات ... ثم يصدرون ان شاء الله تعالى اليكم ركابهم بالمنائح منقلات .

---

1) تاريخ ابن خلدون (5) 441.

2) الرسالة بتمامها واردة بصبح الاعشى (7) 389 – 395.

فهذه الرسالة الناصرية حررت حيث كان ركب المغرب لا يزال فى طريقه الى ام القرى . ومما يفيد ذلك ايضا : ان الرسالة الشرقية لم يشر فيها لبعث الهديــة الناصرية، وعلــى هذا تكون هناك رسالة اخرى وصلت لملك المغرب مع الهدية لم نطلع عليها .

3) صريح رسالة هذه السفارة ان ابا الحسن بعــث فيها مصحفه للمسجد النبوى المعظم، وذلك ايضا مــا يفيده جواب الملك الناصر عنها ، وفى ابن خلــدون وقلده فــى الاستقصا : ان ذلك المصحف الكريم بعثه ابو الحسن لحرم مكــة، وهــو سهــو من ابن خلــدون ومقلده لمخالفته لما فى الرسالتين المغربية والشرقية المقدمتين فى هذا الباب على غيرهما .

4) الذيــن وقفــت على ترجمتهم مــن شخصيات هــذا الركب هم السفراء المغاربة الواردة تسميتهم فى الرسالة الناصرية وهم :

1 ــ ابن ابى يحيــى .

هو ابو اسحاق ابراهيم بن ابى زيد عبد الرحمن بن ابى بكر بن ابى يحيى التسولى التازى ثم الفاسى يكنى ابا سالم، ويعرف بابن ابى يحيى، الشيخ الحافظ، الفقيه القاضــى، من صدور المغــرب، له مشاركة فى العلم، وتبحر فى الفقه، ووجاهة عند الملوك، صحبهم وحضر مجالسهم، واستعملوه فــى السفارة عنهم للاندلس والشرق، وكان حسن العهد، مليح المجالسة ، انيق الحاضرة ، كريم الطبع، صحيح المذهب، فارسا شجاعا، جميل الصورة، نبيه المشاورة، فاره المركــب، هذا الى قيامه على تدريس التهذيب والرسالــة القيروانية وتقييده عليهما مما سيذكر فى محله من هذا الموضوع ان شاء الله تعالى، فلج فى آخر عمره فالتزم منزله بفاس ثم نقل الى داره من تازة بلده فتوفى بها فى حدود عام 749 هـ (1).

2 ــ عريف السويدى .

هو ابو زيان عريف بن يحيى بن عثمان السويدى ثم الزغبى امير بنى زغبة من عرب بنى هلال بسجلماسة قدم على ابى سعيــد والد ابى الحسن فاحله اعلى رتبة، ورفع منزلته، واجزل صلته، واتخذه جليسا وانيسا، ولما تصير

---

1) ترجمــة ابن ابى يحيى بعــدة مصادر منها : مختصــر الاحاطة المطبوع بعنوان (الاحاطــة) (1) 217 ــ 218، والمرقبــة العليــا 136 والديباج . وطبقات المالكية مخطوطة، نسخة المكتبة التطوانية بسلا، والجذوة 84 ــ 85، والدرة ونفح الطيــب (3) والسلوة (3) 253 ــ 254 وفيها ذكر مصادر اخرى عن ترجمته .

الامر لابى الحسن صار فى حجابتـه، ومن خـواص مجلسه، واهل سفارته، سفر عنه للشرق فى هذا الركب ثم سفر عنه لتـونس عام 746 يخطب بنت الملك الحفصى ابى يحيى للسلطان ابى الحسن نفسه وكان جليل القدر، نبيه الذكر، وافر العقل، مشاركا فى العلم والادب والتاريخ، توفى بسلا ودفن الى جانب ابى الحسن بشالة عام 755 (1).

3) ابو الفضل ابن ابى مدين.

هو ابو الفضل وابو المجد محمـد بن ابى عبد الله محمـد بن ابى مدين العثمانى الفقيه الكاتب الشاعر، سماه ابن خلدون صاحب ديوان الخراج (2) وكاتب الجباية والعساكر (3) ووصفه فى (نثير الجمان) (4) لصاحب القلم الاعلى، قائلا : ادركته ورايته وكتـب فى الحضرة المرينية ثم كتب العلامة لامير المسلمين ابى الحسن على المرينى فى حين كان بجبل عامر بن محمد الهنتاتى (حاله) رحمه الله تعالى : كان شاعرا اريبا، وطالبا لبيبا، وكاتبا مصيبا، ذا سمـت جسيـم، وظرف شكل وسيـم، وذكر له قصيدة من شعره نرجئها لبحث الاداب ان شاء الله تعالى.

وفوق سفارة هذا الركب فقد سفر عن ابى الحسن ايضا لابن الملك الناصر ابى الفداء اسماعيـل عام 745 كما سيذكـر، وسفر عنه لتونس عام

---

1) تحدث فى المسنـد الصحيح الحسن فـى ترجمة ابى سعيد عن اتصاله به ومكانتـه لديه (نسخـة خاصة) وذكر المسند ايضـا وفاته ومدفنه فى ترجمة ابـى الحسن وهذه القطعة الثانية وردت ضمن النخب من المسند المنشورة باللغة العربية فى مجلة (هيسبرس) المجلد الخامس، الجزء الاول، من سنة 1925 صحيفة 27 وقد علق ليفى بروفنصـال ناشر النخب المذكورة على تاريخ الوفاة التى هـى خمس وخمسون ... بقولـه : اظنه ثمان، وبعد المسند توجد ترجمة وجيزة لعريف السويدى فى الدرر الكامنة(2) 454 تحدث فيها عن فضله وادبـه، وانظر عنـه ايضا المراجع المذكورة صدر الحديث عن سفارة هذا الركب، مع تاريخ ابن خلدون (7) 267.

2) التاريخ (7) 266 .

3) التاريخ (7) 267.

4) لابن الاحمر نسخة مصـورة عن نسخـة دار الكتـب المصرية محفوظة بالمكتبة التطوانية بسلا.

746 مع عريف السويدي في شأن خطبة الاميرة الحفصية للسلطان ابي الحسن (1) حسبما مر آنفا.

الملاحظة الخامسة : ذكر في النجوم الزاهرة (2) ، مصادرة الملك الناصر لشرف الدين عبد الوهاب بن التاج فضل الله المعروف بالنشو ناظر الخاص الشريف، والمقتول عام 740 تحت عقوبة الملك الناصر، قال : انه وجد له صناديق كثيرة فيها قماش اسكندري مما عمل برسم الحرة جهة ملك المغرب قد اختلسه النشو المذكور.

ومن مزايا هذا الاكتشاف انه يفيد ان تلك الهدية الناصرية التي اثارت اعجاب الناس كان قد دخلها اختلاس كبير، ولو ارسلت للمغرب على حالتها ومن غير اختلاس لتضاعف الاعجاب بها، وكان شانها أعظم.

5 ـ سفارة عام 739

تقدم ان ابا الحسن لما وردت عليه هدية الملك الناصر اعاد الكتب والرسل بالشكر له على ما اسنى من الهدية، هذا ما جاء عن هذه السفارة من غير ان يرد اى تفصيل آخر عنها.

ويوخذ من سياق حديثها انها وقعت عام 739 لانها كانت عقب ورود الهدية الشرقية التي لا شك انها جاءت خلال العام المذكور 739

6 ـ سفارة وركب عام 740

لم يبق من معالم ذلك سوى العبارات التالية الواردة بالعبر (3) :

«ثم انتسخ السلطان ـ ابو الحسن ـ نسخة اخرى من المصحف الكريم على القانون الاول، ووقفها على القراء بالمدينة المنورة، وبعث بها من تخيره لذلك العهد من اهل دولته سنة اربعين وسبعمائة».

ذلك ما تبقى من خبر هذا الركب الذي بعث فيه ملك المغرب مصحفا ثانيا للبقاع الكريمة، وقول هذا النص على القول يريد : من انتساخها بيده، وجمع الوراقين لتنميقها وتذهيبها، والقراء لضبطها وتهذيبها، وتعديد اوعيتها وتنويعها وتصنيعها، على غرار ما فعل بالمصحف الاول. ومما يدل ايضا لانتساخ هذا السلطان المصحف الثاني بيده قول النفح (4) : « كان

1) تاريخ ابن خلدون (7) 267. تاريخ الدولتين للزركشي 64.
2) (9) 139.
3) (7) 265 ومثله في الاستقصا «2» 63 ـ 64.
4) 547

السلطان ابو الحسن المريني قد كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه وارسلها الى المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال...»

ثم من المفيد ان نعيد هنا للذاكرة ما مر في هذا البحث : من ان المصحف الكريم الذي بعثه ابو الحسن مع ركب 738 هو الذي وقفه على القراء بالمدينة المنورة، حسبما تنطق بذلك الرسالتان المتبادلتان في ذلك الركب بين ملكي المغرب والشرق، وعلى هذا يكون المصحف الكريم المبعوث مع هذا الركب 740 أوقف على القراء بالمسجد الحرام بمكة المكرمة لا بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة

ومن هذا يعلم ان ابن خلدون اشتبه عليه الامر في الموضعين، فذكر عن مصحف ركب 38 : انه بعث لمكة والواقع انه مبعوث للمدينة. وعن مصحف هذا الركب لعام 40 : انه مبعوث للمدينة مع انه ارسل لمكة والله تعالى اعلم .

وبعد ذلك كله نبين ان رسالة ابي الحسن الآتية خلاصتها في ركب 745 ـ تفيد ان هذا المصحف الكريم المبعوث لمكة المكرمة مع المصحف الشريف المبعوث قبله للمدينة المشرفة ـ قد وصلا لمكانيهما، واذن الملك الناصر للمتوجهين بهما في شراء رباع توقف عليهما ، ورسم المراسم بمسامحتهما، حيث جرت احوال القراء فيهما بذلك الخراج المستفاد، ريثما يصلهم ما وقف عليهم ببلاد المغرب. كما تفيد تلك الرسالة ان ابا الحسن بعث في ذلك العام 745 كاتبه ابا المجد ابن ابي مدين المار الترجمة ليتفقد احوال تلك الاوقاف، ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد واسراف، وان يتخير لها من يرتضى لذلك.

وان هذه السفارة هي آخر سفارة مغربية استقلها الملك الناصر المتوفى عام 741 بعد ملك طويل عاصر فيه خمسة من ملوك بني مرين من ابي يعقوب الى ابي الحسن، ثم بعد هذه السفارة وقف بعث الحجيج المغربي والسفارات للبقاع المقدسة بضع سنوات. ومن سبب ذلك ما اعقب موت الملك الناصر من الفتن الداخلية(1) الناشئة بين ابنائه والتي ضعف بسببها امن طريق الحاج. فلما ان وصل الخبر لملك المغرب باستقرار الملك الناصري في نصاب ابنه الصالح ابي الفداء اسماعيل عام 743 واستتباب الامن في طريق الحاج بعث بركب عام 745 الذي نتحدث عنه فيما يلي :

1) حديث الفتنة الداخلية بالبلاد المصرية وما بعده مستقى من رسالة ابي الحسن الآتية خلاصتها في الركب التالي لعام 745

7 ـ ركب عام 745 وسفارته

ذهبت فيه جماعة كثيرة في مقدمتهم الاميرة المرينية الحرة مريم اخت السلطان ابى الحسن التى كانت صحبة الكاتب ابى الفضل بن ابى مدين مار الترجمة في ركب 738.

وقد قام ابو الفضل في هذا الركب ايضا بالسفارة لدى السلطان الجديد بالديار المصرية الملك الصالح ابى الفداء اسماعيل ابن الملك الناصر وكانت الغاية في هذه السفارة تعزية الملك الشرقي في والده. وتهنئته بوراثة ملك الديار المصرية، والرغبة في مساعدة السفير المغربي على تفقد احوال المصحفين اللذين اوقفهما ملك المغرب على الحرمين الشريفين، مع التوصية بركب الحاج المغربي حسبما تتضمن ذلك رسالة هذه السفارة التى حملها ابن ابى مدين للملك الصالح مع الهدية المغربية التى لم اطلع على تفاصيلها بعد .

ويظهر ان خروج السفير المغربي لوجهته ضمن الركب ـ كان بعيد 26 صفر الخير من العام 745 لان ذلك هو تاريخ تحرير الرسالة المغربية ، ثم وصل لمصر في منتصف شعبان من هذا العام فاقتبله ومر معه الملك الصالح اقتبالا مشرفا.

ولقد قام هذا السفير بمهمته احسن قيام، وكان شأنه عظيما في اظهار ابهة سلطانه، والانفاق على المستضعفين في الحاج في طريقه، واتحاف رجال الملك الصالح بذات يده مع التعفف عما في ايديهم .

ثم بعد ما قضى السفير المغربي فرضه مع الركب عاد بجواب الملك الصالح المؤرخ بسادس شهر رمضان عامه 745، وهو من انشاء صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي الشافعي (1) والى القارىء خلاصة الرسالتين (2) المتبادلتين بين الملكين اللتين تفضيان ودا واخاء بين المغرب والشرق :

(الرسالة المغربية) : يفتتح المقصود منها بهذه الفقرات الودية :

---

1) حديث هذا الركب وسفارته مأخوذ من تاريخ ابن خلدون (7) 265 ـ 266 والنفح (2) 549 والاستقصا (2) 68 ، 71 ، 72 ومن الرسالتين الآتية خلاصتهما

2) يحتفظ بنص الرسالتين معا النفح (2) 540 ، 547 مع الاستقصا (2) 68 ـ 74 .

«فلا خفاء بما كانت عقدته ايدى التقوى، ومهدته الرسائل التى على الصفاء تطوى، بيننا وبين والدكم نعم الله روحه وقدسه، وبقربه مع الابرار فى عليين أنسه، من مؤاخاة احكمت منها العهود تالية الكتب والفاتحة، وحفظ عليها محكم الاخلاص معوذتاها المحبة والنية الصالحة، فانعقدت على التقوى والرضوان ، واعتضدت بتعارف الارواح عند تنازح الابدان ، حتى استحكمت وصلة الولاء ، والتأمت كلحمة النسب لحمة الاخاء »

وبعد هذه الفاتحة الودية تتناول الرسالة وفاة الملك الناصر فتذكر - فى تحرق - كيف تلقى الملك المغربى نعى الملك الناصر من بعض الواردين ، ثم كيف عميت الاخبار ، عما اجلى عنه ليل الفتن بتلك الاوطان ، الى ان جاء البشير : بأن الله تعالى اطفا نار تلك الفتن بولاية ابنه «محل ولد ابى الحسن» الملك الصالح ابى الفداء اسماعيل الذى تعزيه الرسالة المغربية فى موت والده، تهنيه بما ناله من وراثة مملكة والده، مؤكدة له بقاء الملك المغربى على ما عاهد عليه الملك الناصر، قائلة فى هذا الموضوع:

«ونحن على ما عاهدنا عليه الملك الناصر - رضوان الله تعالى عليه - من عهود موثقة، وموالاة محققة، وثناء كمائمه عن اذكى من الزهر غب القطر مفتقة»

واثر هذا تقص الرسالة ما كان من بعث ابى الحسن بالمصحفين الاكرمين اللذين خطهما بيمينه الى الحرمين الشريفين ، وما كان من اذن الملك الناصر للمتوجهين بهما فى شراء رباع توقف عليهما، ورسمه المراسم بمسامحتهما على وجه التأبيد، فجرت احوال القراء فيهما بذلك الخراج المستفاد - ريثما يصلهم من خراج ما وقفه عليهم ملك المغرب ببلاده - على ما رسمه الملك الناصر من عناية بهم متصلة، واحترام فى تلك الاوقاف فوائدها متوفرة متحصلة . وفى هذه الوجهة امر ابو الحسن سفيره وحامل رسالته للملك الصالح وهو كاتبه ابو المجد ابن كاتبه الشيخ الحاج ابى عبد الله ابن ابى مدين : بأن يتفقد احوال تلك الاوقاف ، ويتعرف تعرف الناظر عليها وما فعله من سداد واسراف، وان يتخير لها من يرتضى لذلك. وبسطت الرسالة المغربية هذه القصة بين يدى الملك الصالح لما يقتضيه كما له من تخليد ذلك البر الجميل، وتشييد ما اشتمل عليه من الشراء الاصيل، والتقدم بالاذن السلطانى فى اعانة السفير المغربى على ما يتوخاه فى ذلك الشأن من طرق الصواب.

وبحسب المصافاة، ومقتضى الموالاة بين الملكين - اخذت الرسالة المرينية تشرح للملك الصالح المتزايد من الاخبار بالجهات المغربية، قاصة عليه ما منى به المغرب والاندلس فى «وقعة طريف» او «موقعة سالادو» .

وذلك ان ملك المغرب لما اعتزم على الجهاد، استجابة لاستصراخ اهل الاندلس وسلطانهـا ـ اخبـر ان الكفـار قد جمعوا احزابهم، وفرض عليهم بابامم التناصر من كل اوب، وان تقصد طوائفهم البلاد الاندلسية بايجافها، ليمحوا كلمة الاسلام منها، فقدم ملك المغرب من يشتغل بالاساطيل مـن القواد، وسار على اثـرهم الى سبتة باب الجهـاد، فما وصلها الا وقد سدت اجفان النصارى مجاز العبور باجفانهم التى لا تحصى عددا، وارصدوها بمجمع البحرين حيث المجاز الى الجهاد. هذا فى البحر. وفى البر حاصروا الجزيرة الخضراء التى صمموا على اخذها، ومع هذا الحصار المزدوج حاول الملك المغربى امداد تلك البلاد بحسب الجهد، واعانهم بما امكن من الجند، وجهز اجفانا مختلسا فرصة الاجازة على خطر، وامر لصاحب الاندلس بما يجهز به حركته مـن المال، واجـرى له ولجيشـه العطاء الجزل مشاهرة، وجعلت الاجفان المغربية تتـردد فى ميـنـاء السواحل، وتلج ابواب الخوف العاجل، لاحراز الامن الآجل، مشحونة بالعدد الموفورة، والابطال المشهورة، والخيل المسومة، والاقوات المقومة، فمـن ناج حارب دونه الاجل، وشهيد مضى لما عند الله عز وجل، وما زالت الاجفان تتردد على ذلك الخطـر، حتى تلف منها سبع وستون قطعة حربية. ثم لم يقنع ملك المغرب بهذا الامداد، فبعث احد اولاده مساهمة به لاهل تلك البلاد ، فلقى من هول البحر وارتجاجه، والحاح العدو ولجاجه، ما به الامثال تضرب . ولما خلص لتلك العدوة بمن ابقته الشدائد، نزل بازاء الجيش النصرانـى حتى كان منه بفرسخيـن او ادنى ، يصابح العدو ويماسيه بالحرب. وقد كان بين الامدادات المغربية لتلك البلدة جيش عظمت نكايته فى الاعداء على قلته ازاء الجيش النصرانى .

ومع ذلك كله فالمطاولـة بحصار الجزيرة الخضـراء فى البحر مدة ثلاثة اعوام ونصف، ومنازلتها فى البحر نحو عامين معقودا عليها الصف بالصف، ادى الـى فناء الاقـوات ـ الـذى تحققه النصارى ايضا ـ حتى لم يبق لاهل البلد المحصور ـ الذين يربوا عددهم على عشرة آلاف دون الحرم والولد ـ قوت شهر مع انقطاع المدد، وذلك ما دعا ملك المغرب لان ياذن لسلطان الاندلس فى عقد الصلح ـ المرير ـ مع النصارى الذين انعقد معهم لمدة عشر سنين، حيث خرج من بالجزيرة الخضراء من فرسان ورجـال واهل وبنين بمالهم وعدتهم ما رزئوا منها شيئا. ولما وصلوا الى ملك المغرب اجزل لهم العطاء : من خيل عتاق تزيد على الالف، وخلع تربوا على عشرة آلاف، واموال عمت الغنى والفقير، ورعاية شملت الجميع بالعيش النضير.

وقد كان من لطف الله تعالى حين قضى باخذ هذا الثغر ان فتح على ملك المغرب جبل طارق (1) وهو المطل على الجزيرة الخضراء، والفرصة منه ان شاء الله تعالى متيسرة .

وهنا تذكر الرسالة الاسباب القاهرة الحافزة لتسليم تلك البلدة، وانه لولا اجلابهم من كل جانب، وكونهم سدوا مسلك العبور بما لجميعهم من الاجفان والمراكب، لما بالى ابو الحسن باصفاقهم، ولحل بعون الله تعالى عقد اتفاقهم. ولكن للموانع احكام، ولا راد لما جرت به الاقلام.

وبعد ما امر ملك المغرب لجبل طارق بمزيد المدد، وتخير له ولسائر بلاد الاندلس الاسلامية العدد والعدد، عاد لفاس عاصمة المملكة لاستجمام الجيوش واعداد العدة لانتهاز الفرصة عند ظهورها. وعند عودته لعاصمته تيسر الركب الحجازى موجها الى الجهات المشرقية، فاصدر للملك الصالح هذه الرسالة التى ختم المقصود منها بهذه العبارات الودية الفائقة :

«فأصدرنا اليكم هذا الخطاب، اصدار الود الخالص والحب اللباب . وعندنا لكم ما عند احنى الاباء واعتقادنا فيكم فى ذات الله تعالى لا يخشى جديده من البلاء ، وما لكم من غرض بهذه الانحاء، فموفى قصده على اكمل الاهواء ، موالى تتميمه على اجمل الاراء ، والبلاد باتحاد الود متحدة، والقلوب والايدى على ما فيه مرضاة الله عز وجل منعقدة »

وبعد الرسالة المغربية ها هى الرسالة الشرقية تتناول الجواب عن فصول سابقتها فصلا فصلا :

فتستهل المقصود منها بالجواب عن العزاء بالملك الناصر ، مبدية ارتياحها لما ورثه منه الملك الصالح من حسن الاخاء لملك المغرب، والوفاء بعهود مودة تشبه فى اللطف شمائله .

وتثنى بالشكر الحار عن التهنئة بوراثة الملك ، تلك التهنئة التى تحقق بها الملك الشرقى حسن الود الجميل من جهة الملك المغربى وكريم اخائه الذى لا يميد طود رسوخه .

امـا ما تذكره رسالة المغرب فى امر المصحفين الكريمين الشريفين اللذين وقفهما ملك المغرب، على الحرمين المنيفين ، وانه جهز كاتبه ابن ابى مدين لتفقد احوالهما، والنظر فى امر اوقافهما... فتجيب الرسالة الصالحية

---

1) هذا الجبل فتح على ابى الحسن قبل وقعة طريف بنحو ثمان سنين فان فتحه كان اواخر عام 733، وقد كان ابو الحسن اخبر الملك الناصر بفتحه فى رسالة سفارة عام 737.

عن هذا الفصل بان الكاتب المذكور وصل بمن معه في جرز السلامة. واكرم الملك الصالح نزلهم، وحضر السفيـر المغربي بين يديه، وامره في امر المصحفين الشريفيـن بما اشار بـه الملك المغربي، ورسم لنوابه في توخي اوقافهما طبق الملتمس المغربـي. وفق هذا تطمئن الرسالة الشرقية ملـك المغرب بان وقفه المبرور مرعى الجوانب، «امن من ازالة رسمه ، او اذالة حكمه، بل له مزيد الرعاية وافادة الحماية ووفادة العناية».

واما ما تقصه الرسالة المرينية من نكبة الجزيرة الخضراء، وما ضاع فيها من القطع الحربية ، فتقابل الرسالة الصالحية هذا النبأ بتحسر لا مزيد عليه معلنة عن تفجعها وتفجـع اهل الاسلام لذلـك، متاسفة على عدم امكان المساعدة العسكرية، لمكان البعد الكبير بين المملكتين، وذلك كله ما تفصح عنه القطعة التالية من الرسالة :

«واما ما وصفتموه من امر الجزيرة الخضراء وما لاقاه اهلها، ومنى به من الكفار حزنها وسهلها، فانه شق علينا سماعه الذى انكى اهل الايمان ، وعدد به نوب الزمان ، كل قلب بانامل الخفقان، وطالما فزتم بالظفر، ورزقتم النصر على عدوكم فجر ذيل الهزيمة وفر، ولكن الحرب سجال، وكل زمان لدوايره دولة ولرجاله رجال، ولـو امكنت المساعدة لطارت بنا اليكم عقبان الجيـاد الموسومــة، وسالت علـى عدوكم اباطحهم بقسينا المعوجة وسهامنا المقومة، وكحلنا عيون النجوم بمراود الرماح، وجعلنا ليل العجاج ممزقا ببروق الصفاح، واتخذنا رؤوسهم لصوالج القوائم كـرات، وفرجنا مضايق الحرب بتوالي الكرات، وعطفنا عليهم الاعنــة، وخضنا جداول السيوف ودسنا شوك الاسنة، وقلقنا الصخرات بالصرخات واسلنا العبرات بالرعبات .

ولكن اين الغاية من هذا المدى المتطاول، واين الثريا من يد المتناول، وما لنا غير امدادكم بجنود الدعاء الذى ترفعه نحن ورعايانا، والتوجه الصادق الذى تعرفه ملائكة القبول في سجايانا.

واما ما فقدتموه في الاجفان التى طرقها طيف الائتلاف، وام حرم فنائها الفناء وطاف به بعد الالطــاف، فقــد روع هذا الخبر قلب الاسلام، ونوع له الحزن على اختلاف الاصباح والاظلام، وهذه الدار ما يخلو صفوها من كدر القدر، وطالما انامت بالامن اول الليل وخاطبت بالخطب في السحر، ولكن في بقائكم ما يسلى عن خطـب العطف، ومع سلامة نفسكم الكريمة فالامر هين لان الدر يفدى بالذهب»

وبعد هـذه القطعة الاخوية تعـود الرسالـة للجواب عن باقي فصول الرسالة المغربية، فتبارك على ما رآه ابو الحسن من الصلح في وقعة طريف كحل لا مناص منه اذ ذاك، آملة ان يرد الله تعالى الردى ويعيد الظفر بالعدا .

ثم تبرر عود الملك المغربي لعاصمة فاس بان ذلك امر ضروري التدبير سروري التشمير.

ولما تذكر فتح جبل طارق تظهر ارتياحها لهذا الفتح، مترجية ان يكون سببا الى ارتجاع ما شرد، وحسما لدلـك الطاغيـة الذي مرد، وتتفاءل لملك المغرب من هذا الجبل، بانه طارق خير من الرحمن يطرق ، وجبل يعصم من سهم يمر من قسي الكفار ويمرق .

وبعد هذا تنوه بعطايا ابن الحسـن لمنكوبي الجزيرة، وتشكره على عمله احر شكر.

واخيرا تجيب الرسالة الشرقية عن (بعث الركب المغربـي لوجهتـه) بالعبارات الودية التالية التي هي مسك ختام المقصود في تلك الرسالة :

«واذا وصل وفدكم الحاج، وانـار له بوجه اقبالنا عليهم ليلهم الداج، كانوا مقيمين تحت ظـل اكرامنا، وشمول اسعافنا لهم وانعامنا. يتخولون تحفا انتم سببها، ويتناولون طرفا في كؤوس الاعتناء بهم يتضد حببها ، واذا كان اوان الرحيل الى الحج فسحـنا لهم الطريق، وسهلنا لهم الرفيق وبلغناهم بحول الله تعالى مناهم مـن منى، وسؤلهم ممـن اذا زاروا حجراته الشريفة حازوا الراحة من العنا، وفازوا بالغنى ، واذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة الدرب ، ويخيل اليهم ان لا مسافـة لمسافـر بيـن الشرق والغرب، وغمرناهم بالاحسان في العود اليكم، وامرناهم بما ينهونه شفاها لديكم» .

واذ تم المقصود من هذه الرسالة، نتبع ذلك بملاحظات :

الاولـى : تفيد تلك القطعة الختامية من الرسالـة الشرقية، ان ركب المغرب لم يكن وصل لمصـر في تاريـخ تلك الرسالة ـ 6 رمضان 745 ـ لقولها : واذا وصل وفدكم الحاج ... مع ان المقريزي في «السلوك» يذكر ان الحرة مريم قدمت ـ لمصر ـ في منتصف شعبان من العام 745 في جماعة كثيرة. واذا اخذنا بالنصين معا نحمل الجماعة الكثيرة في كلام السلوك على خصوص حاشية الاميـرة المرينية، ونحمل وفد الحـاج المنتظر قدومه في الرسالة الصالحية على معظم الركب، فتكون الحرة وحاشيتها وعلى رأسهم ابن ابي مدين سبقوا الركب لمصر التي قدموها في منتصف شعبان، ويكون

معظم الركب تأخر الى ما بعد سادس رمضان تاريخ تحرير الرسالة الشرقية ثم التحقوا بالاميرة وحاشيتها بعد ،

الملاحظة الثانية : صادفت الرسالتان المرينية والصالحية اقبالا ادبيا طريفا لدى بعض المقامات العلمية بالشرق، فتداولوهما بالقراءة والرواية،مثال ذلك ان عز الدين ابن شيخ السلامية الحنبلي رواهما عن منشى الثانية الصلاح الصفدي بقراءة الاول ، وكتب الصلاح الصفدي في ذلك ما نصه :

«اما بعد حمد الله تعالى على نعمائه، وصلاته على سيدنا محمد عبده ورسوله خاتم انبيائه، فقد قر الشيخ الامام للعالم العامل العلامة المفيد القدوة عز الدين ابو يعلى حمزة، ابن الرئيس الكبير الفاضل القاضي قطب الدين موسى بن احمد ابن شيخ السلامية الاحمدي، امتع الله بفوائده، الكتاب الوارد من سلطان المغرب الملك المجاهد المرابط ابي الحسن المريني صاحب مراكش، تغمده الله تعالى برحمته، والجواب عنه عن السلطان الشهيد، الملك الصالح، عماد الدين، اسماعيل، ابن السلطان الشهيد، الملك الناصر محمد، قدس الله تعالى روحهما، من انشائي، وانا اسمع ذلك جميعا من اولهما الى آخرهما، قراءة اطربت السمع لفصاحتها، وامالت العطف لرجاحتها :

واخجلت ورق الحمى باللوا ... ان صدحت في ذروة الغصن
تكاد من لطف ومن رقة ... تدخل في الاذن بلا اذن

وذلك في مجلس واحد، في ذي القعدة سنة 756 بالجامع الاموي بدمشق المحروسة، فان رأى رواية عني فله علو الرأي في تشريفي بذلك ، وكتبه خليل بن ايبك الصفدي الشافعي عفا الله عنه (1)» وابو يعلى ابن شيخ السلامية قارىء الرسالتين على الصفدي ـ شخصية لامعة في العلم والامامة والتأليف، ترجمه في الشذرات (2) فيمن توفي عام 769 .

الملاحظة الثالثة : كان مع هذه السفارة رسالة ثانية بعثها ابو الحسن على يد اخته مريم السالفة الذكر، وتتضمن ـ حسب موجزها الذي احتفظ به «السلوك» ـ « رغبة ملك المغرب ان يدعو له الخطباء يوم الجمعة واهل الصلاح والخير بالنصر على عدوهم ، وان يكتب لاهل الحرمين الشريفين

---

1) كتابة الصفدي هذه رآها المقري بخط منشيها اثر ذكره الرسالة الصالحية ، واثبتها بالنفح (2) 547

2) (6) 214

بذلك» والظاهر ان الشـرق استجـاب لنداء المغرب، والغالب ان من مظاهر هذه الاستجابة ما جاء في «المسند الصحيـح الحسن» من قولـه : «ووقف علمه ـ ابى الحسن ـ على جبـل عرفة وجهر له الخطيب في الموقف بالدعاء ودعى له على المقام».

8 ـ ركـب عـام 747 وسفارتـه

هذا الركب بقى من آثاره اسم قاضيه تقى الدين عبد الله بـن محمد ابن عبد الله بن ميمون الهرغى المولود عام 705، والذى حج عام 747 قاضيا للركب المغربى (1).

ومع هذا الركب او في ركـب 746 بعث ابو الحسن بثالث المصاحف الكريمة التى خطها بيده الى حرم بيـت المقدس الشريـف حيث وقفه على القراء هناك. ومستندى في التحديد لتاريخ ارسال هذا المصحـف بعامـى 46 او 47 ـ انه لحد عام 745 كان ابـو الحسن انما بعـث مصحفى الحرمين الشريفين فقط حسبما تنطق بذلك الرسالتين المتبادلتين بين ابى الحسن والملك الصالح في هذا الصدد ، ثم نجد ابن الوردى ، يذكر في تاريخه (2) اثناء حوادث عـام 748 : «ان ابـا الحسن كتب مـن مدة قريبة بخطه ثلاثة مصاحف ووقفها على الحرمين الشريفين وعلى حرم القـدس» وهذا ناطق بأن أبا الحسن في عام 748 كان قد بعث بمصحفه الثالث لبيت المقدس.

فاذا كان أبو الحسن في عـام 745 ما زال لم يبعـث بمصحف القدس الشريف وفي عام 748 كان المصحف قد وصل لبيت المقدس ـ فلا يعدو تاريخ ارساله ان يكون في احد العامين : عام 48 او في عام 47 الذى تميل النفس لترجيحه على سابقه لان هذا العام وجد فيه آثار ركب ذهب للشرق بخلاف عام 46 .

---

1) يوخذ هذا من الدرر الكامنة (2) 236.

2) المسمـى «تتمـة المختصر، في اخبـار البشـر» اختصر فيه: «المختصر في اخبـار البشر» للملك المؤيد في نحـو ثلثيه وزاد على الاصل بعض الزيادات والقطعة المنقولة منه واردة بالجزء الثانى ص 348.

ويفيد ابن الوردى (1) ان ابا الحسن جهز مع المصاحف الثلاثة ـ بما فيها مصحف حرم القدس ـ عشرة آلاف دينار اشترى بها املاكا بالشام ووقفت على القراء والخزنة للمصاحف المذكورة (2)، وكتب سلطان مصر وما والاها توقيعا بمسامحة تلك الاوقاف .

كما يفيد المقرى (3) بأن هذا المصحف الشامى بقي قائما ببيت المقدس الى القرن الحادى عشر (4) حيث رآه هناك ومدح ربعته بانها فى غاية الصنعة. وبعد هذا نذكر ان ابن خلدون ساق فى تاريخه (5) حديث هذا المصحف الشامى مساقا لم يخل من سهو واضح، فهو يذكر ان ابا الحسن انما شرع فى كتابة ذلك المصحف بعد استلائه على افريقية .

وهذا اول الغلطين الواقعين لابن خلدون فى هذا الموضوع ، فان المصحف الشامى بعد فتح افريقية ـ الواقع فى 8 جمدى الاخرة عام 748 ـ كان قد وصل لبيت المقدس ووقف هناك حسبما ينطق بهذا ما مر «انفا عن ابن الوردى الذى كان وقت هذا الوقف يدون تاريخه، وتحدث فيه اثناء حوادث 748 عن وقف ابى الحسن لمصحف بيت المقدس كشيء وقع من مدة قريبة. وهذا يبين بدون شك غلط ابن خلدون واضحا فيما ذكره.

ثم يذكر ابن خلدون ان ابا الحسن هلك قبل اتمام نسخ ذلك المصحف، وهذا ايضا سهو منه فان النسخة كملت ووصلت لبيت المقدس قبل وفاة ابى الحسن بنحو اربعة اعوام، حسبما يشهد لهذا كلام ابن الوردى المشار له «انفا، ثم ها هو مؤرخ مغربى يشهد بوصول ذلك المصحف لبيت المقدس وهو المقرى الذى عاينه وقال عن ذلك فى النفح (6) : « ... وقد رأيت احد المصاحف المذكورة وهو الذى ببيت المقدس، وربعته فى غاية الصنعة.

---

1) فى تاريخه المذكور اخيرا (2) 348.

2) تقدم ذكر وقف ابى الحسن على مصحفى الحرمين الشريفين وتوقيع الملك الناصر بمسامحة تلك الاوقاف انظر ركبى 38، 45.

3) فى النفح (2) 547.

4) ثم تبين انه لا يزال موجودا الى هذا العصر.

5) (7) 266.

6) (2) 547.

وبعد فها هي مقتبسات (1) في توقيع سلطان مصر وما والاها بمسامحة الاوقاف الشامية المارة الذكر . وهو من انشاء الاديب الشهير الشيخ جمال الدين ابن نباتة المصرى احد الموقعين اذ ذاك بدمشق، واوله :

«الحمد لله الذى ارهف لعزائم الموحدين غربا، واطلعهم بهممهم حتى فى مطالع الغرب شهبا، وعرف بين قلوب المومنيـن حتى كان البعد قربا، وكان القلبان قلبا، وايد بولاء هذا البيت الناصرى ملوك الارض وعبيد الحق سلما وحربا، وعضد ببقائه كل ملك اذا نزل البر انبته يوم الكفاح أسلا ويوم السماح عشبا، اذا ركب البحر لنهب الاعداء كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا، واذا بعث هداياه المتنوعة كانت عرابا تصحب عربا، ورياضا تسحب سحبا، واذا وقف اوقاف البر سمعت الافاق من خـط يده قرءانا عجبـا، اهتزت بذكراه عجبا.

ومنها : وذوا لولاء قريب وان نأت داره، ودان بالمحبة ان شط شط بحره ومزاره، وهو بأخباره النيرة محبوب كالجنة قبل ان ترى، موصوف كوصف المشاهد وان حالت عن الاكتحال بطلعته أميال السرى. ولما كان السلطان ابو الحسن ـ سر الله ببقائه الاسلام والمسلمين، وسره بما كتب من اسمه فى اصحاب اليمين، وما ادراك ما اصحاب اليمين ـ هو الذى مد اليمين بالسيف والقلم فكتب فى اصحابها، وسطر الختمات الشريفة. فنصر الله حزبه بما سطر من أحزابها، ومد الرماح ارشية فاستقت من قلوب الاعداء قليبا، والاقلام اروية فشفت ضعف البصائر وحسبك بالذكر الحكيم طبيبا .

ومنها : ثم وصلت ختمات شريفـة كتبها بقلمه المجيد المجدى، وخط سطورها بالعربى وطالما خط فى صفوف الاعداء بالهندى.

ومنها : وامر بترتيت خزنة وقراء على مطالع افقها، ووقف اوقافا تجرى اقلام الحسنات فى اطلاقها وطلقها، وحبس املاكا شامية تحدث بنعم الاملاك التى سرت من مغرب الشمس الـى مشرقها، ورغب فى المسامحة على تلك الاملاك من احكار ومئونـات واوضـاع ديوانية وضع بها خط المسامحة فى دواوين الحسنات المسطرات ، فأجيب على البعد داعيه ، وقوبل بالاسعاف والاسعاد وقفه ومساعيه.

---

1) هذه المقتبسات واردة بتاريخ ابن الوردى (2) 348 ـ 349

وختمها بقوله : والله تعالى يمتع من وقف هذه الجهات بما سطر له في اكرم الصحائف، وينفع الجالس مـن ولاة الامور في تقريرها ويتقبل في الواقف» .

اكتشاف مصحف بيت المقدس

كان المقري هو الوحيد الذي اجرى ذكر هذا المصحف وافاد بقاءه الى عصره، ثم من بعده لم يعد احد من المؤرخيـن او الرحالين يجرى له ذكرا ، او يحيى له اثرا، حتى بات يظن انه ضاع فيما ضاع، وفقد من جملة ما فقد:
وكان العلامة الكبير الوزير السيـد الحاج المختار السوسي يذكر انه اى في مكان ما ما يدل على ان هذا المصحف لا يزال بقيد الوجود، ومضى زمن على هذا الحديث دون ان يعثر على ذلك المصدر، ثم من مدة قريبة وجدت القصة بصحيفة «الفتح» السنة الخامسة عدد 237 يـوم الخميس 17 رمضان 1349، وعدد 238 يوم الخميس 24 رمضان 1349
فقد نشرت ـ بالعددين ـ مقالا مهما للاستاذ الجليل السيد عبد الله مخلص عضو المجمع العلمي العربي يكتشف هذه الذخيرة، ويعرف بها تحت العنوان التالي :

المصحف الشريف

الذي كتبـه بيده علـى بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب سنة 745 هـ. في ثلاثين جزءا ـ ويسمى في بيت المقدس «ربعة سلطان المغرب»
ولاهمية هذا البحث بالنسبة لموضوعنا بصفة خاصة، رأيت ان اذيل به حديث هذه السفارة واثبته هنا برمته، قال الاستاذ الكبير عبد الله مخلص:
«فـي دار كتـب المسجـد الاقصى التي اتيح لى شرف الاشتراك في تاسيسها يوم ذكرى سيد الكائنات عليه افضل الصلوات، وازكى التحيات، من عام 1341 هجرية، مصحف شريف خطه بيمينه ابو الحسن على بن عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق المريني سلطان المغرب في ثلاثين جزءا بخط مغربي جميل كـان مداده من فتيت المسك وعطر الورد، وربما اضيف اليهما في بعض الاحايين الزعفران الشعري، لان الخط يشتد سواده واشراقه في بعض الصفحات، ويصفر في البعض الآخر، وفي بعضها يكون قليل السواد .
ولم يقتصر رضـى الله عنه وارضاه، وجعل الجنة مثواه ـ على كتب المصحف الشريف بذلك الطراز الجميـل، بل انه نصب على تلاوته القراء من الحفاظ واجرى عليهم الارزاق والوظائف من ريع اعيان وقفها عليهم كما سيأتي بيانه .

النص التاريخي على المصحفين اللذين كتبهما السلطان بيده ايضا

ذكر ابن خلدون المتوفى سنة 808، (1) انه كان للسلطان ابى الحسن مذهب فى ولاية ملوك المشرق والكلف بالمعاهد الشريفة تقبله من سلفه وضاعفه لديه متن ديانته الى ان يقول :

مصحف مكة المكرمة

واجمع السلطان على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف قربة الى الله تعالى وابتغاء للمثوبة، فانتسخها وجمع الوراقين لمعاناة تذهيبها وتنميقها، والقراء لضبطها وتهذيبها، حتى اكتمل شانها، وصنع لها وعاء مؤلفا من خشب الابنوس والعاج والصندل فائق الصنعة وغشى بصفائح الذهب ونظم بالجوهر والياقوت، واتخذ له اصونة الجلد المحكمة الصنعة المرقوم اديمها بخطوط الذهب، من فوقها غلاف الحرير والديباج واغشية الكتان . واخرج من خزائنه اموالا عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء فيها وارسلها لمكانها صحبة وفد كبير.

مصحف المدينة المنورة

وقال : ثم انتسخ السلطان نسخة اخرى من المصحف الكريم على القانون الاول ووقفها على القراءة بالمدينة وبعث بها من تخيره لذلك العهد من اهل دولته سنة ... (بياض بالاصل).

الهدايا التى بعث بها الى سلطان مصر

وذكر لنا ابن خلدون ان بين الهدايا التى بعث بها سلطان المغرب بصحبة الوفد الذى حمل المصحف الشريف الى بيت الله الحرام : خمسمائة من عتاق الخيل المقربات بسروج الذهب والفضة ولجمها خالصا، ومغشى، ومموها، وخمسمائة حمل من متاع المغرب وماعونه واسلحته، ومن نسج الصوف المحكم ثيابا واكسية وبرانس وعمائم وازرا معلمة وغير معلمة، ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملونا وغير ملون وساذجا ومنمقا، ومن الدرق المجاوبة من بلاد الصحراء المحكمة بالدباغ المتعارف وتنسب الى اللمط، ومن خرثى المغرب وماعونه وما يستظرف صناعته بالمشرق، حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت.

---

1) كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر جزء (7) صفحة 265 .

واشـار ابن خلدون الى ان سلطان مصر تقبل هدية سلطان المغرب بقبول حسن، وحسن لديه موقعها، فلقى وفده فى طريقه الى مكة المكرمة انواع البر والتكرمة وامتنى هدية السلطان من فساطيطهم(1) الغريبة الشكل والصنعة بالمغرب، ومن ثياب الاسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب، ورجعهم بها الى مرسلهم وقد استبلغ فى تكريمهم ووصلتهم. وبقى حديث هذه الهدايا مذكورا لعهد ابن خلدون.

النص التاريخى عن نسخة المصحف الذى نحن بصدده

اما عن النسخة التى كتبها ليوقفها ببيت المقدس فيقـول (2) : « ثـم شرع بعد استلائه على افريقية (3) فى كتـب نسخـة اخـرى مـن المصحـف الكريم ليوقفها ببيت المقدس فلم يقدر اتمامها، وهلك قبل فراغه من نسخها»

ويظهر ان ابن خلدون لم يتثبت من اتمام نسخة المصحف فاكتفـى بما ذكـره عنها، فى حيـن ان المصحف الشريف هو بخط يده كما شاهدناه فى الخمسة وعشرين جزءا الباقية الى الآن من اجزائه.

ولا ادل على صحة نسبة المصحف الشريف الى واقفه من كتاب الوقف الذى حبس به بعض الاعيان على قراءته، ولخصناه فى الرسالة، بل لخصنا ايضا صك المبيع الذى اشتراه وكيل السلطان لحسابه وكان جميع ذلك فى اوائل سنة 753 هـ.

بعـض صفـات السلطـان

اطال ابـن خلدون فى ذكر مناقب السلطـان وصفاته الغر واسهب ، وكان ذكـره لسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة 776 هـ. فى ترجمة ابنه ابراهيم «الاحاطة : ج (3) ص 164» فاحببنا ان تنقل عبارته قال :

«الشمس تخبر على حلى وعن حلـل»، «فهو البيت الشهير، والجلال الخطير، والملك الكبير، والفلك الاثير، املاك المسلمين، وحماة الدين، وامراء المغرب الاقصى من بنى مرين، غيوث المواهب وليوث العرين، ومعتمد الصريخ

---

1) الفساطيط نسبة الى الفسطاط بمصر وكان يصنع فيها افخـر ثياب الكتان ذات الخمل الدقيق وفيها شيء من القطن .

2) تاريخ ابن خلدون ج 7 ص 266.

3) استولى السلطان على افريقية سنة 747 هـ. ونسخة بيت المقدس كتبها قبل ذلك بسنتين، فان الجزء الرابع منها قد تمت كتابته فى اواخر ذى الحجة سنة 745 كما نقلناه عنه فى مكانه هـ. تعليق الاستاذ مخلص. والصواب ان استيلاء ابى الحسن على افريقية كان سنة 748

وسهام الكافرين، ابوه السلطان ابو الحسن الملك الكبير، البعيد شاو الصيت والهمة والعزيمة، والتحلي بحلى السنة والاقامة لرسوم الملك، والاضطلاع بالهمة والصبر عند الشدة»

وجاء في آخر كتاب «الانيس المطرب بروض القرطاس، في اخبار ملوك المغرب ومدينة فاس» الذى اتمه مؤلفه ابن ابي زرع الفاسي في ايام دولة امير المسلمين ابي سعيد عثمان المتوفى سنة 731 هـ. في الصفحة 302 من طبعة فاس : «وولى بعده ولده ابو الحسن على الشهير الذكر، وترجمته واسعة رحمه الله».

الاختلاف بين تاريخ انشاء الوقف ووفاة السلطان

توفي السلطان رحمه الله في 23 ربيع الثاني من سنة 752 هـ. على ما ذكره ابن خلدون، وهو سابق لانشاء الوقف بنحو سنة وشهرين .

فالظاهر ان الوكيل عنه بمشترى اعيان الوقف ووقفها لم يوفق الى اتمام ذلك الا بعد وفاته. وقد يجوز ان يكون خبر ارتحال السلطان الى دار البقاء لم يصل بيت المقدس الا بعد انشاء الوقف، الا ان ذلك يستبعد؛ لان حجاج المغرب كانوا لا ينقطعون عن اداء الفريضة، فلا بد ان يكونوا قد جاءوا به الى مصر او الحجاز او بيت المقدس نفسه في موسم الحج لسنة 752 .

وصف الربعة الشريفة

هي ربعة شريفة في ثلاثين جزءا مكتوبة في ورق، وكل جزء يحويه جلد ناعم الملمس مخيط بخيوط دقيقة من الذهب والفضة، كتبها بخط يده سلطان المغرب ابي الحسن على بن ابي سعيد عثمان بن ابي يوسف يعقوب ابن عبد الحق سلطان المغرب في سنة 745. ولها صندوق بديع الصنع مزين بالنقوش الفضية والميناء المختلف الالوان، وقد كتب بآخر كل جزء ما يأتي :

«كمل الجزء ... من هذا المصحف الكريم المجزأ ثلاثين جزءا، وكتب جميعها بخطه عبد الله على امير المسلمين ابن امير المسلمين ابي سعيد عثمان ابن امير المسلمين ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق ملك المغرب نفعه الله ووقفها على التلاوة فيها بالمسجد الاقصى شرفه الله، لما رغب فيه من ثواب الله نفعه الله وغفر له ولوالديه ولمن دعا لهما بالرحمة آمين، وذلك في اواخر ذي حجة سنة خمس واربعين وسبع مائة بحضرة «كذا» فاس حرسها الله الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما»

صفات المصحف

وكل صفحة من الاجزاء الشريفة تتضمن خمسة سطور مؤلفة من بضع كلمات بالنظر لضخامة حروفها.

الاجزاء المفقودة وما كتب بدلا عنها

ومما يؤسف له ان خمسة اجزاء من الربعة الشريفة قد فقدت ولم تعرف صورة ضياعها . فقام بكتابتها بعض المغاربة على ورق ابيض جيد واكملت بها الربعة الشريفة. وهكذا ما كتبه فى كل جزء من الاجزاء الخمسة المستحدثة «كتبه العبد الفقير الى ربه الراجى عفو ربه وسيده القدير الحاج مبارك ابن مبارك بن عبد الرحمن المشونشى ، وطنا، المالكى مذهبا، الاشعرى اعتقادا، الجنيدى طريقة، كتب هذا الجزء تكملة من خمس «كذا» اجزاء الذاهبات من ختمة مولاى على الشريف المنسوب الى مولاى يعقوب بن عبد الحق، كتبه رجاء للثواب من الله الواحد الاحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا احد . وكان الفراغ منه «اخر محرم - ذى الحجة الحرام - سنة 1221 من هجرته عليه افضل الصلاة واتم التسليم غفر الله له ولمن دعا له ولمن قرأ فيه ولكل المسلمين اجمعين «امين والحمد لله رب العالمين» اه.

القراء الحفاظ والخادمان والجابى

وقد عين لقراءتها صباح كل يوم ثمانية عشر نفسا منهم خمسة عشر من حفاظ القرءان العظيم على ان يكونوا من المغاربة المالكيين، وخادمان من المسلمين، وجاب واحد. واجرى عليهم سبعة عشر سهما لكل واحد من القراء والجابى سهم واحد وللخادمين سهم واحد بالسوية.

اعيان الوقف الموقوفة عليهم :

ووقف على ذلك الحمام الكامل البناء الكائن بمدينة الرملة المشتمل يومئذ على حقوق ومنافع ومرافق ومجارى مياه وغير ذلك من حقوقه الداخلة والخارجة عنه، وجميع عمارة الحانوتين المتلاصقين الملاصقين بحائط المذكور من الجهة الشرقية، وجميع البناء الاسلامى الكائن بالارض التى بها بئر الماء المعين الرومية البناء، وجميع البناء المحيط على قطعتى الارض البساتين القبلية ولشامية الملاصقين للبئر المذكورة، وجميع الاخشاب المفروشة يومئذ بالقطعتين الارض المشار اليهما من التين والرمان والنارنج وغير ذلك. الكائن جميعه بمدينة الرملة المحروسة. وبذلك جمعت حدود اربعة : الحد الاول وهو القبلى ينتهى الى دار سلمان الصباحى والدار المعروفة بابن الشمامى وحائط المدرسة المعروفة بانشاء سيف الدين لكتمر الدوادار، والشرقى ينتهى الى الدرب المسلوك والشمالى ينتهى ايضا الى الدرب المسلوك، والغربى ينتهى الى الطاحونة المعروفة بالحاج حسن بن علوى .

الولايـة علـى الوقـف :

وجعل الواقف بطريق الوكالة الولاية فى ذلك لنفسه مدة حياته ثم بعده للشيخ الصالح ابى محمد عبد الله بن ابى مدين ثم لشيخ الجماعة المذكورين.

تاريخ انشاء الوقف :

وذلك بموجب كتاب وقف مؤرخ في العشر الاول من شهر رجب الاصم من شهور سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة.

شهـود الوقف :

وعلى كتاب الوقف شهادة الشهود المدونة ادناه :

حسين ابى بكر بن سعد. قاسم بن محمد بن محمد الغرناطى المالكى. محمد بن الحسن ابن على الصفدى الشافعى. عبد المنعم بن احمد بن محمد.

نقل نسخة عن الاصل :

وتحت ذلك ـ : الحمد لله قوبلت نسخة هذا الوقف المذكور اعلاه على نسخة الاصل المنقولة منها فصحت من غير زيادة ولا نقص فى سابع عشرين شعبان المكرم سنة تاريخه ـ حضرت المقابلة المذكورة اعلاه فصحت على نسخة الاصل المنقولة منها . كتبه محمد بن محمد المنبجى (1) ـ حضرت ... الى آخر العبارة. على بن عبد القادر.

الاسـجـالات :

وقد شهد على ذلك ابو بكر بن عثمان الحنفى فى ثامن شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وتسعيـن وسبعمائـة بقولـه : اشهدنـى سيدنـا ومولانا الخ ابو المواهب خليل بن شرف الديـن ابى الروح عيسى بن جمال الدين ابى البركات عبد الله الحسين الحاكم بالقدس الشريف بشرح طويل ؛ ثم جـاء بعده بقية الشهود وهم : ـ اسحاق الحنفى. اسماعيل بن محمد ملطى. احمد ابن سعـود بن علـى الانصـارى المالكى. يوسف بن محمد بن احمد ابو البقاء الاندلسى الحوصى (اول كلامه كتبه ولده باذنـه وحضوره) احمد بن عبد الرحمن بن ابى المعز الحرانى. صالح عبد القوى. احمد بن ابراهيم بن خليل الحنفى. صلاح بن يوسف الحنفى. محمد بن على بن محمد الشافعى.

وبعده حكم شرعى طويل الذيل مآله : انه ثبت لابى الروح عيسى بن جمال الدين ابى الجود غانم الانصارى الخزرجى الشافعـى الحاكم بالقدس

1) فى الاصل بلا نقط. ولذلك تقرأ : المنبجى ـ والمنيحى وغيرهما.

الشريف واعمالها وناظر الاوقاف وشيخ الشيوخ بها فى مجلس الحكم المنعقد فى يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وسبعمائة صحة كتاب الوقف المذكور وقد جاء ذكر الشاهدين : السيد الشريف شمس الدين محمد بن عبد الحق. وبرهان الدين بن عبد الله الحذاقى.

وذكر الحاكم المالكى بدمشق المحروسة ـ شهاب الدين ولى امير المومنين ابى عبد الله محمد المادسى (1) وذكر الحاكم الشافعى فيها ـ شرف الدين تقى المسلمين ابى الثناء محمود بن جمال الدين ابى عبد الله محمد الشريشى البكرى.

وذكر الحاكم المالكى قبلها بدمشق ـ عز الدين تقى المسلمين ابى محمد عبد العزيز بن شرف الدين ابى البركات سعود بن عبد العزيز التلمسانى.

وذكر المشايخ الصلحاء القراء ـ عبد الله المهرويرى، وعمر المحاصى (2) وعبد الرحمن البطوى ممن ولدوا بديار المغرب، وذكر يحيى بن الفاسى، وعبد الله بن سليمان. وسليمان بن عوجان من قراء الربعة الشريفة مع انهم ولدوا فى الديار المصرية والديار الشامية. وبعد ذلك شهود كثيرون وبآخرهم ... شهد عندى بذلك.

ثم ذيل آخر من جلال الدين ابى محمد عبد الله بن جلال الدين ابى عالية محمد بن السائح الشافعى الحاكم بالرملة.

وبذيله ما يأتى : «الامر كما ذكر فيه، والشأن على ما يحويه، نمقه الفقير ابو بكر بن محمد العلمى المالكى المولى بناحية قدس شريف خلافة عفا عنهما العافى «امين» ولقبه تقى الدين والده السعدى محمد الشهير بابن العلمى وعليه شهود. على العلمى. ومحمد بن ابراهيم العلمى. وعثمان الجوهرى. واحمد بن ناصر العلمى. وتاريخه اوائل شهر جمادى الاولى سنة خمسين وتسعمائة.

وبعده : « صح ما نسب الى فيه ، الفقير شرف الدين ابن على العسيلى السباهى المولى بالقدس الشريف خلافه عفا عنهما العافى.

الختم : اعدلوا هو اقرب للتقوى :

وسيار ذلك : « ما نسب الى فيه صحيح زبره الفقير عالى بن حسن الحنفى المولى بالقدس الشريف خلافه عفى عنهما. ـ الختم ذاته ـ «فى سنة 976 ذكر اسم ثلاثة الحنفى والشافعى والمالكى » وتاريخ ذلك ختام

---

1) فى المنشور بدون نقط ويمكن ان يكون البادسى بالباء هـ. مؤلف

2) بدون نقط ايضا ويمكن ان يكون المجاصى بالجيم هـ. مؤلف.

ذى الحجة سنة ست وسبعين وتسعمائـة. وشهوده : مولانا القاضى عماد الدين، ومولانا الشيخ شهاب الدين ناصر. ومحمد بن موسى محضر باسى. وابو العون الديرى.

وبعده : «المنسوب الى فيه صحيح حرره اسماعيل بن ابى بكر الشافعى المولى بالقدس الشريف خلافه لطف الله به آمين» . الختم : حسبنا الله ونعم الوكيـل.

والى يساره : «الامر على ما جرى كتبه احقر الورى : عبد القادر بن ابى الخير المولى بالقدس الشريف ـ ختم : الواثق بعناية الملك القادر ابى الخير عبد القادر.

ـ محيى الدين ابو الفضل عبد القادر ـ : وتاريخ 3 جمادى الاولى سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة.

وبجانبه : «جرى ذلك كتبه الفقير اليـه تعالى على بن حسين المولى بالقدس الشريف خلافه» ـ وبعده : «الامـر حسبما فيه، والشأن على مـا يحويه، حرره الفقير اليه تعالى مصطفى بن خليل المولى خلافة بمدينة القدس الشريف عفى عنهما وغفر لهما ـ وختمه : ـ مهر بنده دل فخر عالم مصطفى.

وبتاريخ ثالث عشر المحرم الحرام من شهور سنة سبع وسبعين والف وشهوده : ـ على النورى. موسى الشافعى، السيد عبد الصمد غضيه. الحاج محمد بن عبد الرحمن المغربـى. بدر الدين الشافعى. زكريا الديرى حسن ابن على القرقشندى (1). عبد الرحمن بن سطده الرسول . يوسف بن عبده ولده عبد الكريم. الحاج ابراهيم بن عبد الكريم. فارس ابن محمد الرسول، احمد بن مصطفى النجار، اسماعيل بن عجعج الرسول ـ وفيها من التواقيع : «الحكم بموجب ما قامـت به النية ان شاء الله» ـ «واشهده بثبوته وتنفيذه. والحمد لله واساله التوفيق» ـ «والحمد لله القاضى بالحق» ـ «والحمد لله حمد الاخلاص» .

الـفـتـاوى :

وفى ظهرها الفتاوى المتعلقة بهذا الوقف من المحررين ادناه : ـ محمد القدسى الحنفى، احمد بن عمر بن هلال المالكى، عمر الحلحلولى الشافعى، ومن اسماء الشهود الموقعين بظهرها : ـ على بن احمـد، محمد القدسى بن مصلح بالقدس الشريف صحيح لله. احمد بـن عبد الله بن احمد الموصلى قاسم بن محمـد الشافعى، حسن ابـى بكـر المالكى، محمد بن عثمان صقر،

1) . فى الاصل «القرقسند» بلانقط.

محمد بن اسماعيل البطوى المالكى، عبد السلام احمد عبيد المـالكى، عيسى سعيد المالكى، ومن القضاة علم الدين ابن عبد الله محمد بن ناصر الدين ابى عبد الله محمد بن ناصر الدين ابى عبد الله محمد بن شمس الدين ابى عبد الله محمد القفصى المالكى الحاكم بدمشق، ممن اشترى الواقف اعيان الوقف ؟

اما تلك الاعيان من الوقف فقد اشتراها سلطان المغرب المذكور بواسطة وكيله ابى عبد الله محمد ابن الشيخ ابى عبد الله محمد بن فرقاجة المغربى المالكى المقيم بالقدس الشريف من الحاج برهان الدين ابراهيم ابن الحاج حسين بن محمد التاجر بمدينة الرملة بموجب صك مبيع مؤرخ فـى السابع عشر من جمادى الاولى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

شهـود البيـع :

ومن شهوده : حسن بن محمد بـن حسن، نصـار بن عبد الله عيسى، محمد ابراهيم العمرى، محمد بن ابـى بكر عفا الله عنه، عثمـان بـن عيسى مصطفى الحنفى، محمد بن خليل بن موسى شحمه، محمد يونس بن على، اسماعيل بن محمد الحسن رعايه المعيسفى ، خلف بن حشافر ابن شالم (1) محمد بن ابى بكر بـن مرسال، محمد بن عمر النوبانى، احمد بن على بـن محمد ابن دمكل.

وعلى جانـب الصك فـى اعلاه : ليسجل بثبوته والحكم به ان شاء الله تعالى .

توقيع القاضى :

وفى آخره : «اعترف المتعاقدان المذكوران اعلاه عندى بذلك كتب محمد ابن عمر الشافعى خليفة حاكم القـدس بالرملة. اعلمنى بذلك ايده الله». ه مقال الاستاذ عبد الله مخلص.

رجـــاء :

اذا كـان لى ما اعلق به على هذا المقـال القيم فهو ان اتقدم لوزارة التهذيب الوطنى بالرغبة فى ان تعمل على اخذ صور فتوغرافية لهذا المصحف حتى تحفظ بأهم مكاتب المغرب، وما ذلك عليها بعزيز.

---

1) لعله من اليهود.

9 ـ سفارة عام 749

هذه آخر سفارة عثرت عليها لابي الحسن، وقد تكون آخر ما بعث لمصر، واشار لها في الاستقصا (1) على انها مراسلة صدرت عن ابي الحسن في دخوله الثاني لتونس الواقع في ربيع الآخر عام 749 .

وكان موضوع تلك المراسلة التماس ملك المغرب من صاحب مصر القبض على ابن تافراجين الفار منه الى الاسكندرية بعد خروجه عليه، ومظاهرته العرب في واقعتهم بالقيروان ضد ملك المغرب، وقد اضطر ملك مصر لعدم التقبض على المذكور لما اجاره بعض الامراء المصريين وانصرف لقضاء فريضة الحج.

ولم يبين في الاستقصا اسم صاحب مصر، ولا شك انه السلطان الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي كان ملك مصر في هذا التاريخ .

اما ابن تافراجين فهو الشيخ ابو محمد عبد الله بن الشيخ ابي العباس احمد بن تافراجين التينملي من حجاب سلطان تونس ابي بكر بن ابي زكرياء الحفصي (2) .

---

1) (2) 79

2) التعليق على تاريخ ابن الشماع ص 110

طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب

منذ ان انضم المغرب تحت لواء الاسلام انقطعت كل صلة بينه وبين الامم المسيحية التى تقلص نفوذها اذ ذاك من الشمال الافريقى والاندلس عقب الانتصارات الاسلامية المتتابعة.

وكان قيام دولة المرابطين بالمغرب وما صحبها من استنجاد ملوك الطوائف بالامراء اللمتونيين عاملا من العوامل التى ساعدت على فتح الباب من جديد لهذا الاتصال بين المغاربة والمسيحيين فى مختلف الميادين. واتخذ هذا الاتصال صورا واشكالا تغيرت بتغير الظروف وتعاقب الدول ، وترك هذا الاتصال بعض الاثر فى حياة المغرب الحربية والسياسية والاجتماعية .

والباحث فى هذا الموضوع لا يكاد يعثر فى المصادر العربية على ما يشفى الغليل ، وكل ما يجده اشارات عابرة مبعثرة لا تكفى لاعطاء صورة واضحة عن مدى هذا الاتصال ، او عن بعض صوره واشكاله.

وبعكس ذلك نجد المصادر الاوربية غنية بالمعلومات ، طافحة بالوثائق التى تزيح الستار عن هذا الجانب الحى من تاريخنا الوطنى. فقد احتفظت لنا باسماء طائفة من الاشخاص ومدتنا بمعلومات غزيرة، نجدها فى تقارير السفراء والقناصل وتآليف الكتاب والرحالة بل حتى فى مذكرات الرهبان والاسرى ورسائلهم الشخصية ، وما كتب حول ذلك فى فترة كان الصراع فيها على اشده بين الاسلام والمسيحية ببلاد الاندلس .

وقد جمع «دوكا سترى» فى مجموعة «مصادر التاريخ المغربى» عددا وافرا من هذه الوثائق اعتمدنا عليها فى هذه المحاولة . والفكرة العامة التى تتجلى عند دراسة هذه الوثائق هى ان العلاقات المختلفة بين ملوك المغرب وبين هؤلاء المسيحيين كانت تتسم بروح من التسامح شاملة من ابرز مميزاتها من جهة ان الملوك كانوا يتخذون زوجاتهم من رقيق النصارى حتى اصبح لهن فيما بعد نفوذ فى اختيار اولياء العهد، ومن جهة اخرى فقد كان الاسارى المسيحيون بالمغرب وفى البلاد الاسلامية قاطبة يتمتعون بحرية فى الدين وتسامح فى المعاملة ومساواة فى الحقوق لمن اعتنق الاسلام منهم فى الوقت الذى كان الاسارى المسلمون بالبلاد

النصرانية (5) ولعل نفس الاسباب هي التي حملت اميرا اسبانيا هو ابن اخت الفونس الى الالتجاء الى الموحدين فقدم الى المغرب واظهر الاسلام وتسمى بابى زكرياء يحيى بن فنزاك واستوطن مكناس وبنى بها حماما شهيرا وقاد جيش الموحدين وتزى بزيهم (6) .

وكان من اثر هذا الاتصال بين المغاربة والمسيحيين ان كثرت اسواق الرقيق فى كبريات المدن وانتشار التسرى بالجوارى الصقلبيات وامتلات قصور الملوك وكبار الموظفين بالمسيحيات اعتنق الاسلام البعض منهن وكان لهن مقام مرموق عند بعض الملوك .

وازدادت العلاقات الودية بين ملوك بنى مرين وامراء الاسبان فشاهدنا السلطان يعقوب المنصور المرينى يتجد طاغية الاسبان هرانده ويقدم له اعانة مالية (7).

ولم يخل جيش المرينيين من هؤلاء الجنود المسيحيين فقد كانت لهم كتيبة يتراسها القائد شريد الفرنجى الذى ساعد اهل فاس على الثورة ضد الامير ابى بكر المرينى ونصب نفسه حاكما على المدينة (8) وفى نفس الوقت كان الامير المرتضى المرينى يستنجد بملك اراغون فيرسل اليه هذا الاخير كتيبة مسيحية ساعدته فى حصار سبتة بقيادة مسحيى يدعى كنزاليس اصبح فيما بعد يدعى بالقائد كنزالا.

ولا ادل على روح التسامح السائدة فى ذلك العصر بين هاته الطوائف المسيحية وبين مختلف السكان من ان هذه الكتائب المسيحية كان لها امينها وقسيسها وكانت تباشر شعائرها الدينية فى كنائسها الخاصة(9).

وقد قدر ملوك المغرب ما تستمتع به هذه الكتائب من نظام دقيق فى خوض المعارك فاغدقوا عليها االعطاءات والامتيازات واتخذوا من رجالها حرسا خاصا تمتع بثقتهم . والى ذلك يشير ابن خلدون بقوله : (10)

---

5) نهاية الاندلس لعنان.
6) الروض الهتون فى اخبار مكناسة الزيتون.
7) الاستقصا
8) المصدر السابق.
9) من مقال لمؤرخ البانى نشر بمجلة المعرفة عدد 4
10) مقدمة ابن خلدون.

« صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الفرنج في جندهم لان قتال اهل وطنهم كله بالكر والفر مع ان الملوك في المغرب انما يفعلون ذلك مع امم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة . واما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذرا من مما لا تهم على المسلمين ».

وازدادت هذه الطوائف المسيحية كثرة واهمية خلال العصر الوطاسي حيث هاجر من الاندلس الى المغرب عدد كبير من العرب واليهود المتنصرين فامتلات عواصم المغرب بهذه الطوائف التي اشتغلت بالصناعة والتجارة واحترفت الجندية وساهمت في تنشيط حركة القرصنة بالسواحل المغربية . ويذكر الراحالة الاوربيون الذين زاروا فاس في اواخر القرن السادس عشر ان المسيحيين كان لهم حي خاص يدعى «بربض النصارى».

ويؤكد المؤرخون الاوربيون ان علاقة الامراء الوطاسيين بالمسيحيين البرتغال كانت وثيقة وكان جيشهم يضم عدة آلاف من البرتغاليين استخدموهم مرارا في حروبهم ضد الاتراك.

ونجد آخر ملوكهم الامير ابا حسون الوطاسي يستنجد بملك اسبانيا شارلكان ويتبعه عبر تنقلاته في النمسا والمانيا حتى ظفر بمساعدة مالية اعانته على محاربة الاتراك واسترداد عرشه (11).

ونرى في عهد الدولة السعدية عددا من هؤلاء المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام وعملوا في صفوف المسلمين ويكفي ان نعلم ان معركة وادي المخازن الشهيرة كان يقودها رضوان العلج حاجب عبد الملك السعدي . وقد اشتهر هذا القائد بذكائه وتبصره وحسن سياسته وتدبيره وازدادت حظوته لدى المنصور فاسند اليه اسمي الوظائف حتى اصبح يلقب بالحاجب الطائع (12).

ويقول اليفرني ان المنصور الذهبي كان يختار عددا من هؤلاء الاسارى المسيحيين فيربيهم ويغدق عليهم النعم وينتقي من بينهم من يصلح للمهمات فاستخدم منهم في حاشيته الباشا محمود والقائد العلج والقائد عمر والقائد بيربيس . وكان يتخذ من هؤلاء العلوج قواد الجيش والحراس والامناء وحامل السيوف المزارق والاعلام . وترك لنا اليفرني وصفا لهذا الجيش وانظمته وقواعده وملابسه وهيئة ضباطه وترتيب صفوفه واستعراضاته في الظعن والاقامة (13) .

---

11) تاريخ الدولة السعدية لمؤرخ مجهول .
12) المصدر السابق.
13) نزهة الحادي

ونجد من بين هاته الشخصيات في عهد المنصور مسيحيا آخر من اصل برتغالي اعتنق الاسلام فقربه المنصور وعهد اليه بمهمة عسكرية هو «الباشا جوذر» الذى قاد الحملة المغربية الى السودان . ومن بين المسيحيين اللاجئين الى كنف المنصور مسيحى قدم من جنوة فاعتنق الاسلام وتزوج بيهودية اعتنقت الاسلام ايضا وانجبت له ولدا ادرك شاوا بعيدا فى التصوف هو «سيدى رضوان الجنوى» الذى كان يعد من شيوخ المنصور فى علم الحديث(14)

وتفيدنا الوثائق التى نشرها «دوكاسترى» ان خلفاء المنصور كانوا يتنافسون فى الحصول على هؤلاء العلوج لاستخدامهم فى قيادة الجند وصنع الاسلحة حتى ان المولى زيدان السعدى رفض افتكاك بعض الاسارى الهولانديين والانجليز لشدة حاجته اليهم .

أما فى عصر الدولة العلوية وبالاخص فى عهد «المولى اسماعيل» فقد تكاثر عدد المسيحيين والعلوج بسبب حركة القرصنة التى ازدهرت اذ ذاك بسلا والرباط وتطوان عقب هجرة الموريسكسيين من الاندلس فانضم الى جيش القراصنة عدد من الاوربيين ينتمون الى جنسيات مختلفة وانتشرت بينهم حركة اعتناق الاسلام . ونذكر من بينهم الرئيس بيبى قائد اسطول سلا وبلاميتو وكريبيو وكراسكو وبيلو وجانسن الذى اصبح يدعى فيما بعد بالرئس موراطو وعهد اليه المولى اسماعيل بقيادة اسطول سلا (15).

ويضاف الى هذه الطوائف المختلفة طائفة اخرى من المسيحيين الذين وقعوا فى الاسر خلال غارات القراصنة على السواحل الاوربية وعلى السفن النصرانية فى عرض البحار او بعد معارك التطهير التى قام بها المولى اسماعيل بالشواطىء المغربية المحتلة . ويقدر المؤرخون الاوربيون الاسارى فى عهد اسماعيل العظيم بنحو اربعة آلاف ينتمون الى جنسيات مختلفة وكان يسمح للبعض منهم بالزواج مع المسيحيات ويتخذ من اولادهم حراسا للقصور والثكنات .

ويجب ان نشير هنا الى ان هذه الطوائف من الاسارى كانت تضم عددا من النساء تزوج بعضهن الملوك والامراء (16).

---

14) جذوة الاقتباس وسلوة الانفاس .

15) انظر بينزى وبرينو وكواندرو فى تاليفهم عن حركة القرصنة

16) فى تراجم ملوك المغرب منذ عهد الامير على بن يوسف المرابطى امثلة كثيرة لتسرى الملوك بالمسيحيات، وكانت هذه العادة شائعة فى دول الاسلام شرقا وغربا منذ إبتداء العصر العباسى

ولم يكد المولى اسماعيل يفرغ من طرد الدخلاء من السواحل حتى بادر الى علاج هذه الحالة الناشئة من تكاثر الاسارى المسيحيين فلم يتركهم عالة على الدولة ـ خصوصا وان حركة ابتداء الاسارى وتبادلهم مع الدول الاوربية لم تتخذ اتجاها خاصا ـ بل قرر استخدامهم في بناء التحصينات والابراج والقصور والاسوار والمآثر العمرانية بمكناس وغيرها .

بيد اننا لا نعثر على شخصيات اكتسبت من بين الاسارى حظوة لدى العاهل المغربي باستثناء شخصيتين : فيرناندو البرتغالي الذى كان يشرف على المنشآت العمرانية ، ومنصور العلج الذى اطلق اسمه فيما بعد على باب شهير من ابواب مكناس .

ولا يفوتنا هنا ان نشير الى الاختلاقات والمبالغات التى تطفح بها بعض المصادر الاوربية المغرضة عن سوء معاملة المولى اسماعيل للاسارى فقد دس المغرضون هذه الترهات في بعض كتب التاريخ لتشويه سمعة الملك العظيم مع ان الوثائق والتقارير الاصلية التى كتب البعض منها الاسارى انفسهم تثبت بطلان هذه الدعوى وتؤكد ان عدد الاسارى الذين وقع اعدامهم قليل ولم يقع تنفيذ حكم الاعدام فيهم الا نتيجة لخيانة او لجرائم ارتكبوها تستوجب ذلك الحكم الصارم.

ويجدر بنا ان نقدم للقارىء وصفا موجزا لحفلة من تلك الحفلات التى كانت تقام بمناسبة اعتناق الاسير المسيحي للديانة الاسلامية كما يصفها احد الاسارى (17).

فعند ما يبدى الاسير رغبته في اعتناق الدين المحمدى يقع اخراجه من السجن ويوتى به الى المسجد الاعظم صحبة قائد الاسارى وهناك امام القاضى والامام وجماعة من رجال الدين تلقن له الشهادة فيرددها مرارا الى ان ينطق بها سالمة ثم تلقن له بعد ذلك قواعد الدين ويخرج الجميع حيث يتالف موكب حافل فيمتطى الاسير صهوة جواد مطهم ويقبض بيمينه المرتفعة فوق راسه قضيبا طويلا اشارة الى التوحيد ويخترق الموكب ازقة المدينة في مظاهرة صاخبة تختلط فيها اصوات الرجال والاطفال بقرع الطبول وترنيم المزامير وزغاريد النساء فيصبح العلج منذ ذلك الحين فردا من افراد المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم .

ولا تفيدنا المراجع التاريخية شيئا عن مآل هذه الطوائف المسيحية بعد وفاة المولى اسماعيل وقيام الفتنة الكبرى في عهد ابنائه ويغلب على

---

17) انظر مذكرات مويط في مجموعة دوكاسترى

الظن ان كثيرا من هؤلاء الاسارى فروا من معتقلاتهم وقل عددهم بتوالى السنين .

ففى عهد المولى عبد الله لا نجد ذكرا لهؤلاء الاسارى ولكن كتب التاريخ تحدثنا عن مغامرات مسيحى يدعى البارون دى ريبيبرا الاسبانى الاصل . فلسبب من الاسباب اعتقل هذا الشخص فى بلاده ففر من السجن وذهب الى هولاندا وهناك اعتنق المذهب البروتستانتى وساقته الصدف الى التعرف بالقائد بيربيس قائد سفن القراصنة فصحبه الى المغرب وعرض خدمته على السلطان فاعجب بذكائه ونباهته وبالاخص لمعرفته العربية فاسند اليه احدى الوظائف واصبح يدعى بالخليفة عثمان (18).

ويتحدث القنصل تينى فى مذكراته عن هذا المغامر فيروى انه سمع من بعض المغاربة ان هذا العلج كان يعمل لمصلحة مغامر آخر يعمل على انشاء دولة بكورسيكا تعتمد على صداقة تونس والمغرب ومساعدتهما ويفكر فى وضع ديانة جديدة تستمد اصولها من القرآن والانجيل والتوراة.

وقضى هذا المغامر مدة فى خدمة الدولة ولكن شذوذه ادى الى طرده فقضى بقية حياته شريدا فى تطوان .

ومن بين الشخصيات البارزة فى هذا العصر شخصية اخرى من اصل البانى استوزره المولى محمد بن عبد الله يدعى السيد العربى افندى قادوس. وكان هذا الوزير من اشد الناس اتصالا بالملك لمقدرته ودهائه واليه يشير صاحب الجيش العرمرم بقوله :ـ

«كان السلطان يدعوه بافندى تعظيما له لانه من مواليه وممن نشأوا فى حجور تربيته وكان شعلة من الذكاء والفطنة وركنا شديدا من اركان الدولة المحمدية (19)

واسند السلطان عدة وظائف سامية لعلوج آخرين نجد فى مقدمتهم القائد ادريس الذى كان يقوم بوظيفته قائد المشور ، والمهندس كورنو الذى عهد اليه بتخطيط مدينة الصويرة، وبواسولان رئيس الحرس الملكى وغيرهم زيادة على كتيبة من الجند كلها من اصل اوربى. والى ذلك يشير القنصل تينى بقوله :

---

18) ذكريات عن المغرب تاليف دولامار تينير

19) الاتحاف ج 3 ص 337

«ان هذا السلطان العظيم ادرك بمهارته ان يستجلب صداقة دول اوربا بما كان تحت يديه من الاسارى الذين جلبهم قراصنته اثناء غاراتهم على الشواطىء الاوربية، فكانت هذه الدول تسالمه وتسعى فى مرضاته (20)

ويقول الاب كوادار ـ الذى كتب فصولا عن المغرب سنة 1860 ـ ان عدد الاسارى المسيحيين اذ ذاك كان يتراوح بين 300 و 400 وانهم كانوا يعملون فى مختلف المهن والصنائع ومعظمهم كان يعمل فى صفوف رجال المدفعية فى الجيش المغربى .

ومما تجب ملاحظته ان حركة القرصنة دخلت مرحلتها الاخيرة فى بداية عصر المولى عبد الرحمن .

على اننا لا نعدم ان نجد منهم شراذم ضئيلة

ففى عهد المولى عبد الرحمان نعثر على علج يدعى احمد سفيانو كان يقود كتيبة من الجيش المغربى فى معركة ايسلى فثار عليه الجند لخيانته وقتلوه خلال المعركة. ونجد مسيحيا آخر يدعى دوسولتى كان ضابطا فى الجيش الفرنسى بالجزائر وهاجر الى المغرب فاستوطن العرائش وسمى نفسه عبد الرحمان وهناك انشأ معملا للصابون واشتغل بالتجارة فى طنجة وبلغ امره الى السلطان فقربه اليه وعهد اليه بترصيف ازقة فاس . وبعد وفاة السلطان قربه ابنه المولى محمد فزوجه بجارية انجبت له ولدا اشتغل فيما بعد بدار القنصلية الفرنسية بطنجة (21)

ونعثر فى صفوف الجيش المحمدى على ضابط من اصل انجليزى اسلم وسمى نفسه اسماعيل فزوجه السلطان بجارية واسكنه بفاس وعهد اليه بمهمة تدريب الجنود بسوس .

وعند ما قدم الضابط الفرنسى ايركمان رئيس البعثة العسكرية الفرنسية الى فاس فى اواخر العهد الحسنى لم يجد فى الحاشية المخزنية سوى بعض العلوج يعدون على الاصابع منهم البارون دوسان الذى كان محاميا فاشلا بفرنسا فهاجر الى المغرب واسلم وتعاطى مهنة التطبيب ، ومنهم آخر من اصل بلجيكى كان يشتغل باصلاح الاسلحة، والمانى فر من

---

20) المصدر السابق ص 263

21) على هذا العلج تتلمذ مولاى احمد الصويرى رئيس المهندسين فى العهد الحسنى

جيش اللفيف الاجنبـي، وبرتغالي كان قنصلا لدولته فاسلم وانخرط في سلك موظفي المخزن وكلفه السلطان بمرافقة بعثـة الطلبة المغاربة الى فرنسا .

وقد كان الضابـط الفرنسي ايركمان نفسه من المقربين للسلطان نظرا لخبرته بالفنـون الحربية وسعة اطلاعه فعهد اليه السلطان بمختلف المهمات . واندمج في البيئة المغربية فاصبح يتكلم العربية ويرتدي الزي المغربي ورافق المولى الحسن في عدد من رحلاته وتنقلاتـه والـف هـذا الضابط كتابا عن المغرب من امتع ما كتب عن حالة البلاد في ذلك العصر (22)

وعلى سبيل الاستطراد نضيف الى هذه القائمة شخصيتين مسيحيتين قدمتا الى المغرب قصد السياحة والتبشير : اسباني يدعى دومينكو باديا الذي تظاهـر بالاسلام وسمـى نفسه «علي باي العباسي» وطاف بأنحاء المغرب واتصل برجال الدولة وسجل معلومـات دقيقة لفائدة دولته (23) ثم الراهب الفرنسي الشهير دو فوكو الذي طاف المغرب والصحراء متنكرا في زي يهودي وسجل ما جمعه من معلومات في مجلد ضخم .

ولعل أغرب هذه الشخصيات هي شخصية الانجليـزي «مـاك ليـن» الذي كان ضابطا في الجيش البريطاني وعمل في كندا وافريقيـا وجبـل طارق واستقر اخيرا بطنجة لسبب مقصود وهناك اتصل بالاوساط المغربية وكبار الموظفين الى ان اصبح مدربا للجيش المغربي في العهد الحسني وبقي في هذا المنصب 25 سنـة وصحب السلطان في معظم رحلاته وكان يتكلم العربية ويرتدي اللباس المغربي وتمكن من مرافقة اعضاء السفارة المغربية الى لندن في اوائل العهد العزيزي.

ونضيـف الـى هذا النوع من الشخصيات الاجنبية التي تمتعت بمقام سام في هذا العصر الدكتور «لناريس» الفرنسي الذي كان يتمتع بحظوة كبرى عند المولى الحسن اذ كان طبيب السلطان الخاص ومستشاره في الشؤون الدولية وهو الضابط الاجنبي الوحيد الذي رافق المولى الحسن في رحلته الى تافيلالت .

---

22) المغرب الحديث تاليف ايركمان

23) قدم الى طنجة سنة 1803 فتجول بالمغرب وطرابلس ومصر ومكة ووصف كل مشاهداته في حديث مفصل طويل.

ولا ننس ايضا الراهب الاسباني الشهير الاب «ليرتشوندي» الذي احاطه المولى الحسن بعنايته واسند اليه ترجمة الوثائق السياسية من العربية الى اللغات الاوربية وعهد اليه بمرافقة السفارة المغربية الى الفاتيكان سنة 1888 (24)

وتاتي «شريفة وزان» وهي مسيحية انجليزية تدعى «مس كين» كانت موظفة في القنصلية الامريكية بطنجة فاعتنقت الاسلام وتزوجها الحاج عبد السلام الوزاني فاصبح لها نفوذ كبير في وزان وكتبت تاليفا عن المدينة وعادات سكانها .

ونلاحظ ان المغرب عرف في اوائل القرن الحالي فترة من ادق الفترات في تاريخه حيث استفحلت مطامع الدول الاجنبية فيه وظهرت بوادر النزاع بين الدول الاستعمارية على اقتسام الاسلاب في رقعة الممالك الاسلامية فتقاطرت على المغرب افواج من المسيحيين سعيا في الظاهر لعرض خدماتهم وفنونهم وصناعاتهم بينما كانوا يعملون في الحقيقة لمصلحتهم أو لفائدة الدول التي ينتمون اليها . فلم يكد المولى الحسن ينتقل الى رحمة ربه حتى شاهد المغرب جحافل من الاجانب تفد عليه من كل صوب وتتستر تحت اسماء مختلفة من صحافيين ودبلوماسيين وقناصل وعلماء ومهندسين واطباء وتجار ومغامرين ومتجسسين وكان الهدف الذي تسعى اليه كل طائفة هو الحصول على المعلومات المختلفة وكشف الستار عن نقط الضعف في جهاز الدولة واعداد العدة للقضاء على استقلال البلاد، وفي نفس الوقت الذي كانت فيه الدول الاوربية تتنازع على اقتسام المغرب وتعقد الاوفاق فيما بينها على كيفية الاقتسام، كانت تخطب ود المغرب وتبعث اليه السفارات والبعثات الديبلوماسية لاعانته على اصلاح شؤونه ويقوم رسلها من صحافيين وكتاب باصدار التاليف والنشرات المغرضة لتشويه سمعة المغرب وتبرير تدخل الاوربيين في شؤونه وتحطيم سيادته (25).

---

24) الاتحاف ج 3

25) انظر كتاب الدكتور فير : اسرار المولى عبد العزيز وكتاب «المغرب الذاهب» لهاريس

ويحسن بنا ان نختم المقال بالكلام عن شخص لعله «اخر علج من هؤلاء العلوج فهو علج من اصل الماني ونشأ بفرنسا ورحل الى تركيا والافغان حيث جمع ثروة طائلة ثم ساح بفرنسا واسبانيا وهاجر الى المغرب بعد ما بدد كل ماله وبداع من اليأس انخرط في اللفيف الاجنبي بالجزائر ثم فر والتحق بالجيوش الريفية واعتنق الاسلام وتعلم العربية وسمى نفسه الحاج وشارك في عدة معارك الى ان انتهت الحرب فألقى الفرنسيون عليه القبض وحكموا عليه بالاعدام .

الصديق بن العربي

نظرة على تاريخ «الموريسكوس»

اردت ان اعرف قراء العربية وابناء الضاد بموضوع طريف وتاريخ اهمله رجال التاريخ العربي، اما مؤرخو الشعوب الغير العربية فقد اهتموا به واعطوه ما يستحق من العناية ، وما هو جدير به من الاهتمام ؛ ذلك هو تاريخ المدجنين. واذا قلنا «المدجنين» فان العرب لا يطلقون عليهم الا هذا الاسم ولو انه لا ينطبق عليهم تمام الانطباق ، اما غير العرب فيطلقون عليهم اسم (الموريسكس) وهو الاسم الذى اطلقه عليهم الاسبان.

ان شعب الموريسكس هو الشعب المسلم الاندلسي الذى بقي يرزخ تحت نير الاستعباد في اسبانيا بعد ذهاب دولة الاسلام منها ، وصار العرب يطلقون عليهم اسم (المدجنين(1)) ـ كما كانوا يطلقون هذا الاسم على من اخلد الى حكم النصارى ـ ، اما مؤرخو الغرب فيطلقون عليهم اسم «الموريسكس» الذى اخذوه عن الاسبان. واما كلمة «المدجنين» فقد كان الاسبان يطلقونها عليهم قبل ان تنقرض دولة الاسلام من اسبانيا ، فكانوا يقولون «المدجنون» للمسلمين الذين هم تحت حكم النصارى في بعض المقاطعة المحكومة بهم ALMODÉJARES واما عند انقراض الدولة الاسلامية بالمرة فغيروا اسم المدجنين باسم الموريسكس.

ان تاريخ شعب الموريسكس لم يتناوله احد من مؤرخي العرب او الاسلام بالدراسة والبحث والتأليف ويا للاسف فنجد ان المؤرخ الوحيد الذى تنبه له هو امير البيان المرحوم شكيب ارسلان الذى ذكر في كتابه الحلل السندسية في الجزء الثالث انه سيخصص الجزء الرابع من هذا الكتاب لشعب الموريسكس (2)، ولكن المنية عاجلته قبل ان يصدر حتى الجزء الرابع .

اود ان القى نظرة خاطفة على هذا الشعب الذى لم يتعد وجوده باسبانيا بعد سقوط دولته بها اكثر من قرن ونيف ، من سقوط غرناطة 1492 الى عصر

---

(1) المدجنون آت من فعل «دجن» للذى اقام ولم يغادر المكان .

(2) قد اطلق الامير شكيب ارسلان اسم (الموريسكس) عليهم فلهذا يكون قد احتفظ بالاسم الذى اطلقه عليهم الاسبان واشتقاق هذه الكلمة نترك شرحه للكتاب الذى سننشره فيما بعد عن هذا الموضوع.

فيليبى الثالث 1609 . لقد ادى هذا الشعب خدمات جليلة خليقة بالاشادة والذكر وخاصة لاسبانيا والمغرب ، فقد كان يمثل امة نشيطة عاملة فى مضمار التقدم وميادين الحضارة بجميع انواعها باستثناء ميدان الثقافة ، واننى اذ اتكلم على هذا الشعب فان قصدى ان اعطى للقارىء نظرة موجزة عليه فى صفحات هذه المجلة والموضوع فى حد ذاته قد كلفنا اتعابا ومشاق لجمعه(1)، فلم نجد مصادر او مراجع عربية فى هذا الباب وكل اعتمادنا كان على مراجع اجنبية وخاصة الاسبانية وبعض وثائق عربية واسبانية موجودة بمكاتب مدريد والاسكوريال وغيرها. وفى المكتبة الكتانية بفاس يوجد بها ايضا قليل من مخطوطات الموريسكس ، ولنترك المقدمة ونشرع فى صلب الموضوع فنقول :

ان الموريسكس ضربوا المثل الاعلى فى النشاط وخصوصا النشاط الاقتصادى فبعد توحيد اسبانيا سياسيا وسقوط آخر معقل للاسلام بها كان هدف النصارى هو توحيدها دينيا ولكنه فى اول الامر لم يكن ذلك متيسرا ، فقد اظهر ملوك الكاثوليك (فرناندو واسابيل) تسامحا كبيرا لهذا الشعب اذ تركوا له حرية دينه واقامة شعائره ولكن ذلك لم يدم طويلا فبموت القسيس طلابيرا واسناد الرئاسة الدينية للكردينال سيسنيروس سرعان ما تبدلت الاحوال فقلبوا ظهر المجن وتأسست محاكم التفتيش وصارت تعمل عملها على اضطهاد هذا الشعب .

كان الموريسكس يغتنمون كل فرصة يجدونها صالحة لبقائهم بارض آبائهم واجدادهم فكانوا يستغلون الظروف بجميع انواعها فنجدهم ينضمون لكارلوس الاول الذى اتى من المانيا ليتوج على عرش اسبانيا فايدوه وازروه وعضدوه بغية وصولهم الى حل يضمن لهم حياة كريمة يتمتعون فيها بالحرية الدينية فى ارضهم فعقد معهم معاهدة اربعين سنة على ان تترك لهم الحرية الدينية ويتمتعون بجميع الحقوق المدنية كالنصارى ولكنه نجد قبل ان تنتهى هذه المدة تنتقض المعاهدة ويضيق عليهم الخناق ويحاكمون فيقتلون او يطردون ، وكانت المعاهدة تنتقض باى سبب من الاسباب ولاتفه الاشياء – فان النصارى انفسهم كانوا يبحثون عن السبب – فكان همهم الوحيد هو القضاء على المسلمين باية وسيلة تمكنهم من ذلك.

---

(1) فى الكتاب الذى سبق ذكره .

شعر الموريسكس بانه لا سياسة تجدى مع النصارى فلجؤا الى القوة فكاتبوا الاتراك والجزائريين يطلبون مساعدتهم فنظموا صفوفهم وكونوا جيشا برئاسة فرناندو ذى پالور الذى لقب بمحمد ابن امية فكان يدعى انه من سلالة بنى امية ملوك الاندلس السابقين ، واعلن نفسه ملكا واخذ مقر حركته بجبال البوشرات بمقاطعة غرناطة 1565 ولكن حركة حرب البوشرات ذهبت سدى بسبب انهزام الاتراك فى معركة ليوطو البحرية ضد الاسبان وجيوش النصارى من حلفائهم ايام فيليبى الثانى ثم خذلان عضد فرناندو الايمن له وهو المدعو ابن عبو الذى طعن ابن امية بخنجر وقتله للاستيلاء على الملك والرياسة .

ورغم ان هذا الشعب كان قد ضيع الآمال ولم يبق له رجاء فى اقامة دولة اسلامية واعادة مجد آبائه واجداده لم يركن الى الكسل ولم يتقاعس عن العمل بل تابعه بجد واجتهاد ونشاط لم يعهد فى شعب اصيب بما اصيب به فقد وحد صفوفه وصار يعمل على رفاهية وازدهار حياته الاقتصادية : فالزراعة والصناعة والفن كل هذا له فيه القدح المعلى ، فكانت اسبانيا تتباهى وتفخر وتزهو امام دول اوربا بازدهار اقتصادياتها فتغزو العالم بمحصولاتها الزراعية ومنتوجاتها الصناعية ، وكانت حقول بالنسية تمون اوربا بالفواكه على اختلاف انواعها وبمحصولاتها بجميع اصنافها ، كاللوز والبرتقال وغيرهما . ومقاطعات اشبيلية وقرطبة وجيان تصدر للخارج محصولاتها وتكتسح اسواق الدنيا بالزيت والنبيذ . ومورسية والمرية تملأ متاجر الداخل والخارج بصناعاتها كالسجاد والبسط وثياب الحرير واوانى الخزف والورق والصابون وغير ذلك كثير . اما الفن المعمارى فكان آية فى الاتقان والابداع والرونق والجمال وما زلنا نشاهد آثاره ملموسة فى قصر ابى عباد باشبيلية وبعض اماكن اخرى فى عدة نواح باسبانيا وتختلف زخرفة بناء الموريسكس عما قبلهم بادخال بعض رموز مسيحية فى فنهم ...

اما حالتهم الاجتماعية فكانوا متحدين متعاضدين فكل نزاع يحدث يحل فيما بينهم حتى لا يلجأوا الى فضة امام حكام النصارى .

وأما حالتهم الدينية فكانوا يقومون بشعائر الاسلام خفية ببيوتهم فكان النصارى يجبرونهم على ان يذهبوا بابنائهم للكنيسة عند ولادتهم ليعمدوهم ويسموهم باسماء النصارى ولكن بعد رجوعهم من الكنيسة كانوا يغسلونهم ويسمونهم بالاسم العربى ، وعند ما رأى النصارى ان لا شىء يجدى معهم وضعوا لهم اجلا للخروج من اسبانيا فصاروا يجبرونهم على مغادرة ارضهم

وبلادهم او يقتلونهم بانواع شتى من التعذيب، فسافر كثير منهم لتونس وللمغرب واحتفظ ملك اسبانيا اذاك فيليبى الثالث ببعض اسر منهم فى كل مدينة لتعليم الصناعة والفن والزراعة للنصارى ، من هذا يتبين ان شعب النصارى كان خاملا متأخرا . وكل شيء كان بيد الموريسكس . وقد اعيت حيل اشراف النصارى للوصول الى اتفاق مع ملوكهم لترك المسلمين باسبانيا لان طردهم سيجر الى التاخر والانحطاط وهبوط اقتصادية اسبانيا لانهم هم الشعب العامل والمتعلم وفعلا اضر خروجهم باقتصاديات البلاد فوصلت الى الحضيض رغم ان اسبانيا اذاك كانت اعظم دولة فى العالم فكانت الشمس لا تغرب فى ممتلكاتها بامريكا واسيا والذهب يتدفق على خزينتها من امريكا وغيرها .

وأما من الناحية الثقافية فكان شعب الموريسكس قد تاخر ولم يعر ادنى اهتمام للثقافة النظرية ، لهذا لم يترك شيئا من هذا القبيل ولم يخلف وراءه ثروة ادبية اللهم الا بعض مخطوطات لعقود ورسوم بيع وشراء وتعاويذ وادعية بان يرد الله للاسلام عزته والتوسل بالاولياء والصالحين وكل هذا مكتوب اما بعربية دارجة اشبه بعامية المغرب او بالاسبانية مكتوبة بالحروف العربية التى يطلق عليها الاسبان اسم «الخميادو» ALJAMIADO آتية من آخمى وهى كلمة محرفة عن ـ الجامع (I) ـ .

هذه نظرة موجزة عن هذا الشعب الذى ادى خدمات للانسانية عامة ولاسبانيا والمغرب خاصة وكافح وناضل من اجل عزة الاسلام والعروبة ولكن ابناء الاسلام والعروبة أهملوه في تواريخهم ويا للأسف كانه ليس منهم واليهم

محمد قشطيليو

(I) والظاهر انهم يقصدون بها حروف المسجد يعنى الحروف الاسلامية .

الخوارج فى الاندلس

تمهيد :

ولد حزب الخوارج بعد وقعة صفين بين على بن ابى طالب رضى الله عنه ومعاوية بن ابى سفيان ، حينما اختلف أصحاب علي على قبول التحكيم، فقد رأى البعض ان من الخطأ ان يحكم احد فى كتاب الله ، فان ذلك يتضمن شك كل فريق من المحاربين أيهما المحق ، وهذا ما لم يقبلوه اذ أنهم حاربوا وهم مؤمنون أن الحق بجانبهم . وهكذا انشقوا على علي و«خرجوا» عليه مؤلفين حزبا ثالثا يعارض كلا الحزبين المتقاتلين : العلوى والاموى.

وكان الخوارج يرون ان تكون الخلافة او الامامة من حق كل مسلم وان تكون بمبدأ الانتخاب الحر ، فهم بهذا الشكل يمثلون نظرية الجمهورية الديموقراطية الى ابعد الحدود ، وقد إخلصوا لمبادئهم هذه اخلاصا شديدا واستماتوا فى الدفاع عنها ، وحاربوا الحكومة الاموية باستقال وبسالة حتى كانوا فيما بعد من اهم عوامل سقوطها .

وقد كانت نظريتهم فى الخلافة وشرطهم فيها الاسلام والعدل ـ بدل العروبة والحرية ـ مما جعل لحركتهم صبغة مضادة للحكم العربى ، وهو ما دفع كثيرا من «الموالى» الذين كانوا يلاقون أشد الاضطهاد ـ من العصبية الاموية للعرب ـ الى الاقبال على هذه الدعوة الديموقراطية المستندة الى مبدأ اسلامى محض يقوم على التسوية بين جميع المسلمين أيا كان لونهم أو أصلهم .

نشاط الدعوة الخارجية بين أوساط البربر :

واذا ذكرنا ان فتح الاندلس تم على أيدي العرب والبربر ، وأن النزاع على توزيع الارض والغنائم بين الفاتحين لم يلبث ان نشب بين الفريقين ، استطعنا ان نتصور مدى ما يمكن ان تلاقيه الدعوات الخارجية من نجاح فى الاوساط البربرية . وقد عرف الدعاة الخوارج كيف يستغلون سخط البربر فى شمال افريقية حيث انتشر المذهب الاباضى بسرعة ، وكانت المعاملة السيئة التى لقيها زعماء البربر وعلى رأسهم ميسرة المدغرى المعروف بالحقير عندما ذهبوا يتظلمون الى الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك بالشام ـ عاملا مباشرا دفهم الى ثورة عاتية فى افريقية فى سنة 121 (739م.)، فسار ميسرة الحقير الى طنجة فقتل عاملها عمر بن عبد الله المرادى ، ثم

ادعى الخلافة وبويع بها (١).

وقد كان للانتصارات التى سجلها هذا الثائر الخارجى صدى قوى فى الاندلس ، فثار البربر على العرب بهذه البلاد ، وانتخبوا من بينهم إماما نصبوه عليهم،وأخرجوا عرب جليقية وفتكوا بهم فى سائر نواحى الاندلس(٢). ومن الممكن ان نفترض ان هذه الثورة صحبها انتشار للتعاليم الخارجية فى بلاد الاندلس ، ويدلنا على ذلك ان صاحب «الاخبار المجموعة» يذكر ان هؤلاء الخوارج كانوا يحلقون رؤوسهم مثل فعل الازارقة (٣) كما أنهم كانوا يرفعون المصاحف ويهتفون بشعار الخوارج المعروف فى المشرق وهو «لا حكم الا لله» . على ان صاحب «الاخبار» يذكر فى موضع آخر (٤) أن هؤلاء البربر كان معظمهم على رأى الاباضية والصفرية. على أن الارجح أن هذه الحركات لم تتميز بلون اباضى أو صفرى واضح ، والاسلم أن يطلق على القائمين بها اسم «خوارج» بمدلوله الواسع العام(٥).

الثورات الخارجية فى عهد أمراء بنى أمية :

على أنه بعد استقرار الامر لبنى أمية فى الاندلس ، ضعف أمر الدعوات الخارجية بهذه البلاد، ولعل ذلك يرجع لخمود جذوة الخوارج فى سائر

---

١) انظر خبر ثورة ميسرة الحقير فى شمال افريقيـة : الدكتـور حسنين مؤنس : فتح العرب للمغرب (ط. القاهـرة سنـة ١٩٤٧) ص ٢٩١ وما بعدها ، وانظر كذلك مقال الدكتور مؤنس ثورات البربر فـى افريقيـة والاندلس بين سنتى ١٠٢ ـ ١٣٦ (٢١٧ ـ ٧٥٣ م.) فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة (مايو ١٩٤٨) ص ١٦٨ والمراجع المذكـورة فى هذيـن البحثين .

٢) انظر أخبار مجموعة ص ٣٨ والمقرى : نفح الطيب ١٩/٤.

٣) الازارقة هم فرقة من الخوارج تنتسب الى نافـع بن الازرق ، وتعتبر اكثر فرق الخوارج تطرفا فهم يكفرون مـن عداهم مـن المسلميـن ويستبيحون دماءهم وقتل نسائهم واطفالهم ـ راجع البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٦٢ ـ ٦٦

٤) ص ٢٨

٥) شك الدكتور حسين مؤنس فى نسبة هذه الثـورات البربرية الى الصفرية او الاباضية خاصة ، وعلل ذلك بان هاتين الفرقتين همـا اكثر الخوارج اعتدالا وتسامحا مما يتنافى مع ما اتسمت به ثوراتهـم مـن عنف وتطرف (انظر ثورات البربر فى افريقية والاندلس ... ص ١٥٥).

العالم الاسلامي بصفة عامة ، وتكاد الحركات الخارجية في الاندلس تنحصر في ثورتين : حدثت اولاهما في الجزيرة الخضراء في ايام الحكم الربضي(١). وقد كتب الشاعر عباس بن ناصح الثقفي قاضي الجزيرة الخضراء الى الحكم يستحثه الى اخماد هذه الثورة ، وفعلا عجل الحكم بذلك فاسرع الى الجزيرة ، وحمل السيف على اكثر اهلها .

وفي سنة ٢٠٠ (٨١٥ ـ ٨١٦) ظهر خارجي آخر بين بربر مورور MORÓN ولكن الحكم بادر ايضا بالقضاء على هذه الثورة (٢)

حكم الفقهاء المالكيين على الخوارج :

وجدير بالاهتمام في هذا الشأن ان نذكر آراء السلطات الدينية في الاندلس في تلك النزعات الخارجية . وقد كان رأى الفقهاء المالكيين الاندلسيين مسايرا لنشاط الدولة السياسي ، اذ انهم كانوا يعتبرون «الخارجية» تهمة يحاكم عليها . وقد احتفظ لنا القاضي عياض بآراء المتقدمين من هؤلاء الفقهاء : فهو ينقل عن عيسى بن دينار الطليطلي (ت ٢١٢/٨٢٧) ان الذي يعتنق الاباضية حكمه كحكم المرتد : يستتاب من مقالته فان تاب والا قتل (٣) . اما عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨/٢٥٨) فقد كان اكثر تطرفا، اذ رأى او حكم الاباضي كحكم الكافر ، أي انه يقتل بغير استتابة (٤).

على انه برغم هذه الاحكام فان المراجع لم تحتفظ لنا بخبر عن محاكمة احد الخوارج في هذه الفترة .

علاقات الاندلسيين بالدول الخارجية في المغرب :

واذا كان الامويون بالاندلس لم يتسامحوا مع البدع الخارجية في حدود بلادهم فان الظروف السياسية قضت عليهم بان يرتبطوا بصلة الصداقة مع الامارات الخارجية التي كانت تجاورهم في شمال افريقية . واهم هذه الامارات هي الدولة الرستمية في تاهرت بالمغرب الاوسط . وصلة الامويين بالرستميين قديمة ، فهي تبدأ منذ استجار عبد الرحمن الداخل مؤسس

---

١) لم يحدد ابن القوطية ـ وهو الذي ينفرد بذكر هذه الثورة ـ تاريخ قيامها ، الا انه يذكر ان ذلك كان بين وقعة الحضرة ووقعة الربض بين (١٨١ و ١٨٩ هـ. = ٧٩٧ ـ ٨٠٤م.). انظر تاريخ افتتاح الاندلس ص ٤٩

٢) انظر ابن الاثير : الطامل ٥/١٨٠

٣) الشفا بالتعريف بحق المصطفى ٢/٣٧٢

٤) نفس المرجع ٢/٤٧٢

الامارة الاندلسية ببنى رستم عند هربه من العباسيين فى المشرق(١). وقد حفظ عبد الرحمن هذه اليد لاولئك الخوارج . ومنذ ذلك الوقت كانت سياسة الامويين التقليدية تقوم على حماية هذه الامارة الصغيرة وامدادها بالمساعدة. وقد كان ذلك طبيعيا ، فان امارة الرستميين كانت تقع بين جارين قويين يجاهرانها بالعداء : ففى الشرق تقع دولة الاغالبة السنية التى تدين بالدعوة العباسية ، وعن الغرب تقع دولة الادارسة العلوية ، وكانت الاندلس الاموية عدوا طبيعيا لكلتا هاتين الدولتين ، فاتجهت سياستها الى كسب صداقة الرستميين على رغم مخالفتهم لهما فى المذهب والعقيدة . وفى سنة ٢٠٧ (٨٢٢) أرسل عبد الوهاب بن رستم ابنامه الثلاثة فى سفارة رسمية الى قرطبة ، وكان يوم استقبالهما يوما عظيما مشهودا (٢). وقد تبع ذلك ان استعان عبد الرحمن الاوسط بكثير من رجالات الرستميين وقوادهم فى الاندلس نفسها . وتحدثنا كتب التاريخ ان عبد الرحمن حينما انتصر على المجوس (النورمانديين) فى سنة ٢٣٠/٨٤٤ بادر بابلاغ نبأ ذلك النصر الى حليفه الرستمى أفلح بن عبد الوهاب صاحب تاهرت(٣). كذلك يذكر المؤرخ المشرقى ابن جابر البلاذرى ان افلح خرب مدينة بناها محمد بن الاغلب وسماها «العباسية» تقربا بذلك الى الامير الاموى ، فكافاه هذا بأن أرسل اليه مائة ألف درهم (٤).

وقد سارت الخلافة الاموية على هذه السياسة بعد ذلك لا سيما حينما قويت الدولة الفاطمية فى شمال افريقية ، فنحن نرى عبد الرحمن الناصر يؤيد الثائر الخارجى أبا يزيد مخلد بن كيدار المعروف بصاحب الحمار حين

---

١) انظر المقرى : نفح الطيب ٢٨/٤

٢) انظر ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ٢٤٤/١ ـ ٢٤٥ (معتمدا على نص لابن حيان فى المقتبس) وكذلك ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ٤٨/١ ؛ وبحثا للاستاذ محمد بن تاويت عن دولة الرستميين (تحت الطبع فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ـ المجلد الخامس سنة ١٩٥٧)

٣) انظر ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ٢٢٤/١

٤) فتوح البلدان ص ٢٣٦

قام بالثورة على الخليفة الفاطمي «القائم بامر الله» . وفي سنة ٣٣٤ (٩٥٤) أرسل أبو يزيد هذا سفارة الى قرطبة استقبلها عبد الرحمن بالحفاوة والترحاب ، ثم ردها محملة بالهدايا ، وقد كتب أبو يزيد ازاء ذلك الى عبد الرحمن يعترف بامامته (١).

اثر العقائد الخارجية في الاندلس :

وطبيعي ان هذه الصلات الوثيقة بين الاندلس الاموية والامارات الخارجية في الشمال الافريقي كان ينبغي ان تترك آثارها في الشعب الاندلسي . وطبيعي كذلك ان نتوقع ان هذه الاثار كانت ضئيلة على اية حال ، فسيطرة العقيدة السنية المطلقة على الاندلسيين لم تكن تدع مجالا لمثل هذه البدع الخارجية لان تاخذ سبيلها الى التسرب في عقيدة الاندلسيين .

على انه رغم ذلك فقد وجدت في الاندلس نزعات خارجية من احتكاك اهل هذه البلاد بجيرانهم في شمال افريقية . وتحدثنا كتب التاريخ ان اندلسيا من اهل وشقة Huesca يدعى عبد الرزاق الفهري رحل الى المغرب الاقصى في منتصف القرن الثالث الهجري حيث دان بالمذهب الخارجي ، بل انه نصب نفسه اماما لفرقة منهم ، وما لبث ان ثار في جبال سلا على المحيط الاطلسي على الامير الادريسي على الثاني بن عمر ، واستطاع ان يحتل «فاس» حيث اسرع الى الخطبة باسمه اهل العدوة الاندلسية. ويدلنا هذا على انه كان متمسكا بقوميته الاندلسية متعصبا لها. كما يدلنا على ذلك ايضا بناؤه قلعة منيعة بجبال سلا سماها باسم موطنه الاول ، وشقة (٢).

ومن آثار الخارجية في العقائد الاندلسية ما يذكره المؤرخ الرازي من ان احد المعلمين بقرطبة هو جابر بن غيث الليلي ـ وكان يعلم ابناء الوزير هاشم بن عبد العزيز ـ كان كثير التشدد في الدين حتى انه كان في صارمته يقارب الاباضية (٣).

ويذكر المستشرق الاسباني فرانسسكو كوديرا ان أيوب بن سليمان القوطي (ت ٣٢٦هـ/٩٣٧م) ـ وهو حفيد للكونت يوليان الذي تم على يديه فتح الاندلس ـ ادخل الى الاندلس كتب الخوارج ، ولكن ليس لدينا ما يثبت

---

١) انظر ليفي بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ٢/١٠٣ـ١٠٤

٢) انظر خبره في ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٤٧ (تحقيق كارل تورنبرج Carl Torenberg ـ ط. أبساله سنة ١٨٤٣)

٣) انظر ترجمة جابر بن غيث في : ابن الابار : التكملة ترجمة رقم ٥٣٠، ص ٤٤٥ وابن الفرضي ترجمة ٣١٢ والسيوطي : بغية الوعاة ص ٢١٠

هذا الرأى(١).

على ان الاخذ بالمبادىء الخارجيــة بقى تهمــة يتعرض المتلبس بهــا لاقسى العقوبات . وفى اواخر ايام الدولة الاموية نجد فقيها مشهورا هو أبو عمر الطلمنكى (ت ٤٢٩هـ./١٠٣٧م.) يتهم فى سنة ٤٢٥ هـ. بانه خارجــى سافك للدماء يرى وضع السيف فى صالحى المسلمين ، على ان هــذه التهمــة لم توجه اليه لاعتناقه عقيدة خارجية صريحة بل لشدته وصرامته فى الحكم على فقهاء عصره المالكيين لتحجرهم وجمودهم . وقد حوكم لذلــك بتهمة الخارجية فى سرقسطة ، وشهد عليه بها خمسة عشر فقيها مــن اكبر فقهاء عصره ، على انه برىء من ذلك بفضل قاضى سرقسطة محمد بن عبد الله بن فرتون (٢) .

ويبدو ان كثيرا من البربر الذين اشتركوا فى فتح قرطبة وعملوا على تخريبها فى ايام «الفتنة البربرية» كانوا من المتأثرين بالمبادىء الخارجية . وليس ذلك غريبا اذا قدرنا انه فى اواخر ايام الدولة العامرية كثرت هجرات القبائل البربرية الى الاندلس بحكم استعانة المنصور بن ابى عامر وخلفائه بهم فى حروبهم الكثيرة ، وقد تسربت الى الاندلس عن طريق هذه الهجرات كثير من المعتقدات الغريبة التى لم تعرف فى هذا القطر ايام الخلافة الاموية. وكان من بين هذه المعتقدات ما كان شيعيا سفر عن وجهه حينئذ (٣) . وكان من بينها كذلك نزعات خارجية كان لابد ان تنتقل الى الاندلس من شمال افريقية حيث لقيت انتشارا واسعا . ويدلنا على ذلك ما يذكره ابن الابار فى ترجمة احد كبار موظفى الدولة الاندلسيين من انه قتله «خوارج البربر» حين

---

(١) انظر Francisco Codera : Estudios Criticos sobre la Historia árabe española, T IX, 1017, P. 341.

وكذلك نفس المؤلف فى مجلة المجمع التاريخى الملكى :
Boletin de la Real Academia de la historia T. XXI, P. 496.

ورأى كوديرا يستند الى تفسير خاطىء لـ «الكتب العراقية» التى يذكر ابن الفرضى فى ترجمة أيوب بن سليمان المذكور (رقم ٢٦٨) انه ادخلها الى الاندلس . وابن الفرضى انما يعنى كتب الفقه العراقية ويخص من ذلك كتب الفقه الحنفى الذى كان يطلق عليه فقه اهل العراق.

(٢) فى ترجمة ابى عمر الطلمنكى راجع ابن بشكوال : الصلة ت.٩٠. وفى اتهامه بالخارجية انظر ابن الابار : التكملة ت ٤٢٥

(٣) انظر بحثنا عن «التشيع فى الاندلس» فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد سنة ١٩٥٤ ص ١٢٧ رقم ١

فتحوا قرطبة سنة ٤٠٣ هـ. (١).

والواقع ان الحرية الفكريـة التى تمتع بها الفكر الاندلسى بعد انهيار الخلافة الاموية كان لها أعظم الاثر فى عودة كثير من العقائد الخارجية الى الظهور دون ان تتعرض للاضطهاد او التعقب، فوجد بعد ذلك من اهل الاندلس من كانوا ينتحلون مذهب الخوارج فى صراحة . ويذكر ابن الخطيب (٢) فى حديثه عن محمد بن عبد الله البرزالى امير قرمونة Carmona وابنه اسحق انهما كانا معروفين « باشتهارهما بالنكوب عن الجماعة واعتقادهما بمذهـب الناكرين من فرق الاباضية الخوارج يستأثران بذلك هما وقومهمـا من بنى برزال ، اعمالهم واقوالهم فى ذلك معروفة »

وهناك مثل آخر يذكره ابن حزم ، ذلك هو قريـة بلفيـق Valefique فى منطقـة المريـة Almeria التى كان اهلها علـى مذهـب الخـوارج لا يستترون (٣). وفى موضع آخر يتحدث ابن حزم بتفصيل عن عقائد بعض من شاهده واتصل به من خوارج الاندلس ، وهو يصرح بذكر اسم رئيسهـم «ابى اسماعيل البطيحى» الذى كان من الازارقة الا انه أربـى وزاد عليهـم ، ويقول ان من الشرائع التى سنها لاصحابـه تخفيض عدد ركعـات الصـلاة وتحريم اكل السمك حتى يذبح ، وجواز الحج فى جميع شهـور السنـة ، وعدم اخذ الجزية من المجوس ، وتحريم طعام اهل الكتاب ... الى غير ذلك مما يدرجه ابن حزم فى باب «ذكر شنع الخوارج» من كتابه الفصل (٤). وينص ابن حزم على انه ناقش بعض الاباضية ـ وهم الغالبون على خوارج الاندلس، فسألهم عن امامهم فى علمهم ومذهبهم فلم يدلوا اليه بخبـر كاف عن ذلك.

---

١) هو عبد الله بن حسين المعروف بابن الغربالـى القرطبـى ـ ترجمته فى التكملة رقم ١٢٧٧

٢) أعمال الاعلام (نقلا عن ابن حيان) ص ٢٣٧

٣) نقط العروس (حسب ما نقله عنه ليفى بروفنسـال : تـاريخ اسبانيا الاسلامية ١/١٦١)

٤) انظر الفصل فى الملل والاهواء والنحل ٤/١٨٩ـ١٩١ وانظـر الترجمة الاسبانية له : Asin Palacios : Abenházam de Córdoba y su Historia Crítica de las Ideas Religiosas, V, P. 73.
وانظر كذلك Asin Palacios: Ibn Masarra y su escuela (en Obras escogidas, I, P. 23)

مراجع البحث

مراجع عربية :

ابن الابار : (ابو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي)
التكملة لكتاب الصلة (المجلدان الخامس والسادس من المكتبة الاندلسية ـ نشر الاستاذ فرانسيسكو كوديرا ـ مدريد ١٨٨٧ـ١٨٨٩)

ابن ابي زرع :
الانيس المطرب بروض القرطاس (تحقيق كارل تورنبرج ط ابساله سنة ١٨٤٣)

ابن الاثير : (على بن احمد بن ابى الكرم)
الكامل فى التاريخ (ط. القاهرة ١٣٤٨ ـ ١٣٥٣هـ)

اخبار مجموعة :
لمؤلف مجهول ـ نشر لافونت الكنترا ط. مدريد ١٨٦٧

ابن بشكوال : (أبو القاسم خلف بن عبد الملك)
الصلة فى تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وادبائهم ـ المجلدان الاول والثانى من المكتبة الاندلسية ـ تحقيق فرانسيسكو كوديرا ـ ط. مدريد ١٨٨٢ ـ ١٨٨٣ .

البغدادى : (عبد القادر بن طاهر)
الفرق بين الفرق ـ ط. القاهرة سنة ١٩١٠

البلاذرى : (أحمد بن يحيى بن جابر)
فتوح البلدان ـ ط. القاهرة سنة ١٩٣٢

ابن حزم : (ابو محمد على بن سعيد بن حزم)
الفصل فى الملل والاهواء والنحل ط. القاهرة سنة ١٣١٧

ابن الخطيب : (لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلمانى)
أعمال الاعلام (نشر ليفى بروفنسال ـ بيروت سنة ١٩٥٦)

ابن سعيد : (على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد المغربى)
المغرب فى حلى المغرب (نشر الدكتور شوقى ضيف ـ القاهرة ١٩٥٢

السيـوطـي : (جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر)
بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ـ ط. القاهرة سنة ١٣٢٦هـ.

القـاضي عيـاض : (ابو الفضل عياض بن موسى السبتى)
الشفا فى التعريف بحق المصطفى ـ ط. القاهرة

ابن الفرضي : (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف)
تاريخ علماء الاندلس (المجلدان السابع والثامن من المكتبة الاندلسية نشر فرنسيسكو كوديرا ط. مدريد ١٨٩٠

ابن القوطية القرطبي : (ابو بكر محمد بن عبد العزيز)
تاريخ افتتاح الاندلس ـ نشر خوليان ربيرا مدريد ١٨٦٨

المـقـــري : (احمد بن محمد المقرى التلمساني)
نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (عشرة اجـزاء نشـر الشيـخ محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة سنة ١٩٤٩)
بحث الاستاذ محمد بن تاويت عن دولة «الرستميين».

مـراجـع أوربـيـة :

M. ASIN PALACIOS: **«Ibn Masarra y su escuela»** (en «Obras Escogidas», t. I, Madrid, 1946).
«Abenházam de Córdoba y su Historia Crítica de las Ideas Religiosas», Madrid, 1927-1932.

FRANCISCO CODERA: **«Estudios críticos sobre la historia árabe española»**, t. IX, Zaragoza, 1917.

E. LEVI-PROVENÇAL: **«Histoire de l'Espagne Musulmane»** (Paris-Leyden, 1950).

نـقـد الـكـتـب

كتاب «الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى»

لابى العباس احمد بن خالد الناصرى

نشر لثانى مرة بتحقيق ولدى المؤلف الاستاذين : جعفر ومحمد، وقامت بطبعه دار الكتب بالبيضاء، ولا شك ان اعادة طبع هذا الكتاب مما كانت الاوساط الثقافية ـ فى المغرب والمشرق ـ تنتظره بفارغ الصبر، وهى الآن تتلقفه بكثير من الفرح والسرور .

فهو الكتاب الذى يعد حتى الآن مرجعا هاما ـ أو أهم مرجع جامع ـ عن تاريخ المغرب منذ فجر الاسلام حتى نهاية سلطنة المولى عبد العزيز او ما يقاربها.

لنترك التحدث عن الكتاب وقيمته : فذلك ما هو معروف مفروغ منه من لدن الجميع، ولنتعرض الى بعض الملاحظات عن طبعته الجديدة الانيقة التى ظهر فيها الكتاب وقد جزىء الى تسعة اجزء فى صفحاتها الناصعة البياض الصقيلة الملمس المتوسطة الحجم. وقد زودت تلك الاجزاء بفهارس ذيلت بها، وشملت الاعلام والقبائل والاماكن بعد ما قدم الجزء الاول بمقدمة حافلة فى ترجمة المؤلف وكتابه الوافى وكيفية جمع صاحبه لمصادره المختلفة من عربية واروبية؛ مما يلقى على هذه اضواء كثيرا ما كان القارىء يقف عندها مستفهما عن ثقافة الرجل ومدى امتدادها الى الثقافة الاروبية.. ولقد استغرقت تلك المقدمة الهامة ٥٤ صفحة كنا فى حاجة ماسة اليها ...

وبقى أن نلقى نظرة أخرى على صلب الكتاب والتعاليق الخفيفة التى زود بها من لدن ولدى المؤلف او المؤلف نفسه، فنرى ان هذه الطبعة امتازت عن الاولى بما اضيف اليها من زيادات قليلة نقلها ولدا المؤلف من خط يده كما امتازت بتلك التعاليق للمؤلف نفسه او لوديه اللذين اشارا فيها الى عدة مراجع مفيدة من عربية وافرنسية كما أشار فيها الى بعض التصويبات فيما وقع فيه المؤلف من اخطاء فى قضايا التاريخ او بعض اعلامه..

نـقـد الـكـتـب

كتاب «الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى»

لابى العباس احمد بن خالد الناصرى

نشر لثانى مرة بتحقيق ولدى المؤلف الاستاذين : جعفر ومحمد، وقامت بطبعه دار الكتب بالبيضاء، ولا شك ان اعادة طبع هذا الكتاب مما كانت الاوساط الثقافية ـ فى المغرب والمشرق ـ تنتظره بفارغ الصبر، وهى الآن تتلقفه بكثير من الفرح والسرور .

فهو الكتاب الذى يعد حتى الآن مرجعا هاما ـ أو أهم مرجع جامع ـ عن تاريخ المغرب منذ فجر الاسلام حتى نهاية سلطنة المولى عبد العزيز او ما يقاربها.

لنترك التحدث عن الكتاب وقيمته : فذلك ما هو معروف مفروغ منه من لدن الجميع، ولنتعرض الى بعض الملاحظات عن طبعته الجديدة الانيقة التى ظهر فيها الكتاب وقد جزىء الى تسعة اجزء فى صفحاتها الناصعة البياض الصقيلة الملمس المتوسطة الحجم. وقد زودت تلك الاجزاء بفهارس ذيلت بها، وشملت الاعلام والقبائل والاماكن بعد ما قدم الجزء الاول بمقدمة حافلة فى ترجمة المؤلف وكتابه الوافى وكيفية جمع صاحبه لمصادره المختلفة من عربية واروبية؛ مما يلقى على هذه اضواء كثيرا ما كان القارىء يقف عندها مستفهما عن ثقافة الرجل ومدى امتدادها الى الثقافة الاروبية.. ولقد استغرقت تلك المقدمة الهامة ٥٤ صفحة كنا فى حاجة ماسة اليها ...

وبقى ان نلقى نظرة أخرى على صلب الكتاب والتعاليق الخفيفة التى زود بها من لدن ولدى المؤلف او المؤلف نفسه، فنرى ان هذه الطبعة امتازت عن الاولى بما اضيف اليها من زيادات قليلة نقلها ولدا المؤلف من خط يده كما امتازت بتلك التعاليق للمؤلف نفسه او لوديه اللذين اشارا فيها الى عدة مراجع مفيدة من عربية وافرنسية كما أشار فيها الى بعض التصويبات فيما وقع فيه المؤلف من اخطاء فى قضايا التاريخ او بعض اعلامه..

على ان من بين تلك التعاليــق ـ خصوصا منها ما كان للمؤلف نفسه ـ ما استهدف لاخطاء طفيفة؛ مثل التعليق على القيروان بأنها كانت أقدم من ايام عقبة بن نافـع وانها مذكورة قبـل المسيـح مستشهدا ـ فيمـا استشهد ـ بالفيلسوف ارستب تلميذ سقراط وانه منسوب اليها. والواقع أن Aristippus ليس منسوبا الى القيروان وانما هو منسوب الى قورينا Syrene التـي كـان موقعها في طرابلس ببنى «غازى» أما القيروان فمع وقوفنا فى مسألة اقدميتها عن أيام عقبة بن نافع ليست هى المدينة التى ينسـب اليهـا الفيلســوف او الواردة فى الانجيل...

ومهما يكن فـان مثل هـذه الاخـطاء قليل، كما ان الاخطـاء او الاغلاط المطبعية قليل بالنسبة الى ما تخرجه المطابع العربية الاخرى من كتب وغيرها. وذلك بفضل ما بذله ولدا المؤلف من همة فى اخراج الكتاب اخراجا يتناسب مع هذا العصـر . ولقـد تنبهـا الـى تلك الاخطـاء او الاغـلاط فوضعا لها فهرسا للتصويب الا انهما فاتهما فى ذلك كثير منها كما انهما اقتصرا فى تلك الفهرس على الجزء الثانى والثالث واهملا بقية الاجزاء التسعة.

وقد سمعنا أنه كان فى نيتهما أن يضما الى الكتاب جزءا عاشرا يكون الحلقة التاريخية الاخيرة وهى المرحلة التى تبتدىء من عصر المولى عبد العزيز الى الآن . وحبذا لو نفذا هذه الفكرة وانضم اليهما فى هذا المشروع القيم من يشاطرهما فيـه من رجـال المغرب المعنييـن بالتاريخ او شاركوا فى احداثه الاخيرة أو شاهدوها فسجلوها كما هى من دون حيف أو محاباة وبذلك يضم الى الكتاب حلقة من أهم الحلقات التى ما زالت أطرافها حتى الآن مترامية فى مراجع شتى وذكريات لا حصر لها .

م. ت.

كتاب «الهلالية في التاريخ والادب الشعبي»

للدكتور عبد الحميد يونس

هذا الكتاب هو الاول من نوعه في اللغة العربية بذل فيه صاحبه مجهودا جبارا فأخرج تلك الدراسات على ضوء من التحقيق العلمي المتعدد الجوانب.

وتدرج في الناحية التاريخية ـ بالخصوص ـ من العصر الجاهلي بأساطيره ومتعارفه، الى العصر الحاضر بتاريخه وأساطيره التي ما زالت عالقة بالاذهان الشعبية في أرياف مصر ومدنها الكبرى ..

ورجع في هذه الدراسات الى عشرات المجلدات العربية والاوروبية من افرنسية وانجليزية والمانية وغيرها، ولم يكتف بذلك وانما صار ينتقل بنفسه في الارياف المصرية وغيرها ويتلقن من اوساطها الشعبية تلك الاصداء التي ترددها عن الهلالية، كما لازم المنشدين للقصة الهلالية وسجل عنهم ـ او عن كبيرهم ـ صاحب الصورة ـ هذه القصة وكيفية انشادها الذي سجل جزءا منه في «نوبة» موسيقية ...

فكانت دراسته هذه جامعة مانعة ـ كما يقال ـ وكانت خليقة بتلك المقدمة التي وضعها للكاتب استاذنا الجليل أمين الخولي. حامل لواء القومية في الادب وحامي ذمار الشعبية فيه لانها المصورة القائمة على حفظ جانب هام من هذه القومية في الادب...

وبقي علينا اخيرا ان ندلي ببعض الملاحظات التي واجهتنا في قراءة ذلك الكتاب القيم وهي كالآتي :

يقول الدكتور في اول صفحة من الكتاب : ان الجاهلية معناها ما يقابل المعرفة وهو «معنى يغلب عليه النظر الديني، ولكننا ... نفهم منه ما يقابل الحلم لا ما يقابل العلم» .

والحقيقة ان هذا المعنى الذي فهمها المؤلف هو المعنى نفسه الذي يومىء اليه القرآن الكريم بقوله : «حمية الجاهلية» وهو الذي اراده الشاعر الجاهلي حينما اشتق مما نسب اليه وذكره فقال :

الا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وهو الذي أراده الآخر في قوله وقد قابله بالحلم :

أظن الحلم دل على قومي وقد يستجهل الرجل الحليم

اذن فمدلول الجاهلية في الاسلام - في اوله على الاقل - لا يختلف عنه في الجاهلية ولا فيما يرى المؤلف .

وفي صفحة ٣٨ يجعل حروب الردة مظهرا من مظاهر العصبية. ولكن الواقع ان هذه الردة وحروبها كانت بمنأى عن ذلك سواء من ناحية المرتدين ام من ناحية المسلمين - وعلى رأسهم ابو بكر - اذ السبب الاقوى فيها ان العرب المرتدين امتنعوا عن اداء الزكاة لانهم رأوا في ذلك معرة عليهم تجانف عزتهم العربية. ولهذا قال ابو بكر : والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه .

وفي صفحة ٨٢ يرى أنه من مظاهر استعلاء الرجل العربي على المرأة ان اللغة العربية «تستعمل جمع المذكر للجماعة المختلطة» فهذا اذا كان شائعا في العربية - وليس دائما - فليست العربية وحدها تختص بهذا الاستعمال : بل نجد الاسبانية كذلك، كما نجد الانجليزية تستعمله حيث تذكر كلمة الرجل او الرجال في كثير من التعبيرات ولا تريد بها الرجل او الرجال خاصة بل تريد الانسان او الناس على الاطلاق. يقول شيكسبير في رواية «يوليس قيصر» : Men at some times, are masters of thier fates;

ولعل الالمانية حينما تبنى الفعل للمجهول. انما تسند فيه الفعل للرجل Man ولو انها في غير هذه الحالة تضيف الى الرجل n اخرى : Mann

وعلى هذا فليس استعمال العربية خاصا بها حتى نستشهد به على ان اصحاب اللغة يستعلي الرجل منهم على المرأة ...

وفي صفحة ٩٥ يقول : « ليس هناك خطأ اشيع من القول بان الهلال هو شعار الاسلام ... فالمحقق ان الهلال قد استعمل قبل ظهور الدولة العثمانية » مع اننا نجد هذا الهلال قد استعمل على عهد النبي عليه السلام ففي الاصابة عند ترجمة سعد بن مالك الازدي نجد ان النبي عقد له راية - على قومه - سوداء وفيها هلال ابيض .

وفي صفحة ٩٦ يستبعد أن يكون الهلال شعار الهلالية مع أن الموحدين قد اتخذوه شعارا لهم. يقول : فاتخاذ الموحدية للهلال يقطع بان الهلالية لم يميزوا انفسهم به وهم الذين حاربهم الموحدون «وليس يعقل ان يجتمع خصمان على شعار واحد» والحقيقة ان الهلاليين لم يكونوا دائما خصوم الموحدين؛ بل ان هؤلاء نجدهم يستميلونهم برسائل كتابهم واشعار شعرائهم

وفى النهاية كانت من فرقهم كثير من الهلاليية يحاربون في صفوفهم ويعتمدون عليهـم ...

وبعد فان الكتاب على قيمته التي وصفنا يؤسفنا كثيرا أنه لا تخلو صفحة منه من الاخطـاء او الاغـلاط الطباعيـة، فالتصحيف شائع فيه خصوصا فيما يتصل بمسالة الاعجام، وفـي الحواشي التـي تشير الى المراجع الاروبية وحتى المقدمة التـي كتبت فـي نهايته بالانجليزية في تسع صفحات تضم تسعة اغلاط، مما يدل على ان العربيـة نفسها ليست هى المسؤولة عن هـذه الاخطاء او الاغلاط نفسها لهيئة كتابتها، فالمسالة يا قوم مسالة انتباه من ناحية وعدمه من ناحية اخرى، فهذه العربية في كتابتها التي تنعـون عليها اذا ما خرجت من مطبعة اروبية تخرج سالمة خالصة لا تصحيف فيها. اما العربية فانها ان خرجت من مطابـع اصحابهـا فالويـل لها ثم الويـل، والويل لهذه الحروف اللاتينية نفسها اذا ما سقطت في يد الشرقيين مع الاسف الشديد، ومع الاسف الاشد ان هـذا الكتاب اخرجتـه مطبعة جامعـة القاهرة المثالية غير التجارية ...

م. ت.

كتاب «عيار الشعر»

لمحمد بن احمد بن طباطبا العلوى

تحفة من التحف الادبية التـى كنا نعثر على اسمها فى كتب التراجم والنقد، ولكنا لم نكن نظفـر بشىء منها. الى أن اتحفنا بها صديقنا الجليل الدكتور طه الحاجرى الذى تولى هو وزميله الفاضل الدكتور محمد زغلول سلام تخريج نسخة منها تخريجا علميا وقدماها الى الطبع، فخرج الكتاب الى الوجود بعد ما قضى فى ظلمة الخزائن ما يزيد على الـف سنة لم ير فيها من النور الا بصيصا وفى الفينة بعد الفينة.

وبالرغم من المخرجين الفاضلين لم يعتمدا فى عملهما لاخراج الكتاب الا على نسخة واحـدة كما صورت من مكتبة «الاسكوريال» لمعهد المخطوطات التابع للجامعة العربية، فقد وفقا فى ذلك العمل الى أقصى حد بما علقا على نصوص الكتاب او لفقا فيه بعض الكلمات او الجمل وشفعا ذلك بمقدمة مهدا بها للكتـاب وصـورا فيه البيئة الاجتماعيـة والعلمية التـى كان يحيى صاحبه فيها ثم تعرضا لترجمة الكاتب وذكر ما له من أثر أدبى، وما استهدف اليه بعضه من نقد وهو كتابنا الذى نتحدث عنه ...

نعم، لقد وفـق الدكتوران فـى عملهما الى أقصى حد، ولكن الطباعة العربية ـ فى شرقنا ـ لا تساعد أحدا على أن يبدو عمله مخلوقا كاملا ـ ان كان فى المخلوقات كمال ـ وانما تمتد يدها العابثة الى ذلك المخلوق فلا أقل من أن تغير فى هندامـه ان لم تغير فى خلقه. وبحمـد الله ان كان عبثها فى «مخلوقنا» هـذا من النوع الاول؛ فلم تتعد ان تحل الفاءات محـل الغينات او النونات او تقيم الضاد فى النهاية محلها مع النون فى النهاية كذلك او تطوح بسين وسط الكلمة مثلا ...

ولقد تنبه المخرجان الكريمان الى هذا العبث الخفيف او الثقيل فاضافا الى صحف الكتاب صحيفة أخرى فى النهاية وخطا فى أعـلاها «استدراك» ولكن هذا الاستـدراك فاته بعض ما كـان سيستدرك من تلك الامثلة التى قدمناهـا .

ومهما يكن فالخطـب ـ كما يقال ـ سهل، ولا يبقـى بعد هذا الا ان يسدى الشكر الجزيل للاستاذين الجليلين، والتقدير العظيم لعملهما العظيم...

حتى يلتذ الفهم بحسنها، ويجعل الجمال بين هذا الازدواج من غير ان يمير احدهما عن الآخـر كما فعـل العسكـرى بالفـاظ وابـن شرف بالمعانى فيما بعـد .

ثم تناول السرقات ودقق احكامه فيها ولم ينف من بينها الا ما لا يحسن فيه السرق ومثل لذلـك بامثلة ونصح مـن يزيدها ان يخرج من النثر الى الشعر او يعكس او ينقل الاوصاف من حيوان مثلا الى انسان او جماد او ما الى ذلك من ضروب الاخفـاء التى لا تقصد لذاتهـا وانما تخلـق معهـا صور جديدة تضاف الى غيرها من صور الفن فى الكلام، وبعد ما يستبعد فى النقد الناحية الفلسفية التى ينص عليها بالذات يتنبه الى شىء ذى بال فى نقدنا العربى وهو مسالة وحدة الموضوع فى القصيدة وتسلسل ابياتها من بيت الى آخر والا يبقى كل بيت مستقلا بنفسه شأن البيت العربى فى خيامه كما يقول بعضهم حديثا .

وبالجملة فالكتاب من اقيم الكتب العربية فى النقد واقدمها ان لم يكن اقدمها فى نوعه، ولا تكفى هذه السطور لان تقدم عنه فكرة صحيحة وانما هى لمحة خاطفة وايماءة بسيطة، والشكر اولا وأخيرا لمن تولى اخراجه للوجود ووضعه بين يدى القارىء .

م. ت.

كتاب «الآثار الاندلسية الباقية»

للاستاذ الكبير الدكتور محمد عبد الله عنان

لقد أضاف أستاذنا الى مجموعة الكتب القيمة التى أصدرها - ونشرت فى العالم العربى - كتابا آخر لا يقل عنها قيمة وطرافة وهو كتاب « الآثار الاندلسية الباقية».

هذا الكتاب يجمع بين نهجين فى التأليف : نهج البحث التاريخى فى الآثار، ونهج الرحلات التى تصف ما تشاهده وصفا واقعيا... ولو ان المؤلف فى مقدمته يبتعد عن هذه الصفة الا اننا لا نبعد كتابه عنها، بل نكاد نجعل له هذه الصفة هى الغالبة عليه وهى التى لمسناها فى كتب الرحلات فى القديم والحديث. ونقتصر منها على هذه الكتب التى تناولت موضوعه بالذات؛ مثل كتاب «رحلة الوزير فى افتكاك الاسير» وكتاب «نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد» اللذين رجع اليها المؤلف فى بحثه ثم كتاب «الرحلة الاندلسية» للبتنونى وكتاب «الحلة السندسية» للامير شكيب - ولو ان المؤلف لم يشر اليهما بشىء - .

وعلى كل فقد استفاد الباحث الرحالة فى تأليفه بعدة كتب اروبية، وعربية فى الرحلات والبحوث، ومن بينها كتاب Albert F. Calvert الذى سمى كتابه بهذا العنوان نفسه : MOORIS REMAINS IN SPAIN كما استفاد من خبرته الواسعة ومشاهداته التى سجلها - كما يقول - «فوق الصروح والاطلال الدارسة ، وفى ثنايا الكنائس الجامعة وفى أروقة المتاحف العديدة ، وزين دراسته ومشاهداته هذه بصور عديدة لتلك المشاهد والآثار . وبعض الشخصيات التى دخلت فى عداد التاريخ، كما اضاف الى ذلك بعض الخرائط - على قلتها - للاهمية الخاصة التى أبرزها من بين ما عالجه فى الموضوع .

وقسم مؤلفه الذى يقع فى ٣٥٩ صفحة - من القطع التوسط - على ستة كتب : الاول فى القواعد الاندلسية الكبرى، والثانى فى الثغر الاعلى وشرق الاندلس، والثالث فى مملكة غرناطة وما اليها، والرابع فى نافارا وقشتالة القديمة، والخامس فى ليون وجليقية والاستيرياس، والسادس فى الاندلس الغربية والبرتغال. ثم ختم الكتاب بخاتمة تناول فيها تراث الاندلس الفكرى والآثار العنوية - كما يقول - .

فجاء كتابه هذا في حلة أنيقة وشارة بارعة تتسم بها كتب الاستاذ الذى شهر ببحوثه وبراعته وأناقته ـ كذلك ـ فيها ...

وبقى علينا ان نبدى بعض الملاحظات على الكتاب فيما يأتى :

فى صفحة ٢٨ نقل من نقوش جامعة قرطبة آية قرآنية سقط من نقله ـ ـ على ما نظن ـ بعض اجزائها، فلقد نقل الآية : «ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى» هكذا : «ومن يسلم وجهه الى الله فقد استمسك...» وسقط «وهو محسن».

وفى صفحة ٤٧ نقل آية الكرسى ـ ناصا عليها ـ مفتتحة بـ «بسم الله والاهكم اله واحد» ثم «لا اله الا هو الحى القيوم...» مع ان «بسم الله والاهكم اله واحد» ليست من آية الكرسى فى شىء. ولو انه ـ بعد ما تكلم عن آية اخرى ـ نبه فى صفحة ٤٨ على ان المدجنين كانوا ينقلون كثيرا من الآيات محرفة. الا انه لم ينبه على ذلك التحريف الذى وقع فى آية الكرسى ...

وفى صفحة ٣٠ يقول : «ولم يبق اليوم غيره (جامع قرطبة) فى عاصمة الخلافة القديمة من الآثار الاندلسية الذاهبة سوى منارة صغيرة قديمة» والواقع كما شاهدنا فى قرطبة عدة مرات انه ما زال بها كثير من المنارات الاسلامية؛ لدرجة اننا فى بعض الرحلات وكان يرافقنا «كوميسر» الزهراء «ضون رفاييل كاستيخون» فيها ـ كان يسترعى نظرنا كثيرا هذه المنارات بجانب الكنائس، فنلقى عليه اسئلة متكررة، هل هذه كانت مسجدا ؟ فيجيب: نعم، وفى الاخير قال لنا : «ان كل كنيسة بقرطبة اقيمت على أنقاض مسجد كان بها».

كما لاحظنا على المؤلف وقد تكلم عن آثار قرطبة، والزهراء بتوسع انه لم يفعل ذلك فيما يتصل بالزاهرة، مع انها ما زالت تحتفظ ببعض آثارها المنقولة، او التى ما زالت رابضة فى مكانها؛ مثل الصهريج الذى سجل له التاريخ والاشعار كثيرا من مجالس الانس به خصوصا على عهد المنصور بن ابى عامر، فلعل المؤلف فاته مشاهدة هذا الاثر القيم ...

وفى صفحة ٣٨ يتكلم عن اشبيلية فيقول : انها «كانت أعظم .... من قرطبة ذاتها» والذى نعلم من تاريخ المدينتين ان اشبيلية لم تصل فى عصر ازدهارها من العظمة مثل ما وصلت قرطبة فى عصر ازدهارها من تلك العظمة خصوصا فى عدد السكان.

وفى صفحة ٤٢ تكلم عن منارة «لا خيرالدا» وتعرض لمنـارة الكتبية بمراكش، ولكنه لم يتعرض لمنارة جامع حسان بالرباط مع انها ثالثة الاثافى ـ كما يقال ـ للمنارات الثلاث الشهيرة. فلعل المؤلف كتب كتابه قبل ان يزور الرباط فلم يشاهد تلك المنارة. على ان المراجع التاريخية والادبية قلما اغفلت الاشارة اليها حينما تعرضت لمنارة الكتبية او منارة «لا خيرالدا»..

وفى صفحة ٥٠ وغيرها حينما تعرض للكلام على المسجد الاشبيلى الذى اقيم عليه كنيسة «سن سالفادور» لم يرجع فى ذلك الى مشاهداته، وانما نقل الكلام عنـه ـ باقتضاب ـ عن مرجع اسبانى. مع ان المسجد ما زال قائمـا بملامحه الاسلامية ، واهمها الصحن المحاط من جميع جوانبه باعمدة رخامية وعقـود بديعة، ثم الصومعة او المنارة التى تواجه المارين حوله او المتخطين لصحن المسجد، وهى تندب حظها وتعول صارخة... فلعل المؤلف لم يزر هذا المسجد ـ الذى يوحى بكثير مـن الاسى ـ والذى تحدثت مع المؤلف فى شأنه سنـة ٥٤ لما زار تطوان وسعدت بمرافقته، فأجاب بأنه لا وجود له باشبيلية. وكنت انتظر منه انه سيبحث عنه فى عودته التى عاد فيها الى اشبيلية. ولكن يظهر انه لم يفعل ...

وفى صفحـة ١٠٨ يستغرب من وجود بعض الوثائق التى عثر عليها مكتوبة بالعربية ـ الى جانب القطلانية واللاتينية ـ فى جزيرة ميورقة، مع ان تاريخها يحمل العصر الذى كان النصارى قد استردوا فيه هذه الجزيرة..

والواقع انه لا مناط للاستغراب او الاستفهام؛ فهذا الذى فاجأ المؤلف هو ما وجدناه فى وثائق جزيرة «صقلية» بعد ما انتزعهـا النصارى من يد المسلمين، فعثرنا على وثائـق كتبت ـ آنذاك ـ بالعربية الى جانب اخواتها باليونانية. ويكفى ان ترجع الى مجموعة «Doc menti. Degli Archivi Siciliaani» العظيمـة لنضـع يدنا على مجموعة حافلة من هذه الوثائق، بل ان المتاحف الاسبانية نفسها تضم كثيرا من نوع هذه الوثائق التى كانت في طابعها لما تزل مرتبطة باللغة العربية التى كانت وحدها تتحفظ بميزة التوثيق الدقيق وما اشبه اليوم فى مغربنا بالامس فى غيره ...

وفى صفحة ١٣٢ يعلل سبب ابقاء النصارى على الآثار الاسلامية فى غرناطة تعليلا حسنا وهو ان يظل ذلك الاثر عبرة للتاريـخ وذكرى للاجيال المقبلة. ومع اقرارنا لهذا التعليل المعقول فاننا نضيف اليه تعليلا آخر؛ وهو ان النصارى لم يروا فى محـوه داعيـا؛ لان تلك الآثار التي كانوا يقومون

بهدمها لم يكونوا مطمئنين الى انها ستبقى بيدهم ، فالصراع حولها بينهم وبين المسلمين كان فى مد وجزر، ولكنهم الآن وقد قضوا على كل سلطان للمسلمين فى بلادهم واقاموا آخر ملك لهم عن دست الملك وشردوا اولئك الذين ساكنـوهم وحاربوهم عدة قرون متتالية فاطمأنوا كل الاطمئنان بأن البلاد كلها صارت قبضتهم، بعد هذا كلـه لا داعـى لهدم تلك الآثـار اللهـم الا ان تكون مساجد فهنا لابد من محوها او اقامة كنائس على انقاضها .. هذا اذا لم ترجـع سبب الابقـاء ـ على الحمراء بالخصوص ـ الى امتلاك عائلة ليست اسبانية لها ...

وفى صفحة ٢٠٣ ينسب لعمر بن حفصون كنيسة ما زالت باقية تحمل اسمه بعد ما تنصـر فبناها. والحقيقـة ان مسألة تنصر عمر ـ بالرغم من ذكرها فى عدة مراجع ـ ما زالت تحتاج الى تحقيق تاريخى، فنحن نعلم انه كان يخطـب لبعض امارات الادارسة على الشاطىء المغربى الاطلسى، وهى امارة البصرة التى كان صاحبهـا آنذاك ابراهيـم بن القاسم بن ادريس بن ادريس ونحن نعلم مقدار ذلك الصراع العنيف الذى واجه به الخلافة الاموية بقرطبة وأقض به مضاجعها : فلعل قصة تنصره مبالغ فيها وانهـا من وحى الخلافة الـذى كانت تستغله بالاندلس كما كانت تستغل نحوه بالشرق فى مثل التشنيع على الوليد بن يزيـد. واذا فرضنا ان القصة حقيقية؛ فليس من المعقول ان تتغلب الخلافة الاموية على امارته ويقع بنوه فى يديها، ثم تبقى على تلك الكنيسة التى تعايشنا الآن ...

وهنا نقف لنحيى استاذنا العظيم ولنهنئه على تاليفه القيم الـذى لم تجن عليه الطباعة جنايتها على غيره من الكتـب العربيـة، والذى اهتم به صاحبه فتنكب أخطاء الطباعة فى معظمها ولو ان الكتاب لم ينج من بعضها خصوصا فى التغييرات التى تطرأ على الجموع السالمة ـ فى التذكير ـ وما هو بسبيلها من المثنى ، فى تلك الواوات والياءات والألفات العنيدة . راجين لاستاذنا دوام العافية واستمرار النشاط فى الحقل المغربى الاندلسى وفى الحقول الاخرى ...

محمد بن تاويت

الانبـاء الثـقـافـيـة

ـ تقرر أثناء الدورة السنوية لمنظمة اليونيسكو التى انعقدت بدلهى الجديدة قبـول عضوية المغـرب فى هذه المنظمة الثقافية بمجموع أصوات الحاضرين .

ـ سيسافر الى العراق بدعوة رسمية من وزارة معارفها، الاستاذ محمد الفاسى وزير التعليم والفنون الجميلة بعد انتهائه من حضور مؤتمر اليونيسكو الذى انعقد بدلهى الجديدة بالهنـد ؛ وكـان علـى رأس الوفد المغربى الذى مثل بلاده فيها . وقد اعـدت وزارة المعارف العراقية منهاجا خاصا بمناسبة هذه الزيارة .

ـ فى منتصف شهر اكتوبر دشنت صاحبة السمو للاعائشـة مكتبـة الجامع الكبير بالرباط.

ـ زار أخيرا فى رحلة ثقافية الكاتبان الانجليزيان المعروفان روم لاندو الذى له مؤلفات عن المغرب ـ وقد تشرف بالحضور بين يدى صاحب الجلالة وقدم له مؤلفه الاخير عن المغرب المستقل ـ والآنسة الرحالة نينا إبتون التى لها كذلـك مؤلفـات عـن المغـرب والشرق العـربـى . كمـا زاره أيضـا الدكتـور حسيـن مـؤنس مدير المعهد المصـرى الاسلامـى بمدريد سابقا

ـ قوبل بارتياح كبير فى الاوساط الثقافية والعلمية نبأ تعيين البحاثة محمد ابن تاويت مديرا لمعهـد مولاى الحسن بتطـوان لنشاطه الثقافى، وعمق أبحاثه خلفا للاستاذ عبد الله گنون فنهنئه بهذا التعيين آملين أن تنشط حركة البحث وتزدهر فى المغرب على يديه .

ـ يلاحظ فتور كبير فى الحقل الادبى والثقافى بالمغرب ويرجع ذلك الى عدم وجود أية مجلة تعنى بالادب والثقافـة . ونحن نناشد وزارة التعليم والفنون الجميلة، والهيئات العلمية والادبية، أن تعمل على تنشيط الجو الادبى وتساعد علـى صـدور نوع هذه المجـلات ، وتنظيـم المحاضـرات والرحلات العلميـة .

ـ وصلنا العدد الاخير من مجلة «تمودة» للابحاث المغربية والاندلسية التى تصدرها نيابة التعليم بتطوان، ويشرف عليها نخبة من البحاث المغاربة والاسبان . وينطوى هذا العدد السابع على الابحاث الآتية :

«شكايتـان من يوسف الثالث ملك غرناطة موجهتان الى فرناندو الاول ملك لاركون بشأن عدم تنفيـذ الهدنـة» لمريانـو أريبـاس . «اقتراح بتموين العرائش والمعمورة سنة ١٦٤٥» لغييرمو گواسطافينو. «حفريات تمودة من سنة

١٩٤٩ الى ١٩٥٥» لمگيـل طراديل» «كمين فـى العرائـش بتاريخ ٧ فبراير ١٩٣١ لدورا باكايكوا . «رعية عثمانى فى اسبانيا فى القرن التاسع عشر» لاينما كولادا استرايمرا . «مذكرة حول تموين المرسى الكبير سنة ١٩٢٩» لدفيد طورا، وينتهى العدد بأخبار فنية وثقافية وأدبية. ويصدر مع هذه المجلة ملحـق أدبى هـو مجلـة «كتامـة» التـى يشـارك فيها نخبـة مـن الادبـاء والشعراء العرب والاسبان . ويديـرها الشاعـر خثينطو لوبيث گورخى وقد نشر بهذا العدد مقال تحت عنوان «التوازن الادبى» للاستاذ عبد اللطيف الخطيـب .

ـ صدرت فى المغرب أخيرا الكتب الآتية : «مختصر تاريخ تطوان» للاستـاذ محمد داود، كما تم تجديد نشر كتـاب «دلائل الاعجاز» للامام عبد القاهـر الجرجانـى بتحقيق وتعليق وتقديم عن تاريـخ البلاغة للاستاذ محمد ابن تاويت . «نضال ملك» للاستاذ محمد رشيد ملين . «الطفل» للدكتور محمد السكيـرج . «فـى الطفولة» للاستاذ عبد المجيد بن جلون . «شلال الاسود» لمحمد الصباغ.

ـ فـى يوم ٢٥ مارس من هـذه السنة تـوفـى بباريس المستشرق المعـروف ابريستو ليفـى بروفنصال الذى ولد بالجزائر بتاريخ ١ ابريـل سنة ١٨٩٤ . درس فـى معهد قسنطينة ثم فـى جامعة الجزائر. وكان أحد أعضاء «معهد الدراسات العليا» بالرباط . وبعد الحرب العالمية الثانية رشح أستاذا بجامعة السربون للدراسات الشرقية. ويعد «تاريخ اسبانيا المسلمة» من أهم الكتب التى نشرها . واليه يرجع الفضـل فى احيـاء تراث المغرب والاندلس الثقافـى، وللفقيـد شهرة عظيمة فى الغرب والشرق لما قام به مـن أعمال .

ـ لحقت بالاستشراق خسارة كبيـرة بموت عميدهـا البروفسور كارل بروكلمان الذى كانت وفاته فى أواسط يونيه من هذه السنة بمدينة هالى الالمانية. وقد ولد بروكلمان بمدينة روستول ـ المانيا، وفيها نشأ وتلقى علومـه الابتدائيـة والثانويـة، وأتمهـا فـى جامعات روستـول، وبرسلـو، وستراسبورج . ثم تولى التعليم أستاذا محاضرا فى جامعات ستراسبورج، ومنها انتقل أستاذا للمشرقيات فى جامعة كونفسبرج ثم فى جامعة هالى . ومنها انتقل الى جامعة برلين، ثم الى جامعة برسلو . وكان عضوا عاملا فى كثير من الاكاديميات والجامعات العالمية والاستشراقية . فقد عمل عضوا فى أكاديميات العلوم ببرلين، ولنبزيغ، وبودابست. كما كان عضوا فى الجمعية الاسيوية البريطانيـة، والجمعيـة الاسيوية الفرنسية، والجمعية الامريكية

الشرقية، كما كان عضـوا في المجمـع العلمي العربي بدمشق، والمجمع الملكي المصري، ألف في فقه اللغات السامية، والطورانية، والعربيـة، والسريانية ، والتركية ومن مؤلفاته المشهورة «تاريخ الادب العربي في مجلدين» تاريخ الشعوب ومن مؤلفاته المشهـورة «تاريـخ الادب العربي في مجلدين» تاريخ الشعوب والدول الاسلامية» (عربه الدكتـور نبيه فـارس ومنير البعلبكي) «بحث في الارامية والسريانية» «معجم سرياني» «كذلك نشر بعض الكتب القديمة مثل «عيون الاخبار» لابن قتيبة و «لغة التـرك» لمحمـد الكشغري. والى جانب هذه المنشورات له مائات المقالات والابحاث العلمية .

ـ منحت جائزة نوبـل للادب لسنـة ١٩٥٦ للشاعر الاسباني خوان رامون خيمينث المسمى بـ «الاشبيلي العالمي»، وقد ولد في «موكير ـ ويلبا» يوم ٢٤ دجنبر سنـة ١٨٨١. درس الحقوق في جامعة اشبيلية وبعد احرازه على شهادتها انتقل الى مدريد وشرع يصدر دواوينه حتى تالق نجمه. وفي سنة ١٩٣٦ هاجـر مع زوجتـه «زينبيـا» ـ مترجمة آثـار وابندرانات طاغور الى الاسبانيـة ـ الى بويرتـو ريكو حيث عمـل أستاذا في جامعتها. ومن سوء الصدف أنه علم بفوزه بجائزة نوبل وزوجته زينوبيا على فراش الموت. وكان مقررا أن يحضر الى استوكلهم ليتسلـم جائزته التي قدرها في هذه المرة مليون ونصف من البسيطات، ولكنه اصطدم بوفاة زوجته فعدل عن السفر، ومن كتبه الشهيرة التـي ترجمت الى عديـد اللغـات الحية «أنا والحمار» «ذكريات شاعر حديث بالزواج» «الخلـود» .

ـ في مساء يـوم ٣٠ اكتوبـر الماضي وعلى الساعة الخامسة توفي الروائي الاسبانـي العالمي بيو باروخا عضـو المجمع الملكي الاسباني للغة عن سن أربع وسبعين سنة، وكان مرشحا لجائزة نوبل للادب منذ أربع سنوات .

ـ فـازت السيدة كارمين كوزر بجائـزة «بلانيتا» للقصة، عن قصتها «المجهول» وقدر هذه الجائزة مائة الف بسيطة، وقد تقدم الى هذه المسابقة الادبية الاسبانية ١٨٧ قاص .

ـ اجتمع في أواسط اكتوبر الماضي في قصر سانتا كروث بمدريد لجنة العلاقات الثقافية، وعالجـت كثيرا مـن الموضوعـات التي لها مساس بالثقافة، وحضر هذا الاجتماع وزراء : التعليم، والخارجية، والانباء، والسياحة.

ـ صدر العدد الاخيـر من مجلة «الاندلس» التابعة لمدرسة الدراسات العربية بمدريد وغرناطة والتي يشـرف على اصدارها المستشرق ايميليو

گرثيا گوميث . وقد شـاركت بأبحاثهـا فى هـذا العدد جماعـة من البحاث والمستشرقيـن الاسبانيين المعروفيـن كخوسى ميـاس فييكروسا، وداريو كبانيلاس، وإيميليو گرثيا گوميث .

ـ استدعت الحكومة التونسيـة بدعـوة مـن معهد الدراسات العليا بتونس الدكتور طه حسين لالقاء عـدة محاضرات ادبيـة وثقافية بمنابرها ، وذلك بمناسبة مرور خمسمائة وخمسين سنة على وفاة فيلسوف المؤرخين ابن خلدون . فهل ستستدعيه حكومتنا الى المغرب ؟

ـ احتفـل فى الايـام الاخيـرة بتونس بمرور مائة عام على صدور جريدة «الرأى التونسي» التى هى أقدم جريدة صدرت في الشمال الافريقى

ـ رشح لجائزة نوبل للادب لسنـة ١٩٥٧ الدكتـور طه حسين. ومن المعلوم انه قد رشح لهذه الجائزة منذ أربع سنوات. وإنه لفخر عظيم للعربية وآدابهـا أن ينال عميـد الادب العربى هذه الجائزة العالمية التى يستحقها بعدل وانصاف .

ـ وافقـت وزارة المعـارف العراقيـة على قيام بعثة المعهد الاسبانى بـدراسة تاريـخ الانسان الاول وذلك بالبحث فى أحد المواقع العراقية عن الادوار الحجرية الاولى .

ـ صـدر أخيـرا فى العراق جريدة «المجتمع» التى تعنـى بالبحوث الثقافية والعلمية .

ـ وجهت وزارة المعارف العراقيـة كتابا الى وزارة المعارف السورية تعلن فيها عن تأييدها حول تشكيل مجمع لغوى موحد لدرس امكانية تبسيط اللغـة العربيـة .

ـ عقـد فى أواخر شهـر شتنبر فى دمشـق مؤتمر المجامع العلمية العربية العربية ودار الحديث فيها عن انشاء مجامع علمية فى البلاد التى لا مجامع بها، وعن تأسيس اتحاد بين هذه المجامع العلمية وتوحيد اهدافها، ودرس المصطلحات العلمية والاتفاق على قانون موحد لتعريبها .

وبهذه المناسبة القى الدكتور طه حسين محاضرة فى الجامعة السورية التى انعقد فيها المؤتمر ومما جـاء فى محاضرته قولـه : « ... اننا نعيش فى القرن العشرين الـذى تغيرت فيه كـل القيم، وما زلنا نعلـم اللغة كما كان يعلمها أجدادنا منـذ أكثر من الف عام. ونحن الآن فى وقت اشتدت الدعوة فيه الى الوحدة. فاذن لابد من جعل اللغة لغة الشعب لا لغة الخاصة، فاما أن نريد وحدة العرب حراصا عليها، فاذن لابد من جعل اللغة لغة الشعب لا لغة الخاصة. واما أن يكون كلامنا عن الوحدة كلاما. فاذن دعوا اللغة العربية تمضى

في طريقها حتى تصبح لغة الكتابة. وأنا في هذا لا أدعو لهجر القديم ولكن لم لا يكون النحـو وكل العلوم العربية متطورا كما تتطور اللغة في وقت انصرافنا فيه علماء اللغة ليعملوا عـلى تيسيرهـا . وبدعـوة أخـرى الى الشباب ليطالبوا علماءهم بهذا الحق على الا يمس في ذلك جوهر اللغة .

ـ تشتغـل دار الريحانـي للطباعة والنشر ببيروت مع نخبة من الكتاب والمفكرين العرب في اصدار موسوعة عربية .

ـ سلم الاستاذ محمد قشطيليو الى ادارة معهد مولاي الحسن للابحاث كتابه الذي جمع فيه معلومـات قيمة عـن الموريسكوس واقتبسها من كتب اسبانيـة ووثائـق عربية نادرة. وذلك ليقوم المعهد المذكور بنشره كاول تاليف باللغة العربية في هذا الموضوع .

ـ عهـدت وزارة التربيـة الـوطنيـة والشبيبـة والـرياضـة الـى العلامة الباحث سيدي ابراهيم الكتاني بالبحث عن المخطوطات فقام في هذا الصـدد بزيـارة مكتبة «تامگروت» الناصريـة وقدم تقريرا عن محتوياتها وهـو الآن يعد فهرسا لهـا. ولا شك أن الوزارة قد أعطت القوس باريها. فالاستاذ الكتاني يعيش بيـن جـدران الكتب ولا يتنفس الا رياها ولا يلهج الا بذكـرها .

ـ تكونت لجنة من كبار المثقفين الباحثين ومن بينهم الاستاذ الكبير سيدي ابراهيم الكتاني لتحضير المجلد الرابع من الذيل والتكملة واعداده للطبع بعد تحقيق نصحـه ومراجعة ما يلـزم من المراجع ليخرج المجلد في حلة لائقة به.

اعد الانباء محمد الصباغ

فهـرسـت

محمد ابن تاويت : تـقـديـم 9

محمد ابن تاويت : «وثيقـة تاريخية عـن تطـوان» 13

عبد العزيز بن عبد الله : « وحدة المغرب العربى مظاهرهـا السلالية واللغوية والفكرية » 51

ماريانو أريباس پالاو : «معلومات جديدة عن سفارة محمد الدليمى ... 69

ميگيل طراديل ماطيو : «تمثالان برونزيان من «لكسوس» 89

محمـد المنونـى : «علاقات المغرب بالشرق أيام السلطان أبى الحسن المـريـنـى » 109

الصديق بن العربى : «طوائـف وشخصيـات مسيحية بالمغرب » ... 153

محمد قشطيليو : «نظرة على تاريخ الموريسكوس » 165

محمـود مكـى : « الخـوارج بالانـدلس » 169

نـقـد الـكـتـب 179

الانباء الثقافية 193

قائمة منشورات نيابة

التربية الوطنية والشبيبة والرياضة بالشمال

فهرس المؤلفين والعناوين للكتب الموجودة بالمكتبة العامة بتطوان، من وضع : احمد ابن محمد المكناسي ــ تطوان 1952

فهرس خزانة الصحف العربية بتطوان، من وضع : محمد ابن عزوز حكيم ــ تطوان 1953

الشرق الاسلامي والحضارة العربية الاندلسية، بقلم: ليفي بروفنصال ــ تطوان 1951

قصتان مغربيتان : «احمد» كتبها انريكي دي رويدا غريدو، و «طه» كتبها احمد الحسن السكوري ــ العرائش 1941

تاريخ المحاكم الاسلامية، الجزء 2 ، للفقيه السيد محمد المرير ــ تطوان 1955

نوبة اصبهان، لاركاديو دي لاريا پلاثين ــ تطوان 1956

ابن خلدون، بقلم الدكتور محمد عبد الله عنان ــ القاهرة 1939

رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة ، بقلم الدكتور محمد مصطفى زيادة ــ القاهرة 1939

ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض ، تاليف شهاب الدين احمد بن محمد المقرى التلمساني . ضبطه وحققه وعلق عليه الاساتذة : مصطفى السقا ، ابراهيم الابيارى، وعبد الحفيظ شلبى ــ القاهرة 1939

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى، تاليف الاستاذ آدم متز. نقله الى العربية الدكتور عبد الهادى ابو ريدة ــ القاهرة 1940

أمام الذكرى المئوية السابعة لوفاة ابن البيطار، بقلم : خوليو كولا البريك ــ تطوان 1948

واحة الفكر، بقلم عبد الله كنون ــ تطوان 1948

دراسة سلالة شمال افريقيا، بقلم خوليو كولا البريك ــ تطوان 1948

ضون انخيل كونثالث پلينثيا (1889 ــ 1949)، محاضرات بقلم ضون ماريانو اريباس پلاو والسيد محمد عزيمان وضون گييرمو گواسطافينو گيينت وضون طوماس غرسيا فيغيراس ــ 1950

حياة الصوفي التطواني الشريف سيدي عبد السلام بن ريسون وكراماته، بقلم عبد الرحيم جبور ــ تطوان 1951

لباب المحصل في اصول الدين، لابن خلدون الحضرمي، الجزء الاول. تحقيق الاب لوسيانو روبيو ــ تطوان 1952